



دکتر سائرخصباک

ابہ بطوطہ ورحمۃ

الدكتور شاكر خضير

أبـن بطـوطـة ورحـلـته

سأعدت جامعة بغداد في نشره

مطبعة الآداب — النجف الأشرف

١٩٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يعتبر ابن بطوطة سيّد الرحالة العرب والمسلمين ، وقد قدّر ما قطعه في رحلاته بما يربو على خمس وسبعين ألف ميل ، ومن المؤكد أنه يبرز جميع الرحالة القدماء - الأفرنج والعرب - في اتساع رحلاته ، ولم يكن يدانيه سوى « ماركو بولو » البندقي ، ورحالة هذا شأنه جدير بأن يلقي كل تقدير واعزاز ، وحرى أن تنال « رحلته » المسماة « تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » كل عناية واهتمام .

والواقع أنه لم يكن رائداً في أدب الرحلات ، فالأدب الجغرافي العربي حافل بكتب الرحلات . وكان الرحالة العرب والمسلمون صنفين : صنف يطوف البلدان لهدف علمي ، وذلك ليسجل المعلومات الجغرافية والاجتماعية عنها تسجيلاً أميناً ، وينتمي إلى هذا الصنف الجغرافيون الرحالة ، وصنف يسوح في الأمصار لغرض تجاري أو سياسي أو ديني ، ثم يدون مشاهداته وملاحظاته في كتاب ، وهذا الضرب من كتب الرحلات يغلب عليه الطابع الوصفي البحت .

ويعتبر اليعقوبي وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي أشهر رحالة الصنف الأول ، فقد عملوا على تسجيل معلومات جغرافية دقيقة وأمينّة عن أقطار العالم العربي والإسلامي لا تستند إلى السماع والنقل من الكتب فحسب ، بل تعتمد على المشاهدة الشخصية أيضاً .

فلقد طاف اليعقوبي بالجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومصر

والمغرب العربي والاندلس . وزار أرمينية وبلاد فارس والهند ، ثم كتب مؤلفه المشهور (كتاب البلدان) الذي يعتبر رائداً في الجغرافية العربية الوصفية .

وساح ابن حوقل في ديار عديدة من ديار الإسلام كالهند وأرمينية وبلاد ما وراء النهر وبلاد فارس ، بالإضافة إلى الأندلس وبعض أقطار شمال إفريقيا . وقد أمضى ما يقرب من ثلث قرن في تلك الجولات . ثم أخرج كتابه المعروف (صورة الأرض) الذي تناول فيه بإسهاب وصف مدن أقطار العراق والهند وفارس وبلاد ما وراء النهر ، كما تحدث عن أهم معالمها الجغرافية . وقد زود كتابه بخرائط جيدة .

وطوق المقدسي في أغلب ديار الإسلام - عدا الأندلس والهند - وفي نيته تأليف كتاب جغرافي عن العالم الإسلامي ، فزار العراق ومصر وبلاد فارس بأقسامها المختلفة وأقطار المغرب العربي ، ثم عكف على تأليف كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الذي جاء مثلاً للمؤلفات الجغرافية الناضجة بتفصيلاته الطبيعية والاقتصادية والبشرية ، لاسيما ما يتعلق بالعراق وبلاد الشام

أما المسعودي فقد تنقل في أنحاء العالم القديم على نطاق واسع . فزار بلاد فارس والهند وسرنديب ومدغشقر وأذربيجان وجرجان وبلاد الأناضول ، وتجول في البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي وبحر الصين . كذلك طاف بأغلب البلاد العربية ، كبلاد الشام وفلسطين وعمان وجزيرة العرب ، ثم استقر أخيراً في مصر . وقد دون معلوماته الجغرافية في موسوعته الضخمة (مروج الذهب) - لاسيما الجزء الأول منها - كما سجل شذرات منها في كتابيه (التنبيه والإشراف) و (أخبار الزمان) . وقد اتصفت موضوعاته بالحيادية والموضوعية تجاه الأقطار

الاسلامية وغير الاسلامية ، واكتسبت أهمية كبيرة بالرغم مما يشوب البعض منها من مبالغات وأوهام .

ويمثل الادريسي خاتمة الجغرافيين العرب الرحالة ذوي الأصالة العلمية والتفهم الصحيح للعلم الجغرافي ، وهو أكثر الجغرافيين العرب والمسلمين معرفة بالأقطار الاوربية والافريقية . وقد زار أسبانيا (الأندلس) وجنوبي فرنسا وإيطاليا واليونان وبلاد الأناضول وجزر البحر المتوسط ، كما تجول في أقطار المغرب العربي والسودان الشرقي . ولم يتح له السياحة في ديار الاسلام البعيدة كالهند وتركستان وكذلك الصين ، لذلك كانت معلوماته عن تلك الجهات غامضة ومشوشة . وقد ألف بناء على طلب ملك صقلية روجر الأول كتابه المشهور (نزهة المشتاق في احتراق الآفاق) الذي اعتمد في تأليفه على مشاهداته الخاصة وعلى ما تيسر له جمعه من المعلومات عن طريق التجار والربابنة وكتب الجغرافية والرحلات . ويعتبر كتابه من أهم المراجع الجغرافية القديمة وقد ألحقه بخارطة للعالم ما تزال تعتبر من أفضل الخرائط القديمة في دقتها وشمولها .

أما الصنف الثاني من الرحالة غير الجغرافيين فقد تنوعت أهدافهم وتعددت أسماؤهم في الأدب الجغرافي العربي . ولعل من أقدمهم التاجر سليمان السيرافي وهو تاجر من بلدة سيرا في القديمة على الخليج العربي وكان هذا التاجر يتجر بالبضائع الهندية والصينية ويتنقل فيما بين البحر العربي وبحر الصين . ولم تصلنا معلومات ومشاهداته بصورة مباشرة ، بل نقلها إلينا شخص آخر كان معنياً بجمع المعلومات عن بلدان الشرق الأقصى وهو أبو زيد السيرافي . وقد عرفت الرحلة باسم « رحلة التاجر سليمان » ، وهي من أوائل الرحلات التي تحدثت عن الملاحة في البحر

العربي والمحيط الهندي ، وصورت عادات سكان الهند وجزر الهند الشرقية والصين . وقد كانت مرجعاً مهماً لكثير من الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين .

وتأتي « رحلة أحمد بن فضلان » في المقدمة أيضاً في أدب الرحلات العربي بالنظر لاهمية معلوماتها . وهي رحلة مبكرة ذات طابع رسمي . فقد أوفد الخليفة العباسي للمقتدر بالله أحمد بن فضلان إلى ملكة البلغار التي كانت تحتل حوض الفولغا الأدنى . فدون مشاهداته أثناء رحلته في رسالة صغيرة حفلت بالمعلومات الجديدة القيمة عن تلك البقاع النائية . ومن أهم المعلومات التي اشتملت عليها الإشارة إلى ظاهرة قصر النهار والليل في تلك العروض العليا ، وكذلك وصف عادات الصقالبة والروس لاسيما ما يتعلق باحتفالات الوفاة .

أما أبو دلف مسعر بن مهمل الخزرجي فقد كان شاعراً قبل أن يكون رحالة ، لكنه أوفد في مهام رسمية عديدة يسّرت له التجوال في بلاد فارس وتركستان والهند والصين . فسجل ملاحظاته ومشاهداته عن تلك الأقطار ، واهتم بشكل خاص في وصف المدن ومياهها ومعادنها ، كما تحدث أيضاً عن عادات السكان ، وترجع أهمية رحلات أبي دلف مسعر إلى معلوماتها المبكرة عن الصين والهند ، وقد اقتبس بعض الجغرافيين والرحالة العرب شيئاً من معلوماتها .

وتعتبر « رحلة ابن جبیر » من أبرز كتب الرحلات في الأدب الجغرافي العربي نظراً لدقة ملاحظاتها وصدق لهجتها وقيمة معلوماتها . وقد طاف ابن جبیر في أقطار شمالي أفريقيا ومصر ، كما زار بلاد الشام والعراق وبعض جزر البحر المتوسط وسردينية بالإضافة إلى بلاد الحجاز التي كانت هدفه الأساسي كيما يؤدي فريضة الحج . وقد سجل مذكراته

اليومية (بالتاريخين الهجري والميلادي) خلال تلك الرحلة . فصور
فيها المعالم الجغرافية للبلدان التي زارها وتحدث عن أوضاعها الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية .

وعرف أبو حامد الفرناطي بكتابه المعنون (تحفة الأصحاب ونخبة
الأحباب) الذي اقتبس منه عدد من الجغرافيين العرب والمسلمين . وكان
أبو حامد قد زار أقطار شمالي افريقيا وبلاد الشام والعراق وبعض جزر
البحر المتوسط (صقلية) . لكن أهم أقسام رحلته هو الجزء المتعلق
ببلاد الخزر وبيلقار الفولغا . فقد اشتمل على بعض المعلومات الطريفة .
وقد حفل الكتاب بذكر العجائب والفرائب والخرافات ، وبأحكام واهية
بما أضعف قيمته العلمية .

وهناك عدد آخر من الرحالة الذين سجلوا مشاهداتهم وملاحظاتهم
أمثال ابن سعيد والهروي والتجاني والعبدري وغيرهم .

أما ابن بطوطة فيمكن القول أنه يأتي في مقدمة أولئك الرحالة
جميعاً كما أشرنا ، فقد أمضى ما يقرب من نصف عمره وهو يتجول
بين البلدان ويختزن في ذاكرته المشاهد والصور والاخبار . فقد غادر
موطنه طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وعاد إليه وقد شارف
على الخمسين . وقد أشار في بداية رحلته أنه كان يهدف إلى حج بيت الله
الحرام ، لكن من الواضح أن رغبة قوية في السفر وحب الاستطلاع
كانت تخفق بين جوانحه ، فظل يطوف بين البلدان طيلة ربع قرن .
وقد زار خلال رحلاته معظم أجزاء العالم القديم المعروف - عدا القسم
الاوربي - بما حقق له تفوقاً على جميع رحالة القرون الوسطى . ولم
تتم تلك الرحلات عرضاً ، بل عن عزم وتصميم كما أشار إلى ذلك في
ثنايا رحلته ، فقد كان يرغب في مشاهدة أكبر عدد ممكن من الاقطار .

وهكذا ساح في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، فزار نجد والحجاز والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ، وطوّف في أرجاء العراق ومصر وبلاد الشام وأقطار المغرب العربي ، ساحل أفريقيا الشرقي . وتجول في بلاد فارس والاندلس وأواسط آسيا وتركستان ، والحوض الأدنى لنهر الفولغا ، وكاد يشدّ الرحال إلى شمالي سيبيريا لولا قلّة الجدوى وعظم المؤونة ، ثم اتجه إلى أقطار الشرق الأقصى فأقام في بلاد الهند زمنًا ، ثم تجوّل بين جزر الساحل الجنوبي الغربي للهند ، ومكث ماينيف على عام ونصف في جزر الملديف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية ، وزار سرنديب والملايو . ثم رحل إلى جنوبي الصين ، وربما تقدم في جولاته حتى شمالي الصين . ولما عاد إلى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاماً حنّ إلى السفر ثانية فقام برحلة قصيرة إلى الاندلس ، ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجهاً إلى السودان الغربي في مهمة رسمية ، ولبث يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين .

واستقرّ به المقام أخيراً في فاس عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان أبي عنان المريني . وراح يقص على الناس أخبار رحلاته الطويلة وما صادف خلالها من عجائب وغرائب وما عرف من الاشخاص . ومنذ البداية أثار تلك الاخبار والحكايات الجدل بين سامعيها بين مصدق ومكذب ، ورائت الشكوك حول ما يروي من حكايات . وترجع تلك الشكوك إلى عاملين : الاول ، شمول رحلات ابن بطوطة أقطاراً قصية لم يكن معاصروه يعرفون شيئاً عن عادات أهلها وأنظمة حكمهم . والثاني ، ما تضمنته حكاياته من مبالغات وأوهام وشطحات الخيال ، لاسيما ما يتعلق بأخبار رجال الدين .

وقد امتدت غمامة الشك إلى العصور التالية ، فلقبت « رحلته » من الجغرافيين والرحالة المسلمين اهمالاً تاماً ، ولم يشيرُوا إليها في كتاباتهم باعتبارها لا تمت إلى المؤلفات الجديدة . ولم يظهر منها طيلة القرون التالية سوى نسخة مختصرة كتبها في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) شخص يدعى البيلوني واطلق عليها اسم (المنتقى في رحلة ابن بطوطة الطنجي الاندلسي) .

ويمكن القول أن أول طبعة ظهرت في البلاد العربية « للرحلة » هي تلك التي نشرت في منتصف جمادى الثانية عام ١٢٨٨ هـ ، وقد نقلت عن الطبعة الفرنسية ، وطبعت في مطبعة وادي النيل وأشرف على تصحيحها أبو السعود . ثم انصرم ما يزيد على نصف قرن قبل أن تظهر « للرحلة » طبعات أخرى في مصر أيضاً . ثم توالى طبعاتها منذ نهاية الربع الاول من القرن العشرين في القاهرة وبيروت وبغداد . وقد نشر فؤاد افرام البستاني عام ١٩٢٧ مختصراً لها بثلاثة أجزاء في سلسلته المعروفة ، كما أصدرت وزارة المعارف المصرية في أوائل الثلاثينات مهذباً لها في جزئين بإشراف أحمد العوامري بك ومحمد نعمة جاد المولى بك وقررتَه لطلبة المدارس الثانوية . لكن دارسي التراث العربي والاسلامي من البحاثة العرب ظلوا ينظرون إلى « الرحلة » على أنها نوع من الادب الشعبي الاسطوري نظراً لازدحامها بالحكايات ذات الطابع الخرافي ، ولازمهم الاعتقاد بأنها لا تضم من المعلومات القيمة إلا النزر اليسير مما لا يبرر الاهتمام بها . ومنذ منتصف هذا القرن تغيرت نظرة البحاثة العرب إليها وعكفوا على دراستها بعناية واهتمام ، وتوالى الدراسات المنظمة والابحاث الجديدة عن ابن بطوطة ورحلته .

أما المستشرقون فقد كانوا اكثر اهتماماً بابن بطوطة ورحلته من

البحاثة العرب القدامى والمعاصرين . وقد بدأ اهتمامهم في وقت مبكر نسبياً ، وإن كان يعتبر متأخراً بالقياس إلى اهتمامهم بالجغرافيين العرب الآخرين أمثال الادريسي وابي الفدا والبيروني وكان الرحالة سیتزون Seetzen وبوركهارت Burchardt قد عثرا على نسخ من مختصر البيلوني للرحلة فحملها إلى مكتبتي غوتا وكمبرج ، وبذلك يسرا للمستشرقين الاوربيين الاطلاع عليها . ونشر المستشرق كوزغارتن Kozegarten عام ١٧٨١ دراسة للرحلة ثم ترجم منها الى الفرنسية ثلاث مقتطفات احداها عن الرحلة الافريقية والثانية عن الرحلة الفارسية والثالثة عن الرحلة المديفية . وقام تلميذه أبتز Aqtez بترجمة الجزء المتعلق بجولات ابن بطوطة في ساحل مليبار . ثم ترجم المستشرق الانكليزي لي Lee عام ١٨٢٩ مختصر البيلوني بكليته الى اللغة الانكليزية . كذلك نشر المستشرقان الانكليزيان دي سلان ودي لوريه فصولاً من الرحلة ونشراها في المجلة الآسيوية عام ١٨٤٣ - ١٨٤٧ .

أما اول طبعة كاملة لرحلة ابن بطوطة فقد تولاهما المستشرقان الفرنسيان دفريري Defremieri وسانغيتي Sanguinetti (١٨٥٣-١٨٥٨) وقد ظهرت بأربعة اجزاء مشفوعة بترجمة فرنسية . وكان الفرنسيون قد استطاعوا الحصول على عدة نسخ مخطوطة « للرحلة » عند فتحهم للجزائر فنقلوها الى المكتبة الأهلية في باريس . وبعد دراسة تلك المخطوطات ومقارنتها استطاع المستشرقان المذكوران نشر تلك الطبعة الكاملة (١) . وقد اعتمدت الطبعات العربية التي نشرت للرحلة فيما

(١) يقول الاستاذ محمود الشرقاوي في كتابه (رحلة مع ابن بطوطة) (صفحة ٥) أن المخطوطات المتوفرة للرحلة هي التالية :

أولا : مخطوطة مكتبة باريس الأهلية تحت رقم ٢٢٨٧ - ٢٢٩١ وهي التي اعتمد عليها =

بعد في القاهرة وبيروت على تلك الطبعة ، وما تزال تعتبر المرجع النهائي لرحلة ابن بطوطة (١) ، وإثر صدور تلك الطبعة كتب المستشرق الفرنسي رنان Renan دراسة مطولة عن « الرحلة » . وقام المستشرق الألماني مجيك Mzik عام ١٨١١ بترجمة أجزاء من الرحلة الى اللغة الألمانية وأرفقها بالتعليقات والملاحظات .

ويمكن القول أن من أهم التراجم والتعليقات هي تلك التي نشرها المستشرق الانكليزي هاملتون جب عام ١٩٢٩ Gibb عن « الرحلة » وقد اشتملت على مختارات لها وعلى مقدمة وملاحظات ذات أهمية كبيرة . وقد قام جب أيضاً بنشر ترجمة كاملة للرحلة مؤخراً ظهر منها بعض الأجزاء . كذلك ترجمت « الرحلة » إلى لغات اوروبية اخرى ، فقد ترجمها إيفان هربرك Herberk إلى اللغة الجيكية (١٩٦١) ، كما ترجمها غابريلي إلى اللغة الايطالية (١٩٦١) . كما تُعدُّ عنها في الوقت الحاضر ترجمات إلى اللغات الروسية والبولونية والبرتغالية (٢) .

إن اقبال المستشرقين على دراسة رحلة ابن بطوطة وتمحيصها قد

= ديفرييري وسافونتي .

ثانياً : مخطوطة بلدية مانستر تحت رقم ٣١٩ وهي عبارة عن مختصر البيهوتي .

ثالثاً : مخطوطة مكتبة جامعة القرويين بفاس تحت رقم ١٢٨٥ .

رابعاً : مخطوطة في مكتبة مدريد بأسبانيا .

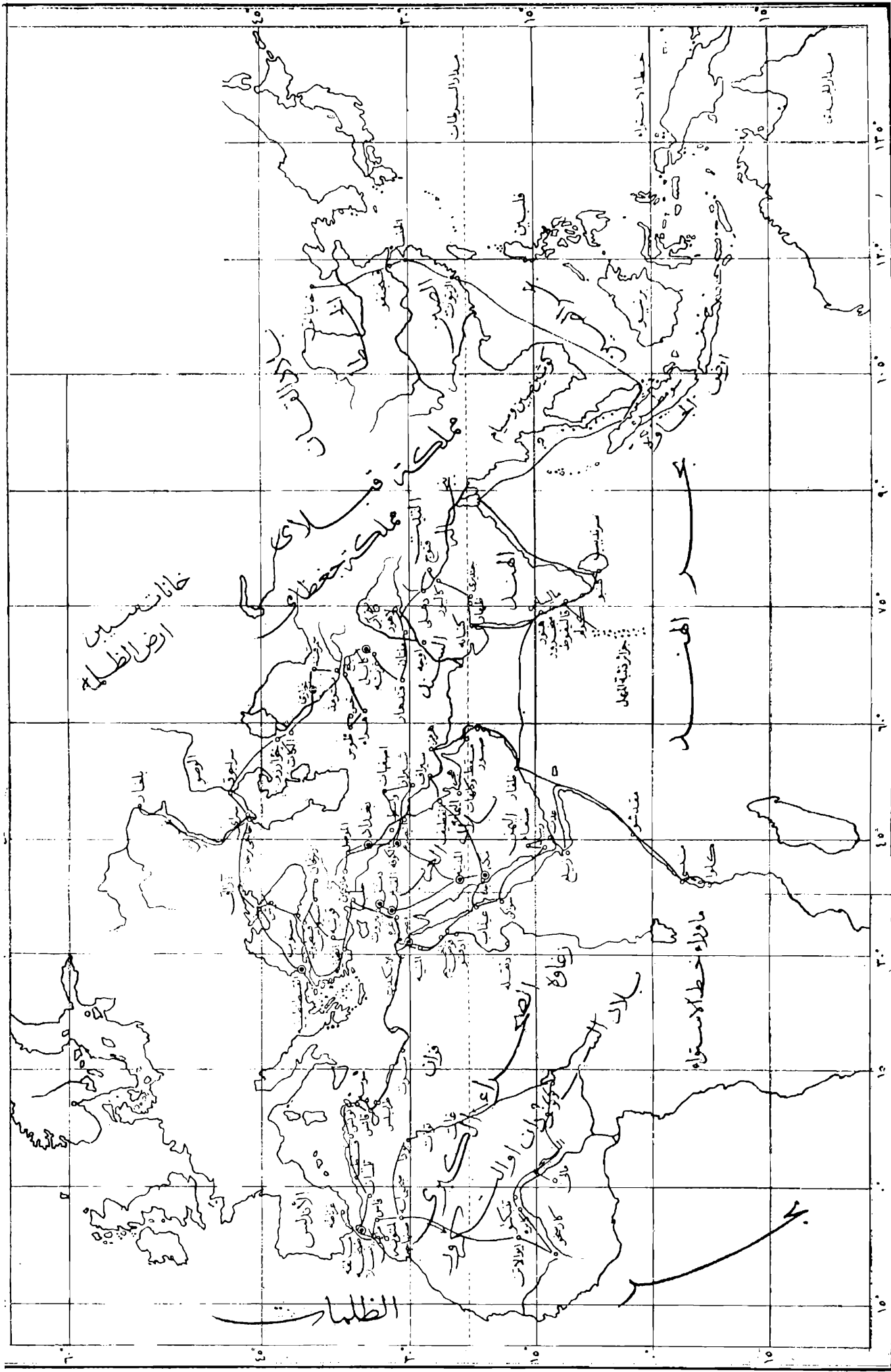
(١) اعتمدت هذه الدراسة على طبعة المكتبة التجارية الكبرى لمصطفى محمد . وقد قارنا أجزاء منها بالطبعة الفرنسية فظهر أنها نسخة طبق الأصل منها سوى أخطاء مطبعية .

(٢) ظهرت ترجمات في اللغات الشرقية أيضاً لرحلة ابن بطوطة . فقد نشرت مؤخراً ترجمة .وجزة لها باللغة اليابانية . وكانت « الرحلة » قد ترجمت إلى اللغة التركية أيضاً في نهاية القرن الماضي بقلم محمد شريف ، ونشر الكاتب التركي محمد جودت دراسة من الجزء المتعلق بالأناضول لاسوما عن تقاليد « الأخي » .

أثار لدى طائفة منهم شكوكاً في أجزاء منها ، لاسيما ما يتعلق بزيارته لبلاد الصين والمدينة القسطنطينية . وقد انقسموا إلى فريقين ، أحدهما ينكر انكاراً تاماً حدوث هاتين الزيارتين ، والثاني يؤيد وقوعهما بحماس إلا أن كلا الفريقين بذل جهوداً مشكورة في تحقيق أسماء المواضع الجغرافية التي وردت في « الرحلة » . وكان جب Gibb ويول Yule أكثرهما عناية بهذا الموضوع . وقد أرفق جب ملاحظاته بخرائط جيدة .

أما دراستنا هذه فقد هدفت إلى تقييم « الرحلة » وصاحبها تقيماً موضوعياً جديداً ، وذلك مساهمة منها في خدمة تراثنا الحضاري . وقد اهتممنا بشكل خاص بالجانب الجغرافي من « الرحلة » - بشقيها الطبيعي والبشري - بالرغم من أن « الرحلة » ذات أهمية أكبر لدارسي التاريخ والانثروبولوجيا . وقد ضمت هذه الدراسة أيضاً ملخصاً أميناً ودقيقاً للجوانب الجغرافية في الرحلة ليتمكن الاسترشاد به والانتفاع من معلوماته عند الضرورة .

ولابد لنا أخيراً أن نؤكد بأن « رحلة ابن بطوطة » غنية بالمعلومات الجغرافية والانثروبولوجية والتاريخية ، بقدر ما هي مزودة بالحكايات الخرافية والمبالغات الخيالية ، وانها تحتاج إلى فحص صبور لاستخلاص معلوماتها القيّمة من بين ركام حكاياتها المهلهلة .



خارطة تمثل رحلات ابن بطوطة في العالم القديم (حققها الشيخ محمد فخر الدين)

الباب الاول

ابن بطوطه ومولاه

شخصية ابن بطوطة

ابن بطوطة (بتشديد الطاء أو تخفيفها) هو ابو عبد الله بن محمد ابن ابراهيم اللواتي الطنجي . ويبدو أن لقبه « اللواتي » مأخوذ من « لواته » وهى احدى قبائل البربر التي كانت تسكن منطقة « ايوا لاتن » (١) أما لقبه « الطنجي » فيرتبط بمولده بمدينة « طنجة » في السابع عشر من رجب عام ٧٠٣ هـ (شباط [فبراير] عام ١٣٠٤ م) . وقد عرف أيضاً في بلاد الشرق باسم « شمس الدين » .

ولقد شب في مدينة طنجة في محيط ديني حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره ، وتعلم شيئاً من علوم الدين والفقه ، لاسيما ما يتعلق بالفقه المالكي الذي يسود في بلدان شمالي أفريقيا . ولسنا نعرف شيئاً عن أسرته وحياته في تلك الفترة سوى لمحات خاطفة وردت في ثنايا « رحلته » تشير إلى اشتغال بعض افراد أسرته بالقضاء . ولم يخصص ابن بطوطة أحداً منهم سوى ابن عم له اسمه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة التقى به أثناء رحلته الى الأندلس ، وكان يعمل قاضياً في بلدة « رنده » الاندلسية (٢) .

ومن المؤسف أنه تجنب الإشارة - ولو عرضاً - الى طفولته وصباه فلعل تلك الإشارة كانت كفيلاً بالكشف عن سر الرغبة الغربية التي حملته على الاغتراب عن وطنه قرابة ربع قرن . وفي وسعنا أن ندرك على أية حال أنه لم يكن متعلقاً بأسرته ، فلقد سمع وهو في الغربية نبأ وفاة أبيه من دون أن يطلق على النبأ بشيء (٣) . ولم يهزه كذلك

(١) « مذهب رحلة ابن بطوطة » لأحمد المومني بك ومحمد أحمد جاد المول بك المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٣ ص ١ (وتلغش بطون قبيلة « لواته » على طول ساحل أفريقيا للشهلي وربما كان أصلها في ليبيا .

(٢) « الرحلة » ص ١٨٨ ج ١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٥ .

نياً وفأة أمه لدى وصوله الى أرض الوطن ، ولم يزر قبرها في طنجة إلا بعد تقديم نفسه إلى السلطان أبي عثمان بحضرته في فاس (١) أما تصديره « الرحلة » بقوله : (فحزمت أمري على هجر الأحباب من الاناث والذكور ، وفارقت وطني بمفارقة الطيور للوكور ، وكان والدي ب قيد الحياة فتحملت بعدهما وصبا ، ولقيت كما لقينا من الفراق نصبا) (٢) فأغلب الظن أنها اضافة من ابن جزي نفسه كاتب « الرحلة » كعهده في تزويق « الرحلة » بين الحين والآخر بالملح والاشعار والتعليقات العاطفية فلم يشر ابن بطوطة مطلقاً خلال رحلاته أنه فكر يوماً بأهله وذويه إلا في أعقاب عودته من رحلته الآسيوية والتقائه بأحد معارفه في دمشق أي بعد مضي حوالي عشرين عاماً على سفره . كذلك لا يمكن أن يهزنا تفسيره لباعث عودته الى الوطن بعد رحلته الآسيوية الكبرى حينما يقول : (مع تذكّار الأوطان والحنين الى الأهل والخلان والمحبة الى بلادتي التي لها الفضل عندي على البلدان) (٣) إذ يتضح لنا في الوقف نفسه أن باعث عودته الحقيقي طمعه في كرم السلطان أبي عثمان كما سيفصله فيما بعد .

ويبدو لنا أن تعجب ابن بطوطة الحديث عن أسرته يدل على أنها لم تكن ذات مكانة اجتماعية أو دينية مرموقة وإلا لأفاض في الحديث عنها شأنه عند التعرض لشخص ذي مكانة دينية أو اجتماعية . بل ان ابن جزي نفسه لم يكن لديه من الأخبار ما ينورنا بها عن أسرة ابن بطوطة سوى ما رواه عن شخص اسمه أبو عبد الله الغرناطي حول مولد

(١) المصدر السابق ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٨

ابن بطوطة بطنجة (١) . وأما ابن خلدون الذي كان معاصراً لابن بطوطة فقد كانت اشارته اليه تنم عن تجاهل لمكانته ، حيث قال عنه : (ورد على المغرب لعهده السلطان ابي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ثم انقلب إلى المغرب . الخ) (٢) . فابن بطوطة اذن كان شخصاً من سائر الناس ، ولم يكن له تطلعات علمية أو مطامح سياسية ، بل يكاد يكون نكرة في بلده المغرب قبل أن يعود من رحلته الكبرى نحو الشرق . والظاهر أنه لم يكن ولوعاً بالتجارة فلم يشر في أي جزء من « رحلته » إلى اشتغاله بالتجارة بالرغم من أنه كان يلتقي اثناء تجواله بأصناف من التجار في مختلف البلاد الاسلامية وكان يدبر أموره بما كان ينال من خلع وعطايا السلاطين والامراء ، ولم نعرف عنه أنه مارس عملاً معيناً خلال السنين الطوال التي أمضاها في الغربة ، سوى بضع سنوات تولى فيها القضاء في بلاط السلطان محمد شاه ملك الهند وفي بعض جزر ذببة المهل .

اذن ماهي دوافع ابن بطوطة وراء تجواله الطويل بين البلدان ؟ لقد ذكر ابن بطوطة أنه غادر مسقط رأسه طنجة في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام خمس وعشرين وسبعمائة ، معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (ص) (الباعث على النفس شديد العزائم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازيم) (٣) . وكان سنه يومئذ ثنتين وعشرين سنة . وبما لا شك فيه أن رغبة ابن بطوطة

(١) المصدر السابق ص ٥ .

(٢) مقدمة العلامة ابن خلدون ص ١٨١ ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى .

(٣) « الرحلة » ص ١٥ ج ١ .

في أداء فريضة الحج وهو في ذلك السن المبكر تعتبر أمراً غير اعتيادي
يشير الانتباه ، فلم يكن من المألوف في عصر يتعذر فيه السفر أن يفكر
الرجال في عنفوان شبابهم بأداء فريضة الحج . ويمكن أن نفسر مبعث
تلك الرغبة بنزعة دينية قوية أو برغبة متأججة في المغامرة وحب السفر
ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا أنه كان أسير هاتين العاطفتين معاً .

فمنذ بداية رحلة الحج واجه ابن بطوطة وجماعته مصاعب جمّة في
اختراق الطريق البري بين المغرب وتونس . فلقد كانت القبائل البدوية
تسيطر على هذا الطريق سيطرة تامة ، فكان السفر خارج مدن المغرب
العربي مغامرة مخوفة بالمخاطر تعرض المسافر للنهب والسلب والقتل
وكان المفروض أن تتجه قافلة الحجّاج المغاربة الى الحجاز عن طريق
ميناء عيذاب جنوبي مصر ، لكنها اضطرت الى العودة الى القاهرة بسبب
حالة الحرب التي قامت بين سلطان قبائل البجة والأتراك مما ألغى امكانية
السفر عن طريق ذلك الميناء . وكان بوسع ابن بطوطة بعد أن استجد
هذا الظرف ان يهجر فكرة الحج وأن يمكث في القاهرة ، لكنه تشبث
برغبته ورافق الركب الى الحجاز عن طريق بلاد الشام بالرغم مما يكتنف
ذلك الطريق من مشقة ونصب . وإذا كان الباعث على رحلته أداء فريضة
الحج فحسب فقد كان ينبغي عليه أن يقفل راجعاً الى بلده بعد أن
أشبع نزعة الدينية في حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (ص)
لكنه بدلاً من ذلك انتهز الفرصة التي سنحت له فرافق ركب الحج
العراقي ليتسنى له زيارة العراق . ويدل هذا العمل على المغامرة وحب
الاستطلاع المتمكنين من نفسه ، لا سيما وقد شهد ما تعرضت له قافلة
الحج من مخاطر اثناء سفرها بين بلدان المغرب العربي وفي بلاد الشام
وبما أن عاطفته الدينية كانت مشبوبة أبداً ، وكان دائم الرغبة في

إشباعها ، لذلك نراه يعود إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مرة ثانية ولم يكن قد مضى على حجته الأولى عام واحد . ثم كرر العودة مرة ثالثة بعد انصرام عام آخر تجول اثنائه بين موانئ جنوب الجزيرة العربية وسواحل افريقيا الشرقية وبلدان الخليج العربي . وأقام هذا الحين بضعة أعوام في مكة يدرس العلوم الدينية . ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة بعد عودته الى الوطن من رحلته الآسيوية الكبرى .

إن نزعة ابن بطوطة الدينية تعتبر من أهم العوامل التي ساهمت في تكييف « الرحلة » ، وهي كفيلة بتفسير كثير من الاستطرادات غير الاعتيادية فيها . فقد حفلت « الرحلة » بأبناء الشيوخ والأولياء ورجال الدين وحكاياتهم ، حتى لكان أخبارهم كانت هدفه الأول . وكان يروي كراماتهم بإيمان حار واعتقاد جازم بالرغم من أن غالبيتها تبدو اسطورية تماماً وقد وقر في ذهنه - لفرط ما لقي من رجال الدين والشيوخ وال دراويش ولكثرة ما زار من مساجد وجوامع وزوايا - أنه نفسه شخصية دينية خطيرة وأنه ذو حظوة دينية خاصة .

ولعله كان يريد عن قصد - برواية أمثال تلك الحكايات - أن يوحى لسامعيه أنه شخصية دينية مهمة .

فكان يروي لنا كيف يستقبله الشيوخ والأولياء والقضاة في شتى الأقطار الاسلامية باهتمام وحفاوة بالغة ومن الغريب أن يلقى مثل تلك الحفاوة قبل أن يتم حجته الأولى وقبل أن يتمرس في علوم الدين فقد روى لنا مثلاً قصة لقائه بأحد رجال الدين الكبار المسمى الشيخ أبي عبد الله المرشدي أثناء مروره بمصر في بداية رحلة الحج الأولى وكان ما يزال في الثانية والعشرين في عمره . فقد استقبله هذا الشيخ بحفاوة عظيمة ، ولما حانت صلاة العصر قدمه للصلاة إماماً ، ثم كان

يقدمه اماماً لكل ما حضر في صلاة طويلة مدة اقامته .

وكان أحد الامراء في زيارة لذلك الشيخ ، إلا انه كان يقدم ابن بطوطة عليه ، ولما أراد النوم قال له الشيخ : اصعد الى سطح الزاوية فتم هنالك . وكان الفصل قيظاً . فحاول ابن بطوطة أن يقدم الأمير لكنه أبى ذلك ورد عليه : (وما منا إلا له مقام معروف) (١) .

ولقد أوحى لابن بطوطة نزعته الدينية أن تطوافه الطويل بين البلدان نوع من الفرض الديني مكتوب عليه . ألم يؤكد له ذلك شيخ من أولياء الله الصالحين ١ ؟ وقد قص علينا قصة لقائه بالامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج وذلك أثناء اقامته بالاسكندرية فقد دخل عليه يوماً فقال له : أراك تحب السياحة والجولان في البلاد .

فأجابه ابن بطوطة : نعم اني أحب ذلك . فقال له الشيخ : لا بد لك أن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكريا بالسند ، وأخي برهان الدين بالصين ، فاذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام .

وقد علق ابن بطوطة على هذه الحكاية قائلاً : ففجبت من قوله وألقي في روعي التوجه الى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه (٢) .

وفي موضع آخر روى كيف حلم ذات مرة حلماً غريباً هو يمضي ليلته في زاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي - أثناء رحلته الاولى - فلما قص على الشيخ حلمه قال له : سوف تحج وتزور قبر النبي (ص) وتجول في

(١) « الرحلة » ص ١٥ ج ٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١١

بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى دلشاد الهندي ويخلصك في شدة تفجع فيها (١) .

هكذا ساقى نزعة ابن بطوطة الدينية صاحبها الى الجري وراء رجال الدين في كل بلد حل فيه والى جمع الحكايات الغريبة عنهم ، وقد استسلم لتصديق تلك الحكايات استسلاماً مطلقاً .

بل لقد اختلطت في ذاكرته أحياناً الحقيقة بالخيال ، فحسب أنه نفسه كان شاهداً لبعض تلك الحكايات .

ولعل من أبرز الامثلة على هذا الوهم حكاية « الفرجية » التي رواها على النحو التالي :

ولما كان يوم دخولي الى الشيخ - وهو الشيخ جلال الدين التبريزي في الهند - رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتي وقلت في نفسي : ليت الشيخ أعطانها . فلما دخلت عليه الموداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية في رأسه ، ولبس مرقعة ، فأخبرني الفقراء ان الشيخ لم تكن عاداته ان يلبس تلك الفرجية وإنما لبسها عند قدومي وأنه قال لهم ان هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها لأخيها برهان الدين الصاغرجي وهي له وبر سمه كانت . فلما أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم : لقد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم . وانصرفت عن الشيخ .

فاتفق لي بعد مدة طويلة أنني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الحنا فافترق في اصحابي لكثرة الرخام ، وكانت الفرجية علي فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بضرة علي

فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ، ولم يفارقني حتى وصلت دار السلطان معه . فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان . فسألني عن سلاطين الاسلام فأجبتة . ونظر الى الفرجية فاستحسنها . فقال لي الوزير : جردها ، فلم يمكنني خلاف ذلك . فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس بجمرة ونفقة . وتغير خاطري لذلك . ثم ذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجيبي من ذلك . ولما كان بالسنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغر جي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها ، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي فقال لي : لم تقلها ، انت تعرفها . فقلت : نعم ، هي التي أخذها مني سلطان الخنا . فقال لي : هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي وكتب إليّ أن الفرجية تصلك على يد فلان . ثم أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق الشيخ وأعلمته بأول الحكاية فقال لي : أخي جلال الدين اكبر من ذلك كله ، وهو يتصرف في الكون وقد انتقل الى رحمة الله تعالى (١) . ومن الأمثلة الأخرى أيضاً حكاية الزاهد الصيني المعمر التي رواها على النحو التالي :

(ولما كنت بصين كلان سمعت ان بها شيخاً كبيراً وقد أناف على مائتي سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر البناء مع قوته الثامة ، وأنه ساكن بغار في خارجها يتعبد فيه . فتوجهت الى الغار فرأيتة على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة والاحية له

(١) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

وقد ملق الاستاذ جب Gibb مل هذه الحكاية في كتابه « رحلات ابن بطوطة » بقوله : ان المستشرق yule يعتقد بأن ابن بطوطة قد زار منطقة سيلهت silhet في الهند التي يوجد فيها في الوقت الحاضر قبر الشاه جلال الدين (او الشيخ جلال الدين) والذي ما يزال موضعاً لتقديس من ٣٦٦ .

فسلمت عليه فأمسك يدي وشمها وقال للترجمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر . ثم قال لقد رأيت عجباً . أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة [وهي إحدى جزر الهند الشرقية] والرجل الذي كان بين الاصنام وأعطاك عشرة دنانير ذهباً ؟ فقلت نعم . فقال : أنا هو . فقبلت يده . وفكر ساعة ثم دخل الغار ولم يخرج إلينا وكان ظهر منه الندم على ما تكلم به . فتجهمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بواشت من الكاغذ فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا . فقلنا له : ننظر الرجل . فقال : لو أقمتهم عشر سنين لم تروه ، فإن عادته إذا أطلع أحداً على سر من أسرارهِ لا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك . فعجبت من ذلك وانصرفت (١) .

وهناك مثال ثالث وهو قصة الشجرة المقدسة . فقد ذكر أنه حينما كان في إحدى جزر ذيبة المهل شاهد بجوار أحد الجوامع شجرة خضراء تشبه أوراقها أوراق التين وقد سورت وأقيم عندها محراب .

وقد أخبرنا أنه في كل خريف تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ويكون مكتوباً فيها بقلم القدرة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) (٢) .

قد يبادر البعض إلى اتهام ابن بطوطة بالكذب المتعمد في رواية مثل تلك الروايات ، لكننا نظلم الرجل لو ألصقنا به هذه التهمة . ويذهب بنا الاعتقاد إلى الأخذ برأي العلامة كراشكوفسكي في تبرير

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) المصدر السابق ص ١١٢

تلك الحكايات بأنها أقرب ما يمكن أن يسمى بالانخداع النفسي (١) . وعلى ضوء هذا التعليل يمكن أن نفسر أغلب الحكايات التي يرويها ابن بطوطة عن كرامات الأولياء ورجال الدين والتي تبلغ في بعض الحالات درجة الخرافة المحضة . ولكننا لا يمكن في الوقت ذاته أن نحسن به الظن دائماً ونعتبر حكاياته الدينية الاسطورية جميعها من باب الانخداع النفسي فلا شك أن العديد منها قد لُفّق بتعمد . ولم يكن تصرفه هذا مخالفاً لروح العصر الذي عاش فيه ، وهو العصر الذي يمثل بداية التدهور الفكري في العالم الاسلامي فقد شاع في ذلك العصر (القرن التاسع الهجري) الكتابات التي تحفل بذكر العجائب والغرائب والخوارق ، لا سيما ما يمت منها لرجال الدين ، وكان الناس يتقبلون تلك الكتابات باعتبارها وقائع صحيحة . لذلك فإن حكايات ابن بطوطة الدينية لم تكن ظاهرة فردية منبثقة من حماسه الديني وثقافته الضحلة فحسب ، بل كانت تمثل التيار السائد في العالم الاسلامي يومذاك ، وهو التيار الذي غلبت فيه الثقافة الدينية السطحية جوانب المعرفة الأخرى . وكانت ثقافة ابن بطوطة نفسه خير مثال لذلك التيار . فهو لم يكن رحالة فحسب ، بل كان دارساً للعلوم الدينية أيضاً . وقد حدثنا في إحدى مواضع « رحلته » بصورة مفصلة عن دراسته على أيدي علماء دمشق وعدد لنا أسماء أولئك العلماء (٢) . وحدثنا أيضاً عن مجاورته في مكة المكرمة لبضع سنين ودرس أثناءها العلوم الدينية (٣) .

وقد كشف لنا أيضاً في ثنايا « رحلته » عن اطلاعاته في العلوم

(١) « تاريخ الأدب العربي » لأغناطيوس كراشكوفسكي ، ج ١ ، ص ٤٢٨ ترجمة صلاح الدين هاشم ، منشورات جامعة الدول العربية .

(٢) « الرحلة » ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢ .

الدينية . فقد علق مثلاً على زيارته لمدينة نصف قائلًا : (وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب « المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة ») (١) .

وعلق أيضاً على زيارته لمدينة ترمذ قائلًا : (وهي التي ينسب إليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي مؤلف « الجامع الكبير في السنن ») (٢) .

كذلك حدثنا أنه شاهد أثناء مروره بمدينة بخارى وزيارته لمقبرتها قبر الامام العالم عبد الله البخاري وقرأ أسماء مؤلفاته منقوشة على قبره كما قرأ أيضاً على قبور علماء بخارى الآخرين أسماء تصانيفهم منقوشة على قبورهم ، وأنه قد سجل الكثير من أسماء تلك التصانيف إلا أنها ضاعت منه في جملة ما ضاع حينما سلبه كفار الهند في البحر (٣) .

وهكذا فإن احتفال ابن بطوطة برجال الدين وحكاياتهم لم تكن لمجرد التبرجع والمباهاة وإرضاء السامعين فحسب ، بل كانت ناجمة أيضاً عن اهتماماته الأصلية بأمور الدين المنبثقة من نزعتة الدينية القوية .

والواقع أن عاطفة ابن بطوطة الدينية لم تكن تتجلى في رواية تلك الحكايات ، وفي لقاء الشيوخ والأولياء والزهاد وزيارة الجوامع والمساجد والزوايا فحسب ، بل كانت تبرز أيضاً في تعليقاته التي يرسلها عفو الخاطر بين الحين والحين وهو يروي مشاهداته . فقد ذكر مثلاً في سياق الحديث عن زيارته لشمال الصين أن خاطره كان شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها حتى كان يلزم المنزل فلا يخرج إلا للضرورة ، بالرغم

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

ما في البلاد من حسن وجمال . وكان إذا لقي في الطريق مسلماً فكأنه لقي أهله وأقاربه (١)

وروى في موضع آخر كيف غضب لرأيته طبيباً يهودياً يقدم على المسلمين في بلاط أحد سلاطين بلاد الأناضول ، وكيف انتهره وشتمه لأنه يجلس في موضع فوق قراء القرآن ، مما حدا باليهودي أن يغادر مجلس السلطان غاضباً (٢) .

وذكر في موضع آخر أنه حينما وصل الى مدينة الكفار على البحر الأسود وسمع لأول مرة نواقيس الكنائس ، هاله ذلك وأمر أصحابه أن يصعدوا الى الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ، بالرغم مما في ذلك العمل من خطر على حياتهم (٣) .

ويكاد يبلغ حماسه الديني حد التعصب الأعمى للمذهب معين - وهو المذهب المالكي - ويتجلى هذا التعصب عند حديثه عن الشيعة مثلاً - الذين يأبى إلا أن يسميهم الروافض - فهو يتحدث عنهم وكأنهم طائفة من الكفرة ، بالرغم من أنه قد خالطهم وزار أماكنهم المقدسة في كربلاء والنجف ، ولم يشهد منهم ما ينكره الدين - على حد تعبيره . بل إنه يصف أهل النجف بالشجاعة والكرم وحماية الجار ، وقد صحبهم في الأسفار فحمد صحتهم (٤) . ولنه يصفهم في موضع آخر بالأرجاس (٥) وقد روى لنا أنه في أثناء سفره في جنوب العراق ووصوله الى بلدة

(١) «الرحلة» ص ١٤٩ - ١٥٠ ج ٢ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٩٣ ج ١

(٣) اصدر السابق ، ص ١٩٣

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٠

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

بشر ملاحه بالقرب من مدينة الحلة لم يدخل البلاد بالرغم من أنها حسنة تقع بين حدائق النخل بل نزل خارجها وكره الدخول إليها لأن أهلها روافض (١) .

تبين لنا إذن أن النزعة الدينية القوية لدى ابن بطوطة قد لعبت دوراً هاماً في تكييف « رحلته » . أما الصفة الأخرى التي ساهمت بالمثل في خلق « الرحلة » فهي روح المغامرة وحب السفر ، إضافة إلى الرغبة في التكسب . ولا يحتاج اثبات قوة هذه الصفة في ابن بطوطة إلى عناء كبير . فما دام لم يكن يهدف من وراء رحلاته الطويلة المحفوفة بالاحطار إلى تجارة معينة شأن الكثير في تجار المسلمين الذين كانوا يطوفون أرجاء العالم القديم ما بين تركستان والدين والهند وبلاد فارس وشرقي أفريقيا ، وما دام لم يكن يقصد إلى غرض علمي شأنه شأن المسعودي والمقدسي واليعقوبي وغيرهم الذين كانوا يطوفون في اقطار المسلمين ليجمعوا الحقائق العلمية عن تلك البلدان ، فلا بد إذن أن يكون مدفوعاً بدافع المغامرة وحب الاستطلاع كي يتحمل كل ذلك العناء . وهو بذلك يمثل طائفة من البشر الذين تستهويهم الاسفار وتجذبهم المغامرات (٢) .

ولابد لنا أن نقرر هنا أن الظروف التي كانت تسود العالم الاسلامي يومذاك قد ساعدت ابن بطوطة في رحلاته وتنقلاته الواسعة ، فلهـ قد كان هناك نوع من الاستقرار السياسي بجهد أن سيطر المغول في دولة المشرق الاسلامي ودخل معظم الغزاة التيار في دين الاسلام (٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٢) « الجغرافيون العرب » المصطفى الشهادي ، ص ٩٩ سلسلة « اقرأ » ، العدد ٢٣٠ .

(٣) « جهود المسلمين في الجغرافية » النفيس احمد ، ترجمة فتحي عثمان ، منشورات دارالعلم بالقاهرة (ص ١٠٢) .

فكان المسلم يتنقل بين الدول على اختلاف حكمها وملئها دون أن تعوق تنقله حدود أو قيود وكأنه يتنقل داخل بلده ، ولم يكن يشعر بالغرابة في أي قطر من الاقطار (١) . وكانت هناك تسهيلات واضحة للمسافرين بين أقطار العالم الاسلامي ، إذ أن الأغنياء والميسورين كانوا يقفون الاوقاف للانفاق على الغرباء من المسافرين المسلمين ، وكانوا يتلقون بالترحاب (٢) . وفضلاً عن ذلك كله فقد كانت قوافل الحجاج تقطع أنحاء العالم الاسلامي طولاً وعرضاً . وكانت قوافل التجار المسلمين تنتقل بين بلدان الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف من حدود الهند شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً الى صحاري افريقيا جنوباً .

كل هذه الظروف الملائمة قد جعلت التجوال في أقطار العالم الاسلامي أمراً غير عسير . ثم أن ابن بطوطة - كما يبدو في تضاعيف « رحلته » كان متمتعاً بذلك النمط في حياة التجوال والسفر ، بالرغم مما يكتنفها من أخطار ومشقات . وقد كان يمارس حياة طبيعية طوال الوقت فيتزوج ويطلق ويحصل على الأموال والخلع ويستقبل بالترحاب حيثما أقام . فما كاد يغادر موطنه حتى تزوج فتاة مغربية من تونس ، ثم طلقها وتزوج بنتاً لبعض طلبه فاس .

وتزوج مرة ثالثة في بلاد الشام ، ورابعة في الهند ، كما تزوج في جزر الملديف وفي جزر الهند الشرقية . فكان له أبناء في الشام والهند وجزر ذيبة المهل .

ولم يكن يلذ له السفر إن لم يصحبه عدد من جواريه . وبمالمالك

(١) « الرحالة العرب » ، ص ١٢٤ .

(٢) « ابن بطوطة في العالم الاسلامي » للدكتور ابراهيم العدوي ، سلسلة اقرأ ، العدد ١٤٤ ، ص ٩ .

فيه أن توفر الضروريات والكماليات له أثناء سفره كان عاملاً مشجعاً له على مواصلة رحلاته ، وإضافة الى ما كان يكسبه من أموال طائلة حسب ادعائه .

وهناك صفة ثالثة ساهمت ايضاً في تكييف « الرحلة » وهي صفة المبالغة . وإذا سلمنا جدلاً بأن صفة المبالغة ملازمة للرحالة على اختلاف ملهم ، حتى لقد شاع في أوروبا المثل القائل (حكاية رحالة) إلا أن مبالغات ابن بطوطة قد فاقت ما أورده غيره من الرحالة المسلمين ، لا سيما تلك المبالغات المتعلقة بشخصه ، حتى لقد باتت هذه الصفة سمة بارزة في « رحلته » . وتبلغ تلك « المبالغة » درجة المبالاة المفرطة بسرد أسماء عدد هائل من لقيهم من الأمراء والسلاطين وعلماء الدين وما قوبل به من حفاوة بالغة وكرم عظيم . فهو يصف لنا بالتفصيل كيف كان يستقبل بحفاوة عظيمة أثناء تنقله بين مدن بلاد الأناضول ، وكيف كان ينافس « الأخي » في الحظو بشرف ضيافته منافسة قد تبلغ حد الاقتتال (١) . وهو يصور لنا ما لقيه من كرم الضيافة والحظوة في بلاط السلطان محمد أوزبك خان سلطان تركستان ، وكيف وافق السلطان على مصاحبته لزوجته الخاتون بيلون ابنة ملك الروم لدى زيارتها لابيها في القسطنطينية وقد وصله بألف وخمسمائة دينار وخلع وأفراس كثيرة . وكذلك فعلت الخواتين زوجاته حتى اجتمع له من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور الشيء الكثير (٢) .

أما حياته في بلاط السلطان محمد شاه طفلق ملك الهند - والذي

(١) « الرحلة » ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

أمضى فية مايزيد على ثمان سنوات - فقد كانت نعيماً موصولاً في المال والجاه ويكفيها قوله عن هذا الملك : (وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً . واعلم أن بعض مآثره من ذلك لايسع في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته واخذت بحظ وافر منه ، (١) .

وقد حدثنا أيضاً بالتفصيل عن المحاولات التي بذلها وزير احدى جزر الملديف لاقناعه بتولي القضاء في تلك الجزيرة . وكيف تزوج احدى قريبات ذلك الوزير وأحبها حباً جماً وعاش معها بسعادة وهناء مايزيد على عام وونصف .

وروى لنا كذلك في مواضع عديدة في « رحلته » المخاطر المهلكة التي تعرض لها خلال جولاته الطويلة والتي أودت بحياة رفاقه في غالب الاحيان ، لكنه خرج منها سالماً معافى . وقد حملت أمثال تلك بعض الكتاب الى الاعتقاد بأنه قد رسم لنفسه شخصية شبيهة بشخصية « السندباد » . فالقوافل تنهب والمراكب تغرق والاشخاص يقتلون ، لكنه يخرج من كل تلك المغامرات سالماً غانماً وكأنه يسافر بحراسة ملك أمين (٢) .

أما عن لقاءاته بكبار رجال الدين والأولياء والدرأويش فلا يحصرها العدد ، وتزدحم « الرحلة » بأسماء المشائخ منهم . أما الجانِب الآخر في المبالغات ، وهي التي تتعلق بما شاهده من

(١) « الرحلة » ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥ .

(2) sharaf . A . T . ' A short history of geographical discovery , Alexandria 1963 ' p . 140 .

خوارق الطبيعة ، فقد كانت على نطاق محدود عموماً - ولعل أبرزها
 حكاية طير الرخ . والواقع ان ابن بطوطة لم يتدع مشاهدة هذا الطير ،
 بل ذكر أنهم قد شاهدوا عند الفجر جبلاً عظيماً في البحر عند هبوب
 العاصفة ، وحينما سكنت الريح رأوا ذلك الجبل عند طلوع الشمس
 قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر . فقال البحارة
 إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرخ . وعقب ابن بطوطة على هذا الكلام
 بقوله : (ولكن ربحاً طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة
 صورته) (١) . فهو لم يؤكد إذن تأكيداً قاطعاً رؤيته لهذا الطير الخرافي
 ولم يستعبد الباحثون مشاهدته حقيقة تلك الظاهرة ، وقد فسرنا البعض
 بأنها ربما كانت لعصاراً بحرياً ، (٢) ، كما فسرنا آخرون بأنها ربما
 كانت جزيرة أصابها هبوط أو انكسار فاختمت تحت المياه (٣) .

وبما ذكره ابن بطوطة أيضاً في المشاهدة غير المألوفة المرأة ذات
 الثدي الواحد التي رآها في إحدى جزر ذبابة المهل (٤) . وقد تفسر
 هذه الظاهرة بأنها نوع من شذوذ الطبيعة . لكن بعض الكتاب ذهب
 الى القول بأن تلك الحكاية ما هي إلا قصة خرافية عن نساء مسترجلات
 تبتز الواحدة منهن ثديها لتكون إلفاً للطهعان وأقدر على الرمي
 بالقوس (٥) .

ومن المشاهد غير الواقعية أيضاً مشهد السمكة التي رآها في مدينة

(١) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢) « حديث السندباد القديم » حسين فوزي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٣ ،

ص ٦٨ .

(٣) Incicloepidia , Britanica ' Ibn , Battuta .

(٤) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٣٤ .

(٥) « رحلة ابن بطوطة » ، لشرقاوي ، ص ٣٢٩

هرمز مطروحة عند باب الجامع . فقد كان رأسها كأنه رابية وعيناها كأنهما بابان فترى الناس يدخلون في أحداها ويخرجون من الأخرى (١) وذكر ابن بطوطة أيضاً أنه شاهد في إحدى قلاع الهند فتراناً يبلغ حجمها حجم القطط . كذلك شاهد في مدينة الأحقاف نوعاً ضخماً من الموز وزنت حبة أمامه وبحضوره فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية (٢) . ولعل أشد مبالغاته إثارة لشكوك معاصريه هي تلك التي تتعلق بوصف أبهة السلطان محمد شاه ملك الهند . فقد وصف مثلاً احتفالات الأعياد في بلاد محمد شاه على النحو التالي :

(وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان الى الملوك والخواص وأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التي تعميم جميعاً ، فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلاً لا يركبها أحد إنما هي مختصة بركوب السلطان ، وترفع عليها ستة عشر شطراً (متراً) من الحرير مرصعة بالجواهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص ، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر . ويركب السلطان فيلاً منها وترفع أمامه الغاشية ، وهي ستارة سرجه وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشي بين يديه عبيده وبماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجواهر . ويمشي بين يديه أيضاً النقباء وهم نحو ثلثمائة ، وعلى رأس كل واحد منهم اقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مفرقة نصابها ذهب . ويركب قاضي القضاة صدر الجهات كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهات

(٢) « الرحلة » ، ج ٢ ، ص ١٠٥

(٣) « الرحلة » ج ١ ، ص ١٦٦

ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعيان من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على قدره ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون . ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه . . . ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة وتضرب البارية على المشور - كله وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة تحفها القباب من كل ناحية ، ويصنع به اشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور . ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة ، وينصب السرير الأعظم في صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شيراً وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوق الرتبة ، ويرفع الشطر المرصع بالجواهر فوق رأس السلطان (١) .

ووصف أيضاً الاحتفالات التي كانت تقام لمحمد شاه عند عودته من السفر الى حاضرتة دلهي على النحو التالي :

« وإذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ، ورفعت على ستة عشر فيلاً منها ستة عشر شطراً منها مزركش ومنها مرصع . وحملت أمامه الفاشية وهي الستارة المرصعة بالجواهر النفيس . وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بشياح الحرير ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات عليهن أجمل لباس واحسن حليلة ومنهن رواقص . ويحصل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء

الجلاب مخلولاً بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدي أو غريب ، وكل من يشرب منه يعطى التنبول والغول ، ويكون ما بين القباب مفروشاً بشباب الحرير يطأ عليها موكب السلطان وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة الى باب القصر بشباب الحرير ، ويمشي أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف ، وتكون الافواج والعساكر خلفه . ورأيت من بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعآدات الصغار على الفيلة ترمي بالدنانير والدرهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتى وصل الى قصره » (١) .

« الرحلة » إذن حافلة بالمبالغات من شتى النماذج ، وقد يستند الكثير منها إلى أسس مكينة من الواقع ، لكن الخيال يلعب في تزويقها دوراً كبيراً .

ولقد قاداته صفة « المبالغة » إلى نوع من الادعاء يقرب من المبالاة الرخيصة . فقد ردد على أسماعنا أكثر من مرة - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - أنه أعظم رحالة في عصره . ولم يردد هذا القول عفو الخاطر بل بقصد وتعمد . قال في موضع من « رحلته » : (فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت في ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلم) (٢) .

وقال في موضع آخر : (لقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري وهو من الصالحين ، جال الأرض ولم يدخل الصين ولا سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخولي

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٢) « الرحلة » ج ١ ، ص ١١٨

هذه الاقاليم (١) .

وقال في موضع ثالث : (ولما دخلت عليه - على الشيخ جلال الدين التبريزي - قام اليّ وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته ، فقال لي : أنت مسافر العرب . فقال من حضر من أصحابه : والعجم يا سيدنا) (٢) .

ونحن بالطبع لا نريد أن نناقش هذا الادعاء . فابن بطوطة بالطبع من اعظم الرحالة في زمنه . فلم يسبق لرحالة آخر في عصره - عربياً كان أم افرنجياً - أن زار كل تلك الاصقاع وقطع كل تلك المسافات ولقد قدر البعض ما قطعه من المسافات بحوالي ٧٥ ، ٠٠٠ ميلاً ، (٣) كما قدرها آخرون بحوالي ١٢٠ ، ٠٠٠ ميل (٤) . ولكن ما يهتنا من هذا الادعاء هو ما قد يجره من شك في صدق صاحبه . والظاهر أنه كان يطمع بنيل لقب (رحالة العصر) . ولا بد أن نعترف هنا بأن ابن بطوطة لم يكن شخصاً ساذجاً يروي للناس ما شاهده من عجائب وغرائب حسب ما تتوارد على ذهنه . ولا هدف له سوى تسليية سامعية وابهارهم بمشاهداته ونيل اعجابهم وتقديرهم فحسب ، بل كان مغامراً يهدف إلى الكسب والحظوة . وقد علمته تجاربه المستمدة من زيارته لمختلف بلاطات الملوك والسلطين كيف يحقق مراميه . ويظهر أنه شاء أن يقيم لنفسه مكانة مرموقة وحظوة خاصة في بلاط السلطان أبي عنان عند عودته الى وطنه المغرب . وقد نجح بحكاياته في تحقيق هذا الهدف وفي

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٧

(٢) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٤٩

(٣) الانسكلوبيديا البريطانية ، ج ١٢

(٤) كراشكوفسكي ، ص ٤٢١

بث الدعاية لنفسه . فترى كاتب السلطان محمد ابن جزى الكلبي - مدون رحلته - يقول عنه في مقدماته : (وكان ممن وفد على بابها السامي - باب السلطان أبي عنان - وتعدى أوशल البلاد الى بحرهما الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الارض معتبراً ، وطوى الامصار مختبراً وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم) (١) .

وما يدل على نجاح ابن بطوطة في هدفه أنه استطاع أن يقنع السلطان بأهميته كرحالة عظيم فأمره : (بأن يملئ مشاهدته في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخبار واوليائها الابرار) (٢) .

وأمر السلطان أبو عنان كذلك كاتبه محمد بن جزى الكلبي : (بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ ابو عبد الله من ذلك مشتملاً في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ولنيل مقاصده مكتملاً مستوفياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً ايضاحه وتقريبه) (٣) فلولا اقتناع السلطان أبي عنان بغزارة علم ابن بطوطة عن البلدان ، وبكثرة من قابلهم من السلاطين والملوك والاولياء والابرار كما ورد في حكاية ما أمره بأن يدون مذكراته . ثم ان هذا الاهتمام من قبل السلطان بأمره (وهو جواله العصر) نوعاً من الكسب الادبي للسلطان وهو المعروف عنه

(١) « الرحلة » ج ١ ، ص ٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٤

احتضانه لأصحاب العلم والادب والدين . ويبدو أن « السباحة » كانت تحظى بأهمية ومكانة خاصة لدى المغاربة ، بدليل كثرة الرحالة لديهم ولعلها كانت تعتبر إحدى مقومات الشخصية العلمية ، كما كان الكشف الجغرافي يعتبر في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أحد المقومات الرئيسية بشخصية « الجغرافي » . ومن المعروف أن دولة الموحدين كانت تمر على عهد السلطان أبي عنان بنوع من الازدهار ، وكان بلاطه قد أصبح مطمح الطامحين من الادباء والعلماء الى الخطوة والكسب ، ولا يبعد أن يكون قرار ابن بطوطة بالعودة الى المغرب بعد تلك الغيبة الطويلة بتأثير من الاخبار التي قصها عليه مواطنوه من التقى بهم في الغرب عن كرم السلطان أبي عنان واغداقه على أصحاب المعرفة والعلم والادب . وقد لمح ابن بطوطة الى هذا المعنى بقوله في تبرير عودته الى الوطن : (وفي القاهرة تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشد الدولة المرينية وشفى ببركته بعد إشفاء البلاد المغربية وأفاض الاحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام ، فتشوقت النفوس الى المشول ببابه وأملت لثم ركابه . فعند ذلك قصدت القدوم الى حضرته العلية) (١) .

وقد حقق ابن بطوطة بالفعل ما كان يبغيه من الكسب في بلاط السلطان أبي عنان : (فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الخفيل ما أنساه الماضي بالحال ، واغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه) (٢) .

إن النجاح الذي أصابه ابن بطوطة في بلاط السلطان أبي عنان

(١) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦

وما اشتملت عليه رحلاته من مبالغات وادعاءات قد أطلق ألسن أعدائه
فراحت تشكك فيما يرويه من أخبار وحكايات . وتتجلى حملة التكذيب
هذه فيما رواه عنه معاصره ابن خلدون حيث قال : (واتصل - أي
ابن بطوطة - بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رجلته ومارأى
من المعجائب بممالك الارض ، واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب
الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون . فتتناجى الناس في
الدولة بتكذيبه . ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس
ابن ودار البعيد الصيت ففاوضته في هذا ، ورأيت أنه أنكر اخبار ذلك
الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه (١) .

ولقد لمح ابن جزى نفسه الى تلك الشكوك مع انه كان من أشد
المتحمسين لابن بطوطة ، فقد ذكر في بداية « الرحلة » بأنه قد أورد
جميع ما أورده ابن بطوطة من الحكايات والأخبار ولم يتعرض لبحث
عن حقيقة ذلك ولا اختبار (٢) . فكأنه كان يعتذر مقدماً عما قد
يبدو فيها من غرابة أو اختلاف . بل ان ابن بطوطة نفسه كان يضطر
الى توثيق حكاياته بين حين وآخر بأيمان غليظة لكي يصدقه سامعوه
فقد قال في أحد مواضع حديثه عن السلطان محمد شاه (وسنذكر
من اخباره عجائب لم يسمع بها عن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله
أن جميع ما أنقله عنه في الكرم الخارق للعادة حق ويكفي بالله شهيداً) (٣)
وقال في موضع آخر : (وإنما اذكر منها ما حضرته وشهدته وعينته
ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى بالله شهيداً) (٤) .

(١) « مقدمة العلامة ابن خلدون » ، ص ١٧١

(٢) « الرحلة » ، ج ١ ، ص ٤

(٣) « الرحلة » ج ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥

(٤) المصدر السابق ، ص ٤١

ولقد أقام ابن بطوطة في بلاط السلطان أبي عنان المريني ما يقرب من عشرين عاماً بعد عودته من رحلته الأفريقية من دون أن يفكر بالقيام برحلة أخرى أو يهزه داعي الشوق إلى شد الرحال مرة أخرى والطواف في البلدان . وتلك ولا شك ظاهرة غريبة على خلقه ، بما عهدنا فيه من حب السفر والتجول . ولعل تقدم السن به أو رغد العيش في بلاط السلطان أبي عنان قد أنساه تلك العادة . وقد عبر ابن جزري عن هذا المعنى بقوله : (فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر من المرعى بالخصب بعد طول ارتياد) (١) والواقع أن ستاراً كثيفاً ينسدل على حياة ابن بطوطة بعد تدوينه لرحلته ، فلا يعرف عنه شيء واضح ، كما أن ذكره في كتب المؤرخين نادر جداً . وقد ذكر ابن حجر نقلاً عن ابن مرزوق : (أنه بقي إلى سنة سبع وسبعين ، ومات وهو متول للقضاء ببعض البلاد) (٢) . ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء ، ولكن إشارات في كتاب (نفاضة الجراب) لابن الخطيب تدل أنه كان قاضياً لمدينة (تامسنا) ، وأنه ربما توفي في هذه المدينة ودفن فيها . ولذلك فقد لا يكون القبر الموجود في طنجة بأسمه هو قبره فعلاً (٣) .

وتتفق أغلب المصادر أنه توفي في عام ١٣٦٧ م أو ربما في عام ١٣٦٨ م (حوالي ٧٧٠ هـ) عن عمر يناهز السابعة والستين من عمره ، ولكن روايات أخرى تزعم أنه قد توفي في حوالي عام ١٣٧٧ م أو (٧٧٩ هـ) عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عاماً (٤) .

(١) المصدر السابق ص ٤

(٢) « ابن بطوطة » لمبداه كنون ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥ ، ص ١٠٥

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٤) « رحلة مع ابن بطوطة » ، لشرقاوي ، ص ٢

جولان ابن بطوطه

لقد شملت جولات ابن بطوطة بلدان المغرب العربي ومصر وبلاد الشام (سوريا الكبرى) وشبه جزيرة العرب والعراق وجزءاً من الساحل الشرقي لأفريقيا ، وإيران وتركيا وحوض الغولغا الأدنى وتركستان وأفغانستان والهند وجزر الملديق وساحل كرومانديل وسيلان وجزر الهند الشرقية وجنوبي الصين وربما شماليه أيضاً . كما شملت أيضاً الأندلس وإقطار غربي أفريقيا . وقد اعتاد خلال أسفاره ألا يتخذ نفس الطريق في العودة ، بما هيأ له مشاهدة مناطق واسعة من كل قطر من الاقطار (١) وقد لقي الباحثون صعوبة في تحديد مواضع كثير من المدن التي ذكرها لاسيما في الصين وغربي أفريقيا وجزر المحيط الهندي ، وذلك بسبب اندثارها أو بسبب جهله للفظها الصحيح . وبما زاد في صعوباتهم عدم التزام ابن بطوطة بتسجيل اتجاهات سفره بوضوح ، وقفزه بين الحين والحين قفزات غير طبيعية في موضع الى آخر بحيث يترك المتتبع لخط رحلاته في حيرة من أمره . وقد بذل بعض المستشرقين جهوداً طيبة في محاولاتهم لتحديد المواضع الغامضة وعلى رأسهم جب Gibb ويول yule وديفرمري Deferimry وفران Ferrand ، وكثيراً ما اختلفوا على موقع المكان وتسميته . ولذلك فلن نجد جميع المواضع التي ذكرها ابن بطوطة في الخرائط الحديثة ، كما أننا قد لا نجد أسماءها المذكورة بشكل صحيح بالرغم من أنه يحاول ضبط تلك الأسماء بالشكل توخياً للدقة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نقدم تلخيصاً جغرافياً « للرحلة » مستعيرين الفاظه نفسها ، وقد استفدنا بشكل خاص ، من ملاحظات العلامة جب في كتابه (رحلات ابن بطوطة) النسخة المختصرة لعام ١٩٢٩

Ibn Battuta tr avels in Asia and Africa

حول عدد غير قليل من المواضع الجغرافية المختلف عليها .

(١) « الرحلة » ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(١)

الرحلة الأولى سيوية والكبرى

جولاته في العالم العربي وإبراه

في بلدان المغرب العربي :

انطلق ابن بطوطة من موطنه طنجة ، مبتدأ رحلاته قاصداً حج بيت الله الحرام ، وذلك يوم الخميس ٢ رجب عام ٧٢٥ هـ (الموافق ١٣٢٥ م) فمر بتلمسان فملايانه فالجزائر فالقسطنطينية فتونس . وكان سفره مخفوفاً بالمخاطر بسبب غارات البدو الأعراب . ثم غادر تونس مع رفاقه في الحج سالكين طريق الساحل فمروا بسوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر وبينها وبين مدينة تونس اربعون ميلاً ، ثم بصفاقس ثم بقابس التي أقام فيها عشرة ايام بسبب توالي نزول الامطار . وغادروا قابس قاصدين طرابلس وبصحبتهم نحو مائة فارس خوفاً من غارات الأعراب . ثم غادر الركب طرابلس وتجاوز مسلاته ومصراته وقصور سرت . وحاول الأعراب الايقاع بهم فلم يفلحوا . ثم وصل الركب في أول جمادي الاولى الى الاسكندرية .

والاسكندرية هي الشجر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن الأصلية البنيان بها ماشئت من تحسين وتحسين ومأثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الفخامة والاحكام مبانها . فهي الفريدة في تجلي سناها والخريدة تجلي في حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب والجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اختلاؤها ، وكل طرفة فالها انتهاؤها .

وقد زار ابن بطوطة بعض القرى المجاورة للاسكندرية ، كقرية بني مرشد ، وقرية فروجة للتبرك برؤية الشيوخ والأولياء . ثم زار الركب دمنهور ، وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها . ثم رحل الى مدينة فوا (١) ، وهي مدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة . ثم رحل الركب الى المدينة النحرارية وهي رحبة الغناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا . وقد زار ابن بطوطة مدينة أبيار وهب قديمة البناء أرجة الأرجاء ، كثيرة المساجد ذات حسن زائد ، وهي بمقربة من النحرارية ، ويفصل بينهما النيل ، وتصنع بها ثياب حسان . . ثم توجه الى مدينة المحلة الكبيرة (٢) ، وهي جلييلة المقدار حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالحسن شملها . ثم قصد بلاد البرلس ونسترد ، ومدينتهم تسمى ملطين (٣) ، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء السيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترد بمقربة منها (٤) . وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً وقد

(١) فوة . (٢) المحلة الكبرى . (٣) بلطم .

(٤) لقد خلط هنا بين بحيرة البرلس وتنيس .

أصبحت خراباً . وتلك البلاد كثيرة النخل والشمار والطير البحري والحوث المعروف بالبوري .

ثم سافر في ارض رحلة الى مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الشمار عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب ، وتقع على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية يستقون الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وبها شجر الموز ويحمل ثمره الى مصر بالمراكب . وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار . والطير البحري بهذا المدينة كثير متناهي السمن . وبها الألبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق . وبها الحوث البوري يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر . وبخارجها جزيرة البحرين ، ويسمى النيل بها بالبرزخ .

ثم سافر إلى مدينة مارسكور وهي مدينة على ساحل النيل . ثم غادرها الى أشمون الرمان (١) ، وقد سميت لكثرة الرمان فيها ويحمل الى مصر ، وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلجان النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة . ثم سافر الى مدينة سمبود وهي على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هذه المدينة ، ركب النيل مصعداً الى مصر (القاهرة) ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض . وكانت الاسواق متصلة ما بين الاسكندرية والقاهرة وبين القاهرة واسوان بحيث لا يحتاج الى استصحاب الزاد .

ثم وصل الى مصر (القاهرة) وهي أم البلاد وقرارة فرعون

ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الارضية المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة ، وجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر ، تموج مرج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . ولها خصوصية النيل الذي أجل خطرها واغناها على أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذي الغربية .

وتحدث ابن بطوطة عن نيل مصر الذي أثار اهتمامه بشكل خاص لا سيما ما يتعلق بجريانه من الجنوب الى الشمال وبطريقة فيضانه وفي ازدحام المدن والقرى على ضفتيه . وقد اعتبره أحد انهار - الدنيا الخمس التي هي النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون ، ويمائلها أنهار خمسة أخرى هي نهر السند ويسمى بنج آب ونهر الهند ويسمى الكنك ونهر الجون (براهيمابتر) ونهر أتل (الفولغا) بصحراء قفجق ونهر السرو (هوانهو) بأرض الخطا .

واستلقت انتباه ابن بطوطة أيضاً بناء الاهرام التي وصفها بإيجاز شديد .

وغادر مصر (القاهرة) فمر بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سار الى مدينة بوش وهذه المدينة اكثر بلاد مصر كثائاً ومنها يجلب الى سائر الدنيا المصرية الى أفريقيا . ثم مر بمدينة دلاص وهي كثيرة الكتان أيضاً ويصدر الى بقية انحاء مصر وأفريقيا . ثم مر بمدينة اليا ثم بمدينة البهنا وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة . ويصنع بها ثياب الصوف الجيدة . ثم سافر الى مدينة منية أبي الخصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وتفضل مدن الصعيد جميعاً ، وتكثر بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد

ثم سافر الى مدينة قبلوي (١) ، وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل . ثم مر بمدينة منفلوط وهي مدينة حسن هواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل . ثم سافر منها الى أسيوط وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة . ثم اتجه الى مدينة أخميم ، وهي مدينة عظيمة أصيلة البيئات عجيبة الشأن بها البريد المعروف باسمه وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابه للأوائل لاتفهم في هذا العهد وصور الأفلاك والكواكب . ثم مر بمدينة هو وهي مدينة كبيرة بساحل النيل . ثم سافر الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الأسواق ثم مر بقوص وهي مدينة عظيمة لها خيرات ، بساتينها مورقة واسواقها مونة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة وهي منزل ولاية الصعيد ، ثم سافر الى الأقصر وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري وعليه زاوية . ثم مر بأرمنت وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل . ثم سافر الى مدينة إسنأ وهي مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات افنان . ثم سافر الى مدينة أدفو وبينها وبين إسنأ مسيرة يوم وليلة في صحراء . ثم عبر النيل من مدينة أدفو الى مدينة العطواني . ومن تلك المدينة اكترى وجماعته الجمال وسافروا بصحبة طائفة من العرب في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبل تكثر بها الضباع . وبعد خمسة عشر يوماً وصلوا الى عيذاب (٢) وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر .

(١) ملوي

(٢) كان ميناء عيذاب يقع جنوبي مصر على خط عرض ٢٠ ، ٢٢ شمالاً وخط طول ٣٢ ،

٣٦ ، شرقاً . وقد خربه سلطان مصر عام ١٤٢٢ م .

وأهلها الجباة وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء ، ويشدون على رؤوسهم عصائب . وهم لا يورثون البنات وطعامهم ألبان الابل ويركبون المهاري .

ولدى وصول ركب الحجاج الى عيذاب وجدوا سلطان البجا يحارب الاتراك فتعذر سفرهم ، فعادوا الى صعيد مصر ، ووصلوا الى مدينة قوص ، ثم انحدروا منها في نهر النيل الذي كان في أوان مده فوصلوا الى مصر (القاهرة) بعد مسيرة ثمان أيام .

وقرر ابن بطوطة أن يسافر الى الحجاز عن طريق بلاد الشام . فغادر القاهرة في منتصف شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة ، فوصل الى مدينة بلبس وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة . ومنها دخل ركب الحجاج الرجال ونزل منازلها مثل السّودة والواردة والمطيلب والعريش والخروبة . وبكل منزل منها فندق يسمونه الخان ينزل المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن أهم منازلهم قطيا التي تعتبر ثغر الحدود وفيها تؤخذ الزكاة من التجار ونفيس امتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث . وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود . ومجاها كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ولا الى مصر إلا ببراءة من الشام ، وقد وكل بحفظ طريقها القبائل الاعرابية .

في بلاد الشام :

واجتاز ابن بطوطة الحدود المصرية قاصداً بلاد الشام حتى وصل الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر . وهي مدينة متسعة

الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها ، ثم سافر الى مدينة الخليل وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشدقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة ، ثم وصل مدينة القدس . وبيت المقدس بلدة كبيرة منيعة بالصخر المنحوت .

وقد وصف بإسهاب مسجدها المقدس وقبة الصخرة . ثم رحل منها لزيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوماً طامسة واطلالاً دارة وقل بلد جمع من المعاسن ما جمعه عسقلان إنقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعاً بين مرافق البر والبحر . ثم رحل منها الى مدينة الرملة وهي في فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض . ثم رحل منها الى مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق ومنها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها . ثم سافر الى مدينة عجلوان (١) وهي مدينة حسنة لها اسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سافر قاصداً لللاذقية فمر بالفور ثم بالقصير . ثم سافر الى الساحل فوصل الى عكة وهي وخراب . ثم سافر الى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة واكثر اهلها أرفاض ثم سافر الى صيدا وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب الى بلاد مصر . سافر منها الى طبرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة وماؤها شديد الحرارة وبها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها نحو ثلاثة

قراسخ . ثم سار الى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الأسواق وجامعها بديع الحسن ويجلب منها الى ديار مصر الفواكه . ثم وصل الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار ويكتنفها البحر بمرافقه العميقة والبر بخيراته المقيمة والبحر على بعد ميلين منها وهي حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر . ثم سافر الى حصن الأكراد وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل . ثم سافر الى حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن . ثم سافر الى مدينة حماة احدى امهات الشام الرفيعة ، ومداتها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواير كالأنفلاك الدائرة يشقها النهر الأعظم المسمى بالعاصي وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي . ثم سافر الى المعرة وهي مدينة كبيرة حسنة أكثر أشجارها التين والفسق ومنها يحمل الى مصر والشام . ثم سافر الى سرمين (١) وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الآجري ويجلب الى مصر والشام . ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة ، ويصنع بها ثياب قطن حسان . ثم سار الى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى . وقد أفاض في وصف المدينة وقلعتها . ثم سافر الى مدينة تبريز (٢) (وهي على طريق قنسرين) وهي حديثة اتخذتها التركان وأسواقها حسان ومساجدها في غاية الاتقان . ثم سافر الى مدينة انطاكية وهي كثيرة العمارة ودورها

(١) سوران .

(٢) وتقع حوالي ٢٨ ميلا غربي حلب .

حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي . وكان عليها
 سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام ثم 'خرّب' ، ثم سافر الى
 حصن بغراس وهو حصن منيع عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى
 بلاد سبس وهي بلاد الكفار الارمن . ثم سافر الى مدينة صهيون وهي
 مدينة حسنة بها الأنهار المطردة والأشجار المورقة ولها قلعة جيدة . ثم
 سافر منها فمر بحصن القدموس ثم بحصن المنيقة ثم بحصن العليقة ثم
 بحصن مصياف ثم بحصن الكهف . وهذه الحصون لطائفة يقال لهم
 الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم . ثم
 سافر من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات أنهار مطردة
 وأشجار والبحر على نحو ميل منها . ثم سافر الى مدينة اللاذقية ، وهي
 مدينة عتيقة على ساحل البحر وبخارجها الدير المعروف بدير الغاروص
 وهو أعظم دير بالشام ومصر . وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين
 لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تعطاه السلسلة وهي من أحسن
 المراسي بالشام ثم سافر الى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل
 حصن الكرك وميناء على جبل شامخ . ثم سافر الى الجبل الأقرع وهو
 أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر ومكانه التركمان وفيه
 العيون والأنهار . وسافر منه إلى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا
 فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوارفة ولا يخلو من الزهاد
 والمتقنين إلى الله . ومن جبل لبنان سار إلى مدينة بعلبك وهي حسنة
 قديمة من أطيب مدن الشام تحديق بها البساتين الشريفة والجنان المنيعه
 وتخرق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها ، وبها يصنع
 الدبس المنسوب إليها الذي تصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز
 ويسمونها بالملبن أو جلد الغرس ويصنع بها أيضاً الثياب المنسوبة إليها

من الاحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعه التي لا نظير لها في البلاد . وبينها وبين دمشق بلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه يبيت فيها المسافرون الى دمشق . ثم وصل الى دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان عام ست وعشرين وسبعمائة . ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها .

وقد أفاض ابن بطوطة في وصف المدينة ومساجدها ومدارسها وأرباضها ، فتحدث بأسهاب عن جامع دمشق وعن جبل قاسيون ومشاهده وعن الروبة والقرى المجاورة . ووصف بالتفصيل الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية فيها . وقد أقام في دمشق ما يقرب من عام ، ثم صحب الراكب الحجازي في مستهل شوال من العام التالي متجهاً الى الديار الحجازية . فمروا بقرية الكوة ثم بقرية الصنين ثم ببلدة زرعة وهي صغيرة في بلاد حوران ثم بمدينة بصرى وهي صغيرة ثم مروا بالليجون ثم بحصن الكرك وهو من أعجب الحصون وأمنعها ويسمى بحصن القراب وأقام الراكب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثانية ، ونجسوا لدخول البرية ، ثم ارتحلوا الى معان وهي آخر بلاد الشام .

في الحجاز ونجد :

ثم دخل الراكب الصحراء من عقبة الصوان ، وبعد مسيرة يومين نزل الراكب في موضع ذات حجج ، وهي حسان لا عمارة بها . ثم مر بوادي بلوح ولا ماء فيه ، ثم وصل الى تبوك . ثم استعد الراكب لعبور البرية المخيفة التي بين العلا وتبوك وذلك بالتزود بالماء . ثم سار ليلاً

ونهاراً خوفاً من تلك البرية وفي وسطها الوادي الأخضر كأنه وادي جهنم بما يهب عليه من ريح السموم . ثم وصل الى العلا وهي قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه ، ثم نزل بوادي العطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة . ثم نزل بهدية وهي حسان ماء . وفي اليوم الثالث دخل الركب طيبة مدينة الرسول (ص) . وقد أفاض ابن بطوطة في وصف مسجد الرسول ، وفي الحديث عن رجال الدين الذين كانوا يقيمون فيها يومذاك أو سبق أن كانوا يقيمون فيها ، كما وصف أيضاً المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة .

ثم رحل الركب فنزل بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخيل وبنيان وفيه حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة ، ثم نزل بيدر وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع ثم اجتاز الصحراء المعروفة بقاع البزداء وهي برية يضل بها الدليل وفي منتهاها وادي رابغ ثم مر بخليص وبعقبة السويق ، ثم نزل الركب في بركة خليف وهي بسيط من الأرض تكثر بها حدائق النخل . وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر ، ثم مر بعسفان وهو في بسيط من الأرض . بين جبال وبه آبار ماء . ثم نزل ببطن مرّ ويسمى أيضاً مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة . وأولج الركب من هذا الوادي فوصل عند الصباح الى مكة شرفها الله تعالى وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها .

وقد أفاض ابن بطوطة في وصف مكة المكرمة وفي الحديث عن المسجد الحرام والكعبة المعظمة . وتحدث أيضاً عن بعض المشاهد خارج

مكة لاسيما الجبال المحيطة بها . وكذلك تحدث عن سكان مكة وعن بعض الرجال الأتقياء الذين كانوا يجاورون فيها .

وفي ٢٠ ذي الحجة غادر ابن بطوطة مكة بصحبة أمير ركب العراق فمر الركب ببطن مر ثم بعسفان ثم بخليص ثم بوادي السمك ثم ببدر ثم بالصغراء . ثم وصل الى المدينة . وبعد أن أقام أعضاء الركب في المدينة ستة أيام غادروها . وكانوا يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل وقد عاد نهائياً ساطعاً . ومروا بوادي العروس ثم رحلوا منها ودخلوا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، ونزلوا بالعيلة ثم بالنقرة ثم بالقارورة وهو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة . وفي هذه المواضع صهاريج عظيمة لجمع مياه الأمطار انتهت زبيدة زوجة هارون الرشيد على طريق الحج الصحراوي بين العراق والحجاز . ثم مروا بالحاجر ثم بسميرة ، ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيتبادلون بضائعهم من الحجاج بالثياب الخام . ثم مروا بالجبل المخروق ثم بوادي الكروش ثم بحصن فيد الذي يسكنه عرب يتعيشون مع الحجاج في البيع والتجارة وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ، ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوماً في طريق سهل تكثر فيه المياه والصهاريج . ثم مروا بموضع الأجفر ثم بالعلبية حيث يجتمع جمع عظيم من العرب فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ثم رحلوا فمروا بموضع يعرف بالمشقوق ، ثم بالتنانير ثم اجتاز الركب قرية زمالة وهي قرية معمورة . ثم نزل بالهيشمين ثم بواقصة . وبهذا الموضع يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويهنيئ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة . ثم نزل الركب ببلورة ثم بمنارة القرون ثم بموضع يعرف بالعذيب وهو واد

مخضب عليه عمارة وحوله فلاة ثم نزل الركب القادسية ، وكانت مدينة عظيمة ، فلم يبق منها إلا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وفيها مشاريع من ماء الفرات . ثم دخل الركب مدينة النجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنة نظيفة ، وهي مشهد الامام علي عليه السلام .

في العراق :

وقد فصل ابن بطوطة الحديث عن مرقد الامام علي (ع) كما تحدث عن سكان النجف ونقبائها ورجالها المشهورين . وافترق ابن بطوطة عن ركب الحج العراقي في مدينة النجف فواصل الركب سفره الى بغداد ، بينما سافر ابن بطوطة الى مدينة البصرة بصحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة ، وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل في تلك الأقطار إلا بصحبتهم . ومر بالخورنق ثم بقائم الوثائق ثم بالموضع المعروف بالعدار وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعيدي وهم قطاع الطريق يتحصنون بتلك الغابة ثم مر بمدينة واسط فمر بماء يعرف بالهضيب ثم بوادي الكراع - وهو بلا ماء - ثم دخل مدينة البصرة . وقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن المدينة ومحلاتها وجامعها ومشاهدها المباركة .

ثم ركب من ساحل البصرة في قارب صغير الى الأبله (١) وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلمة عن اليمين واليسار . وكانت الأبله مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت

(١) كانت مدينة الأبله تحتل الموقع الحالي لمدينة البصرة .

وهي الآن قرية بها آثار تصور وغيرها دالة على عظمها . ثم ركب في الخارج من بحر فارس في مركب صغير فوصل الى عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة فيها وبها مساجد كثيرة .

في ايران :

ثم ركب البحر قاصداً بلدة ماجول ووصل بعد أربعة أيام الى البلدة ، وهي صغيرة على ساحل الخليج الذي يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق . ثم سار ثلاثة أيام في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت من الشعر حتى وصل الى مدينة رامز ، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار . ثم وصل مدينة تستر وهي آخر البسيط من بلاد أتابك وأدل الجبال ، وهي مدينة كبيرة رائعة نظرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة وهي كثيرة الفواكه والخيرات ولا مثيل لأسواقها في الحسن ، وهي قديمة البناء . ثم سافر من مدينة تستر لثلاثة أيام في جبال شاخة حتى وصل الى مدينة ابذج ، وتسمى أيضاً مال الأمير وهي عاصمة السلطان أتابك . ثم رحل لمدة عشرة أيام في جبال شاخة ، حتى وصل الى بلدة اشتركان من عمالة مدينة اصفهان ، وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين . ثم رحل الى مدينة فيروزان وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين . ثم مر بقرية نيلان وهي كبيرة على نهر عظيم وسار يومين بين البساتين والمياه والقرى الحسان وأبراج الحمام حتى وصل الى مدينة اصفهان في عراق العجم وهي من كبار المدن وحسانها ، إلا أنها قد خرب أكثرها بسبب الفتنة بين أهل السنة والروافض ، وبها

الفواكه الكثيرة كالشمش والسفرجل والأعناب والبطيخ العظيم الشأن الذي لا مثيل له في الدنيا . وأهل اصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة ، فيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة . ثم سافر الى بلدة كليل وبينها وبين اصفهان ثلاثة أيام . وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه ثم وصل بعد يومين الى سرمد ثم غادرها الى يزدخالص وهي بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق وفيها يصنع الجبن اليزدخاسي . ثم سار منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الأتراك . ثم سافر الى مابن وهي بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق وأكثر أشجارها الجوز . ثم سافر منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصيلة البناء فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المونقة والأنهار المتدفقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة . وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب ، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم حسان الصور نظاف الملابس . وليس في المشرق بلدة تداني دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأثارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز . وهي في بسط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشققها خمسة أنهر أحدها النهر المعروف بركن آباد . وقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن جوامع المدينة ومشاهدها وسكانها ورجال الدين فيها وعن سلاطينها . ثم زار بلدة كازون وهي على مسيرة يومين من شيراز . ثم سافر منها الى مدينة الزيدون وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الأسواق عجيبة المساجد . ثم سافر الى مدينة الخويزاء وهي بلدة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس .

في العراق ثانية :

وسافر من الحوزاء قاصداً الكوفة في برية لا ماء فيها إلا في وضع واحد يسمى الطرفاوي ، وردّه بعد اليوم الثالث من سفره . ثم وصل الى مدينة الكوفة ، وهي إحدى البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مشوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين (ع) ، إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها يقطعون طريقها ، ولا سور عليها ، وبناؤها بالآجر ، وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسّمك ، وجامعها الأعظم جامع شريف كبير . ثم رحل عنها ونزل ببئر ملاحه وهي بلدة حسنة بين حدائق النخل ، ثم غادرها الى مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلاً وخارجاً ودورها بين الحدائق . ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة في الساحل . وأهل هذه المدينة كلهم إمامية ، وهم طائفتان أحدهما تعرف بالأكراد والاخرى تعرف بأهل الجامعيين والفتنة بينهما متصلة والقتال قائم . ثم سافر منها الى مدينة كربلاء وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات وهي مشهد الحسين بن علي عليهما السلام . وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخير وأولاد فائز وبينهما القتال أبداً . وهم جميعاً إمامية يرجعون الى أب واحد ، ولأجل

فتنتهم تخربت هذه المدينة . ثم سافر منها الى بغداد وهي مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف ، مشوى الخلفاء ومقر العلماء إلا انه قد ذهب رسمها ولم يبق إلا اسمها . وهي بالإضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها وإلتفات أعين النوائب إليها كالظلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حزن فيها يستوقف البصر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين .

وقد فصل ابن بطوطة في وصف بغداد فتحدث عن جانبيها الغربى (الكرخ) وجانبيها الشرقى (الرصافة) ، وعن قبور العلماء وبعض الصالحين فيها ، ثم قص جانباً من تأريخها المعاصر . ثم غادر بغداد متجهاً الى الموصل فنزل على نهر دجيل وهو متفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة تعرف بحربة وهي مخصبة فسيحة . ثم غادرها فنزل بموضع على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى بالمعشوق وهو مبني على الدجلة . وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى أيضاً سامراء ، وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها إلا القليل وهي معتدلة الهواء رائحة الحسن على بلائها ودروس معالمها وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان . ثم سافر منها مرحلة ووصل الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة الجوامع ، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق ، والدجلة في الجهة الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها . ثم رحل منها مرحلتين ووصل قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة . وقد لاحظ ان القرى والعمارة متصلة من هذا الموضع حتى الموصل . وواصل سفره فمر بالقيارة وهي بمقربة من دجلة وفيها عيون تنبع بالقار . ثم سافر من هذا الموضع مرحلتين فوصل الى مدينة الموصل، وهي مدينة

عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان . وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجدار . وقد ذكر أنه لم ير في البلدان مثل سور الموصل سوى السور الذي على مدينة دهلي . كما لاحظ أيضاً بأن أهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه . ثم رحل من الموصل فنزل بقرية تعرف بعين الرصد . وهي على نهر عليه جسر ميني . ثم نزل بقرية تعرف بالمويلحة . ثم رحل الى جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة مخطط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد ، وسورها ميني بالحجارة وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء . ثم رحل مرحلتين ووصل الى مدينة نصيبين ، وهي مدينة عظيمة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفصح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة ويصنع بها ماء الورد ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السور وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة . ثم رحل الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار مبنية في سفح جبل تشبه دمشق في كثرة أنهارها وبساتينها . ثم سافر الى مدينة دارا وهي عتيقة بيضاء المنظر لها قلعة مشرقة وهي خراب لا عمارة بها ثم رحل الى مدينة ماردين وهي عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقاً وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع . ثم عاد الى بغداد ماراً بالموصل . وكان قد التمس السلطان أن يرافق موكب

الحج العراقي فوجد الموكب في أهبة الرحيل . ولقد مرض لدى وصول الموكب الى الكوفة ، ولم يزل مريضاً حتى وصل الى مكة المكرمة .

في ساحل افريقيا الشرقي :

ثم غادر الحجاز عن طريق جدة بعد أن أدى فريضة الحج . وهبت على المركب ريح قوية كادت تقصف به . ثم وصل الى مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن يسكنها البجاة . وسافر بصحبة البجاة ليومين في بريّة كثيرة الغزلان حتى وصل الى جزيرة سواكن ، وهى على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر . والماء يجلب اليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر ، وهى جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحرر الوحش ، وتكثر عندهم المعزى والألبان والسمن ومنها يجلب أيضاً الى مكة . ثم ركب البحر من سواكن قاصداً اليمن . ولا يسافر في ذلك البحر في الليل لكثرة احجاره وانما يسافر فيه من طلوع الشمس الى غروبها ، ويرسي المركب فينزلون الى البر فاذا طلع الصباح صعدوا الى المركب .

في الساحل اليمني :

وبعد ستة أيام وصل الى مدينة حلى وتعرف باسم ابن يعقوب ، وكان من سلاطين اليمن ، وهى كبيرة حسنة العمارة . ثم رحل عن طريق البحر ووصل الى بلدة السرجة وهى بلدة صغيرة يسكنها طائفة

من تجار اليمن . ثم رحل بحرأ وممرسى الحادث ومرسى الأبواب (١) من دون أن ينزل بهما ، حتى وصل الى مدينة زبيد ، وهى مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً ، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، وهى واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهى برية لا شطية وهى احدى قواعد بلاد اليمن ، وهى مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخيل والبساتين والمياه ، وهى أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشماثل وحسن الأخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائق . ثم زار بلدة جبلة وهى صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ثم توجه الى مدينة تعز عاصمة ملك اليمن ، وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجر وتكبر وفظاظه ، وهى تتألف من ثلاث محلات ، احداها يسكنها السلطان وبمايكه وحاشيته ، والثانية يسكنها الامراء والأجناد ، والثالثة بها السوق العظمى . ثم سافر الى مدينة صنعاء وهى قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء . وقد لاحظ أثناء مروره بهذه المدينة أن مطر اليمن - شأنه شأن مطر الهند والحبشة - إنما ينزل في أيام القيظ ، واكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم . ولذلك فان المسافرين الذين يمرون بصنعاء يسافرون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة ، والمدينة مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها ، ثم سافر من صنعاء الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم والجبال تحف بها ولا مدخل لها إلا من جانب واحد ، وهى مدينة كبيرة ولا زرع

بها ولا شجر ، وبها صهاريج يجتمع بها الماء أثناء المطر وهي شديدة الحر
وهي مرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة من كنيابت وكولم
وقالقوط وفندرانة والشاليات ومنجورور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها
ويسكن بها تجار الهند وتجار مصر أيضاً . وأهل عدن ما بين تجار
وحالين وصيادي السمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون
لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين
يديه من الأموال ، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة .

في الساحل الافريقي ثانية :

ثم سافر من مدينة عدن في البحر مدة أربعة أيام ووصل الى
مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة وهم طائفة من السودان وبلادهم صحراء
مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو . ومواشيهم الجمال ، ولهم
أغنام مشهورة السمن ، وأهلها سود الألوان . وهي مدينة كبيرة لها
سوق عظيمة إلا أنها أقدر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها تنناً ثم
سافر في البحر خمس عشرة ليلة ووصل مقدشو ، وهي مدينة متناهية في
الكبر وأهلها جمال وأغنام كثيرة وهم تجار أقوياء ، وبها تصنع الثياب
المنسوبة إليها . ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب الى
المرسى تصعد القوارب الصغار إليه ، ويكون في كل مركب جماعة من
الشبان يأتي كل واحد منهم بطبق فيقدمه لتاجر من تجار المركب
ويقول هذا نزيلي ، فلا ينزل التاجر من المركب إلا الى دار نزيله .
ثم ركب من مدينة مقدشو متوجهاً الى بلاد السواحل قاصداً مدينة

كلوا من بلاد الزوج ، فوصل إلى جزيرة منسي (١) وهي كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها ، وأشجارها الليمون والموز والانرج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه الزيتون ولكنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنما يجلب إليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسّمك وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام . ثم وصل إلى مدينة كلوا وهي مدينة عظيمة ساحلية ، وهي من أحسن المدن واتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الدريس ، والأمطار بها كثيرة ، وأكثر أهلها الزوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم . وقد أخبره بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سفالة ويوفي (٢) من بلاد الليمين شهر . ومن يوفي يؤتى بالتبر إلى سفالة .

في الساحل العماني :

ثم ركب البحر من كلوا إلى مدينة ظفار الحموض وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ، ومنها تحمل الخيل إلى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل . وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً وبينها وبين عمان عشرون يوماً . ومدينة ظفار في صحراء لا قرية بها ولا عمالة لها . والسوق خارج المدينة ، وأكثر سمكها من النوع المعروف بالسردين وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . ولهم قمح يسمونه

(١) جزيرة منبسة .

(٢) يعتقد جب أن يوفي هي مدينة نوب Nupe على الضفة اليسرى من نهر النيجر بين جابا ولاكوجا (جب ص ٣٧٩) .

العلس ويجلب إليهم الارز من الهند وهو أكثر طعامهم . والغالب على أهلها رجالاً ونساءً المرض المعروف بداء القيل وهو انتفاخ القدمين .

وعلى مسيرة نصف يوم من مدينة ظفار توجد مدينة الأحقاف ولها بساتين فيها موز كثير كبير الحجم . كما يوجد بها أيضاً التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند . وقد ركب البحر من مدينة الاحقاف قاصداً عمان في مركب صغير . وفي اليوم الثاني وصل الى مرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادو السمك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغاً ، وهذا الصمغ هو اللبان وهو كثير جداً هنالك ، ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك . وبعد أربعة أيام وصل إلى جبل لمعان وهو في وسط البحر ثم وصل إلى جزيرة مصيرة وهي جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك ، ولم ينزل بها لبعدها عن الساحل . ثم وصل بعد يوم وليلة إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور . ثم وصل إلى مدينة قلهاة ، وهي على الساحل وهي حسنة الأسواق وبمقربة منها قرية طيبي وهي من أجمل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة وبها أيضاً التنبول ، ويجلب التمر إلى هذه الجهات من عمان . وسار ستة أيام في صحراء حتى وصل عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس وقاعدة هذه البلاد مدينة نزوا وهي في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار وهم أباضية ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك .

في ايران ثانية :

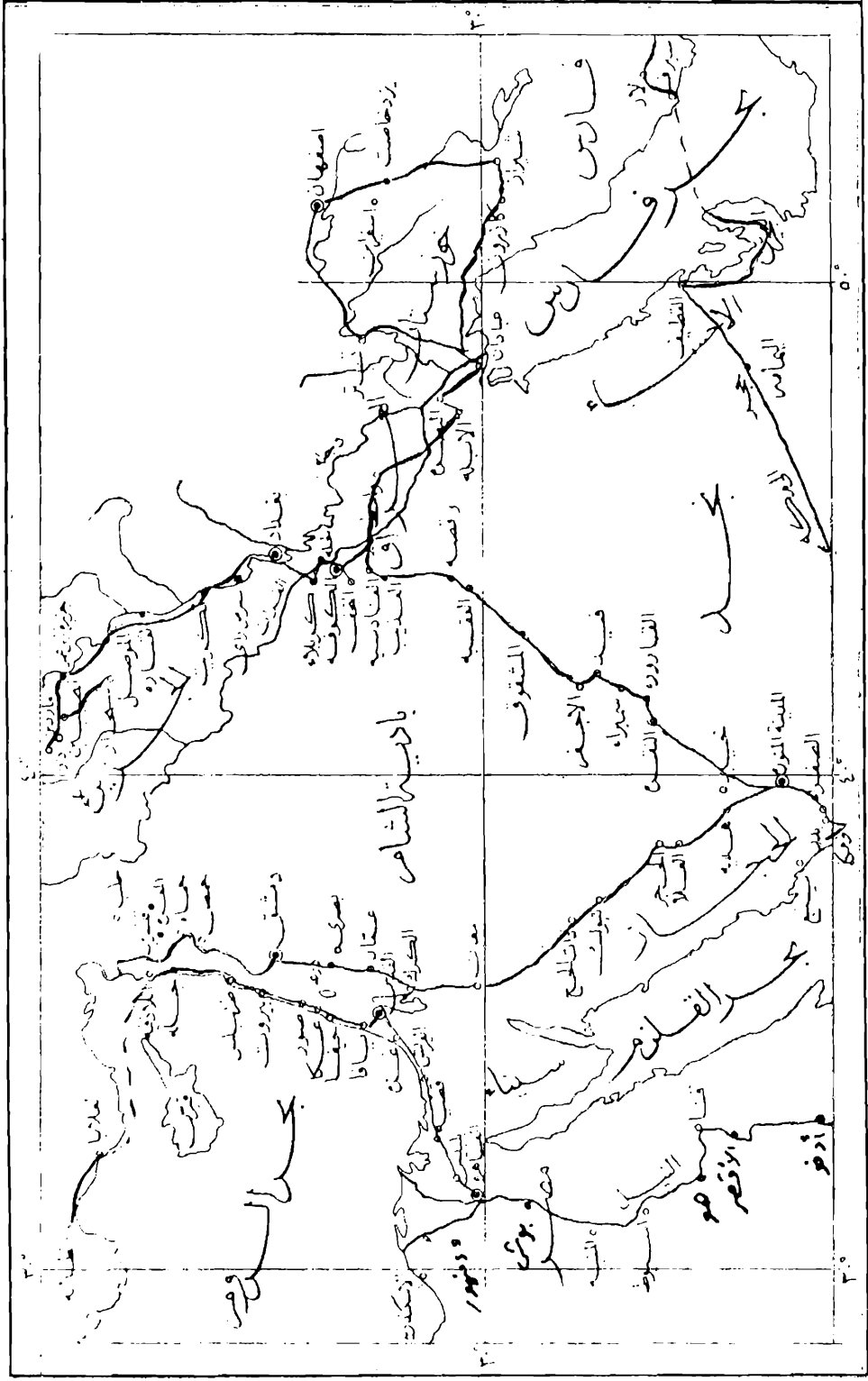
ثم سافر من بلاد عمان إلى بلاد هرمز وهي مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضاً موغ اسفان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينها وبين البحر ثلاثة فراسخ . ووصل إلى هرمز الجديدة ومدينتها تسمى جرون وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلح الهند إلى العراقيين وفارس وخراسان وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان وبها عيون ماء وصهاريج يجمع بها ماء المطر .

ثم غادر مدينة هرمز قاصداً مدينة خنج بال للقاء شيخ صالح وبينها وبين الساحل صحراء مسيرة أربع أيام يسكنها التركمان وتهب عليها رياح السموم في شهر تموز وحزيران ولذلك لا يسافر فيها إلا ليلاً . ووصل إلى كوراستان (١) وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر ، ثم سار منه ثلاثة أيام في صحراء شبيهة بالسابقة حتى وصل إلى مدينة لار ، وهي مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان . ثم سافر منها إلى مدينة جنج بال . ثم سافر إلى مدينة قيس وتسمى أيضاً بسيراف (٢) وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر

(١) خورستان .

(٢) يقول جب ان وصف ابن بطوطة لميناء سيراف يشتمل على خطأ عظيم . فمناخ سيراف القديم يقع بالقرب من مدينة فاهيري الحالية . أما قيس أو كيش فانها مدينة تقع حوالي ٧٠ ميلاً إلى الجنوب . وقد حلت في القرن الثاني عشر محل سيراف ، ثم حل محلها ميناء هرمز عام ١٣٠٠ م وفي القرن السابع عشر حل ميناء بندر عباس محل هرمز (جب ص ٣٥٣) .

خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في العالم الغربي وإيران (حققها الشيخ محمد فخر الدين)



اليمن وفارس ، وهي مدينة لها انفساح وسعة ، طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والأشجار الناضرة ، وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس ، ومنهم طائفة من عرب بني سقاف وهم الذين يغوصون على الجوهر . وقد وصف بالتفصيل طريقة الغوص لاستخراج اللؤلؤ في هذه الجهات .

في الجزيرة العربية :

ثم سافر الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤونة يحفر عليه بالأيدي . وبها حدائق النخل والرمال والأترج ويزرع بها القطن ، وهي شديدة الحر كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها . وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانتطع فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر ، وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو غريبها ويسمى الثاني بعوير وهو في شرقها ، ثم سافر الى مدينة القطيف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهي رافضية . ثم سافر منها الى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا وبها من النخل ما ليس ببلد سواها . ثم سافر إلى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضاً بحجر ، وهي مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار . وقد صاحب أميرها برسم الحج وذلك في سنة ثنتين وثلاثين فوصل إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة .

وبعد فراغه من الحج توجه إلى جدة بقصد ركوب البحر إلى اليمن والهند وكان المفروض أن يستقل أحد المراكب المسافرة ولكنه لم

يرض عنه وقد غرق هذا المركب بمن فيه . ثم استقل مركباً قاصداً
عيزاب ، لكن الريح ردت المركب إلى جبل يعرف برأس دواير على
الجانب الافريقي . ومن هناك سافر برأ في صحراء مع البجاة حتى وصل
بعد تسعة أيام إلى عيزاب ثم واصل السفر حتى وصل إلى قرية العطوانى
على ضفة النيل مقابل أدفو . وأجتاز النيل إلى مدينة إسنا ثم إلى إرمنت
ثم إلى الأقصر ثم إلى قوص ثم إلى قنا ثم إلى هو ثم إلى أخميم
ثم إلى أسيوط ثم إلى منفلوط ثم إلى منلوي ثم إلى الأشمونين ثم إلى
منية بني الحصيب ثم إلى البهنسة ثم إلى بوش ثم إلى منية القائد ثم
إلى مصر (القاهرة) . وسافر منها على طريق بلبيس إلى الشام فمر
بغزة ثم بالخليل ثم ببيت المقدس ثم بالرملة ثم بعكا ثم بطرابلس ثم
بجبله ثم باللاذقية . ومن اللاذقية ركب البحر بمركب جنوي قاصداً
برّ التركيّة المعروف ببلاد الروم .

جولته في الشرق اوردني وأواسط آسيا

في بلاد الاناضول :

أمضى ابن بطوطة في البحر تسعة أيام بعد اقلاع المركب من اللاذقية . وفي اليوم العاشر وصل المركب إلى مدينة العلايا وهي أول بلاد الروم . وهي كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر والاسكندرية والشام ، وهي كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى الاسكندرية ودمياط وسائر بلاد مصر ، ولها قلعة منيعة . وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا . وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد ، فأهله أجمل الناس صوراً وأنظفهم ملابساً وأطيبهم مطاعماً وأكثر خلق الله شفقة ، إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك . وكان متى نزل بزاوية أو دار تفقد أحوال جيرانه من الرجال والنساء ، وهم يطبقون نظام « الأخي » .

وسافر من مدينة العلايا إلى انطاليا ، وهي من أحسن المدن متناهية في اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيباً ، وكل فرقة من سكانها منفردة بنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ما كثون منها بالوضع المعروف بالميناء وعليهم سور تُسدُّ أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة ، والروم الذين كانوا أهلها قديماً ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم سور أيضاً . واليهود في موضع

آخر وعليهم سور . والملك وأهل دولته وبما ليكه يسكنون ببلدة عليها سور أيضاً يحيط بها ويفرق بينها وبين الفرق الاخرى . وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها جامع وحمامات كثيرة ومدرسة وأسواق ضخمة قريبة بابدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقر الدين وهو يبيع ويحمل إلى ديار مصر .

وسافر من انطاليا إلى بردور وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ولها قلعة في رأس جبل شامخ ، ثم سافر إلى مدينة اكريدرور وهي مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين ولها بحيرة غلبة الماء يسافر المركب فيها يومين فيمر بأقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى (١) . ثم سافر إلى مدينة قل حصار (٢) . وهي مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب ، وقد نبت فيها القصب فلا طريق لها إلا طريق كالخسر مهياً بين القصب والمياه لا يسع إلا فارساً واحداً ، والمدينة على تل في وسط المياه منيعة . ثم اجتاز طريق قرا أغاج وهي صحراء خضراء يسكنها التركان ويقطعها قطاع الطرق من مدينة كوتاهية حتى وصل إلى مدينة لاذق وتسمى أيضاً دون غزلة أي بلد الخنازير وهي من أبداع المدن وأضخمها ولها البساتين الرائعة والأنهار المطردة والعيون المنيعة وأسواقها حسان ، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثيل لها . وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الأقليم كلهم . وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتكهنن للفصاد ، وكل

-
- (١) ان من غير المفهوم كيف أمكن لابن بطوطة أن يسافر بالمركب من بحيرة أغريدور إلى بحيرة آق شهر مع أنهما غير متصلتين ، ولعله خلط بين الموضوعين .
- (٢) تقع مدينة قل حصار على بحيرة سغد sogut .

واحدة عليها وظيف لما لكها تؤديه له . وسافر من مدينة لاذق يوماً وبعض ليلة فوصل إلى حصن طواس وهو حصن كبير ، ثم سافر إلى بلدة مغلّة ثم إلى بلدة ميلاس وهي من أحسن بلاد الروم وأخصمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، ثم سافر إلى بلدة برجين وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان . ثم سافر إلى مدينة قونية (١) وهي مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه ، وبها المشمش المسمى قمر الدين الذي يحمل إلى ديار مصر والشام ، وشوارعها متسعة جداً وأسواقها بديعة الترتيب ، وأهل كل صناعة على حدة . ثم سافر منها إلى مدينة اللارندة وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين . ثم سافر إلى مدينة أقصرا (٢) وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجري الماء بدورها وفيها الأشجار ودوالي العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها الثياب المنسوبة إليها من صوف الغنم ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك . ثم سافر إلى مدينة نكدة (٣) وهي مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة واثنان بخارجها وعليه أنواعير بالداخل والخارج ومنها تسقى البساتين . وتكثر بها الفواكه . ثم سار إلى مدينة قيسارية (٤) وهي إحدى المدن العظام بهذا الأقليم . ثم سافر إلى مدينة

(١) لقد قفز ابن بطوطة قفزة غريبة من الطرف الجنوبي الغربي إلى وسط هضبة الاناضول .

(٢) آق سراي .

(٣) نفدة .

(٤) نيسرية .

سيواس وهي مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها خاصة بالناس ثم سافر إلى مدينه أماصية (١) وهي مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه ، وعلى أنهارها النواعير تسقي جنتها ودورها ، وهي فسيحة الشوارع والأسواق . وتقع مدينة سونس مقر أولاد أبي العباس أحمد الرفاعي بالغرب منها . ثم سافر إلى كمش وهي مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة ، وعلى مسيرة يومين منها جبال شاذة وعرة . ثم سافر إلى أرزنجان (٢) وهي مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الأرمن والمسلمون يتكلمون بها التركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان وفيها معادن النحاس . ثم سافر إلى مدينة أرز الروم (٣) وهي كبيرة الساحة ، خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركان بها ، ويشقها ثلاثة أنهار ، وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي . ثم سافر إلى مدينة بركي حيث لقي كرم الضيافة والاعزاز من سلطانها . ثم سافر إلى مدينة تيره وهي مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه . ثم سار إلى مدينة أياسلوق ، وهي مدينة كبيرة قديمة معظمه عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة وفيها مسجد لا نظير له في الحسن ، وكان كنيسة قبل أن يفتح المسلمون المدينة ، ثم سار إلى مدينة يزميز (٤) وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها ، ثم سافر إلى مدينة مغنسية وهي مدينة كبيرة حسنة في سفح جبل ، وبسيطها

(١) أماصية .

(٢) إرزنجان .

(٣) أرضروم .

(٤) إزمير (ويلاحظ انه قفز هنا مرة أخرى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب) .

كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه . ثم وصل إلى مدينة برغمة وهي مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ، ويقال أن افلاطون الحكيم من أهلها ، وإن داره تشتهر باسمه إلى الآن . ثم سافر إلى مدينة بلي كسرى (١) وهي مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق . ثم سار إلى مدينة برصي (٢) وهي مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية ، وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة . ثم سافر إلى مدينة يزنك وتحيط بها بحيرة من جميع الجهات ، وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ، وبها جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل والعنب وقد أقام في تلك المدينة أربعين يوماً بسبب مرض خرس له ، ولم يكن معه أحد يحسن اللسان التركي لأن الترجمان كان قد فارقه . ثم سافر قاصداً مدينة ينجنا فمر بقرية مكجنا ثم بقرية كادية . وقد اجتاز في طريقه واد كبير سريع المياه فكادت دابته تفرق وقد غرق له غلام وماتت جارية . ثم وصل إلى مدينة ينجنا وهي بلدة كبيرة حسنة ثم سافر إلى بلدة كبنوك في إبان الثلج والشتاء ، وهي بلدة صغيرة لا شجر بها ولا دوالي العنب ولا يزرع بها إلا الزعفران . ثم سافر إلى مدينة مطرني وكان البرد قد اشتد والثلج قد غزر . ثم رحل منها إلى مدينة بولي (٣) ، وقد كادت دابته تفرق به أيضاً عند اجتيازه لوادٍ سريع المياه بالقرب من المدينة . ثم فارقها إلى مدينة كردي بولي وهي مدينة كبيرة في بسيط من الأرض حسنة متسعة الشوارع والأسواق من أشد البلاد برداً وفي

(١) بالكبير .

(٢) بورصة .

(٣) بولو .

محلات متفرقة كل محلة تسكنها طائفة لا يغالطهم أحد . ثم انصرف إلى مدينة برلو وهي مدينة صغيرة على تل تحتها فندق ولها قلعة . ثم سافر إلى مدينة قسطنطينية (١) وهي من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار ، وقد أقام فيها نحو أربعين يوماً . ثم سافر إلى مدينة صنوب (٢) وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهي جهة الشرق ولها هناك باب واحد لا يدانيه أحد إلا باذن أميرها . وقد أقام بهذه المدينة نحو أربعين يوماً ينتظر متيسر السفر في البحر إلى مدينة القرم ، وكان أثناء تنقلاته بين مدن الأناضول ينزل في زوايا « الأخيَّة » وقد وصف بالتفصيل ما كان يقابل به من كرم وترحاب وضيافة .

في بلاد تركستان :

ثم ركب البحر من صنوب متجهاً إلى القرم . ولما توسطه هبت ريح كادت تفرق المركب ودفعت به إلى القرب من صنوب ثانية . ثم استقامت الريح فبلغ المركب إلى وسط البحر ثانية ، فعصفت الريح مرة أخرى . ثم صفا الجو فشاهدوا جبال البر ، وقصدوا مرسى يسمى الكرش (٣) ، فأرادوا دخوله فأشار إليهم أناس كانوا بالجبل ألا يدخلوا فرجعوا مع البر ، ثم نزلوا البر وباتوا في كنيسة قرب الساحل وكان هذا الموضع من الصحراء المعروفة بدشت قفجق ، وهي صحراء واسعة

(١) قسطنطيني .

(٢) سينوت .

(٣) كرج .

قاحلة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وإنما يوقدون الأراث . وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره . وقد استأجر من سكان مرسى الكرش المعروفين باسم قفجق وهم على دين النصرانية عجلة يجرها الفرس ركبها هو وجماعته ، ووصلوا إلى مدينة الكفا (١) ، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر حسنة الأسواق يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون . وقد سمع في هذه المدينة أصوات النواقيس لأول مرة ولم يكن قد سمعها قط فهاله ذلك وأزعجه . وقد أعجبه مرساها الذي كان به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيراً وكبيراً ، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة . ثم اكرت عجلة وسافر بها إلى مدينة القرم ، وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان . وقرر أن يسافر إلى مدينة السرا عاصمة السلطان محمد أوزبك خان ، فاشتري عربة وجعلها لنفسه ، ومن عادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيراً كبير الحجاج في درب الحجاز ، يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون عشياً . وإذا حلتوا الخيل والابل والبقر عن العربات سرحوها للرعي ليلاً ونهاراً . ومن مميزات هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب ، ولذلك كثرت الدواب بها ، ولا رعاة لها ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم في السرقة وحكمهم فيها .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلاً من مدينة القرم وصل إلى ماء كثير فخاضه يوماً كاملاً ، ثم سار بعده ثلاثاً فوصل إلى مدينة أزاك ، وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات ، وقد لاحظ أن الخيل بتلك البلاد كثيرة جداً وأن ثمنها نزر . ثم سافر

(١) وتسمى في الوقت الحاضر ثيوديسيا .

إلى مدينة الماجر (١) وهي مدينة كبرى من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة . وقد التقى هناك بتاجر يهودي أخبره أنه أتى من الاندلس براً ولم يسلك بحراً ، وذلك عن طريق القسطنطينة العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس ووصل في أربعة أشهر لاحظ ظاهرة عجيبة هي تعظيم النساء عندهم . وذكر أن نساء الأتراك لا يحتجن ، وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية . وتجهز من مدينة الماجر قاصداً معسكر السلطان محمد أوزبك ، وكان بموضع يقال له بش دغ (٢) ، ومعنى ذلك الجبال الخمسة . وحينما وصل إلى المعسكر رأى مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد في الهواء . وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والخوانيت وقد أفاض في الحديث عن السلطان محمد أوزبك خان في حمله وتراحاله وعن أولاده وزوجاته (خواتينه) وعن رجال بلاطه واحتفالاتهم في الأعياد والمناسبات .

ثم رغب في السفر إلى مدينة البلغار التي كان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر ، وذلك ليرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل ، ووصلها بالفعل وأقام بها

(١) يقول جب : ان آثار مدينة الماجر (التي تحمل محلها الآن مدينة بورغومازهارى Burgomadzhary) تقع على نهر كوما الى الجنوب الغربي من استراخان ، وحوالي ١٩٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقي من جورجيوسك (جب ص ٢٥٧) .

(٢) بش دغ هو أحد مرتفعات جبال القوقاز ويقع الى الشمال من تفورسك وحوالي ٣٥ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من جورجيوسك .

ثلاثة أيام ، وتحقق من ذلك . وقد أراد أيضاً السفر إلى أرض الظلمة (١) والدخول إليها من بلغار ، وبينهما أربعون يوماً ، إلا أنه غيّر رأيه لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . وقد أُخبر بأن السفر إليها يكون في عجلات صفار تجرها كلاب كبار . وتحدث عن طريقة التجارة في تلك البلاد . وعاد من بلغار إلى محلة السلطان في بش دغ ثم رافقه إلى مدينة الحاج ترخان (٢) وهي من أعظم المدن ، عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل (الفولغا) وهو من أنهار الدنيا الكبار ، وهناك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به . ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر ، والمياه المتصلة به ثلاث مراحل أو ربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون

في الطريق إلى القسطنطينية :

وعند وصولهم مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان محمد أوزبك أن يأذن لها لزيارة أبيها وتضع حملها عنده ثم تعود إليه ، فأذن لها ، وقد استأذن ابن بطوطة السلطان في مرافقتها لمشاهدة القسطنطينية فوافق بعد تمنع ، وحمله بالهدايا ، وكذلك فعلت خواتينه ، وسافر في العاشر من شوال بصحبة الخاتون بيلون ووصلوا إلى مدينة اكك (٣) ، وهي مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخلوات

(١) ويقصد بها سيبيريا .

(٢) استراخان .

(٣) يعتقد جب أن المقصود بها مدينة لوكاشي أولوك التي تقع على نهر آزوف ، وتبعد حوالي

٢٢ ميلا غربيا تاغازوغ (جب ص ٣٥٧) .

شديدة البرد وبينها وبين السرا مسيرة عشر ، وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباج الصور أهل غدر ، وعندهم معادن الفضة . ثم وصل بعد مسيرة عشرة من هذه المدينة إلى مدينة سرادق (١) وهي من مدن وشق قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم وهم أهل الصنایع ، وأكثر بيوتها خشب . وكانت هذه المدينة كبيرة فخرّب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك . ثم وصلوا إلى بلدة بابا سلق وهي آخر بلاد الترك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها ويتزود لها الماء ويحمل بالقرب ، والأتراك يرفعون الألبان بالقرب ويخلطونها بالدوفي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون . ودخل البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرهم من يوم أن فارقوا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر يوماً مضى ومعشى . ثم وصلوا إلى حصن مهتولي وهو أول عمالة الروم . ثم وصلوا إلى حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطقيلي . ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره ، وبخارجه قرية كبيرة ثم ساروا يومين ووصلوا إلى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدوا المد فأقاموا حتى كان الجزر ، وخاضوه وعرضه نحو ميلين . ومشوا نحو أربعة أميال في رمال ووصلوا الخليج الثاني فخاضوه وعرضه نحو ثلاثة أميال . ثم مشوا نحو ميلين في حجارة ورمل ، ثم وصلوا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فخاضوه وعرضه ميل

(١) يعلق جب هل ذلك بقوله : (ليس من الواضح لماذا ينبغي ان تقوم جماعة الخاتون ببلون بهذه الدورة في القرم . ولعل ابن بطوطة قد خلط بين تفاصيل الطريق ، وربما كان قد زار سرادق أثناء اقامته في القرم (ستاري كريم) وليس خلال الرحلة) « جب ص ٣٥٨ » .

واحد . فعرض الخليج كله مائة ميل ويابسه اثني عشر ميلاً ، وتصير ماءً كلها أيام المطر فلا تخاض إلا في القوارب . وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (١) وهي صغيرة لكنها حسنة مائنة وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى . ثم وصلوا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر ذات أنهار وأشجار لم يستطع ابن بطوطة أن يتذكر اسمها . وقد استقبلت الخاتون عند تلك المدينة من قبل أخيها ومرافقيه استقبالاً حافلاً . ثم وصل الركب إلى القسطنطينية العظمى فضربت النواقيس حتى ارتجت لها الآفاق . وقد منع المسلمون أولاً من الدخول إلى المدينة إلا أن الخاتون رجت والدها فسمح لابن بطوطة وبعض جماعة بدخول المدينة وعين لهم دار بمقربة من دار الخاتون ونودي بذلك في الأسواق . والقسطنطينية متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا في بلاد المغرب ، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت ، وهو يعبر في القوارب ، واسم هذا النهر ابسمي . وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول وهو بالعدوة

(١) يقول جب ان طريق ابن بطوطة خلال تراقيا الى القسطنطينية غير معروف بتاتاً كما تحدث منه . وهذا شأنه في حديثه عن الصين حيث سقط في تحريفات غريبة للاسماء لكونها غير مألوفة لديه ولكونه قد استعاضها من الذاكرة بعد مضي مدة لا تقل عن عشرين عاماً ، وقد كانت مدينة الحدود في امبراطورية بيزنطة عام ١٣٣١ - ١٣٣٢ (وهو التاريخ الذي تمت فيه هذه الرحلة وليس التاريخ الذي ذكره ابن بطوطة فهو مخطوء) هي مدينة ديامبولي أو كافولي (وتسمى الآن جامبولي) ، ويمكن القول بأن ماहतولي هي أقرب المدن إليها . أما النهر المذكور فلعله نهر موقت أو رافد . وقد يخطر على البال نهر الدانوب ، إلا أن في ذلك تجاوز خطير على دقة المواضع . أما الفنيكة فمن المحتمل أن تكون اغاثونيكا حيث يعبر عندها الطريق الرئيسي القادم من ديامبولي نهر تونيجا (توزوس) عند أو قرب .

الشرقية من النهر ، وفيه يسكن السلطان وارباب دولته وسائر الناس .
وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة ، وأهل كل صناعة على حدة
لا يشاركونهم سواهم . وعلى كل سوق أبواب تسد عليهم بالليل . وأكثر
الصناع والباعة بها نساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة
أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفي أعلاه قلعة صغيرة . وقصر السلطان
والسور يحيط بهذا الجبل . وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر
وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامر . والكنيسة العظمى هي في وسط هذا
القسم من المدينة .

وأما القسم الثاني منها فيسمى الخلطة وهو بالعدوة الغربية من
النهر شبيه برباط الفتح (١) في قربه من النهر . وهذا القسم خاص
بنصارى الافرنج يسكنونه . وهم أصناف . فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل
رومية وأهل افرانسة ، وحكمهم إلى ملك القسطنطينية ، وربما استعصوا عليه
فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة ، ومرساهم من
أعظم المراسي . وقد رأى فيه ابن بطوطة مائة جفن من القراقر (المراكب
الكبيرة) . وأما الكفار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة
إلا أن الأقدار غالبية عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم
لا خير فيها .

وقد وصف ابن بطوطة أيضاً الكنيسة العظمى التي عندهم أياصوفيا
وقال انه يصف خارجها ، وأما داخلها فلم يشاهده . وكان وصفه لها على
دقة عظيمة . كذلك وصف المانستران (الأديرة) وصفاً مفصلاً دقيقاً ،
وتحدث عن طريقة الحياة والعبادة فيها .

وتحدث عن سلطان القسطنطينية تكفور ابن السلطان جرجس وروى

(١) المقصود به جبل طارق .

مقابلته له . وتحدث أيضاً عن أبيه الذي كان مترهباً في أحد الأديرة خارج المدينة . وقد أقام في القسطنطينة شهراً وستة أيام .

في تركستان ثانية :

وعاد ابن بطوطة وجماعته إلى حيث تركوا أصحابهم وعرباتهم فركبوا العربات ودخلوا البرية حتى وصلوا إلى مدينة بابا سلوق وأقاموا بها ثلاثاً وذلك في اشتداد البرد . ثم وصل إلى مدينة الحاج ترخان فوجد السلطان محمد اوزبك قد غادرها إلى عاصمته السرا . فسافر قاصداً السرا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثاً وهي جامدة . وكان إذا احتاج إلى ماء قطع قطعاً من الجليد وجعله في القدر حتى يصير ماءً فيشرب منه ويطبخ ، ثم وصل إلى مدينة السرا (١) وتعرف بسرا بركة وهي من أحسن المدن متناهية الكبر في بساط من الأرض تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع . وركب يوماً مع بعض كبارها وغرضه التطواف فيها ومعرفة مقدارها . وكان منزله في طرف منها ، وكان ركوبه غدوة فوصل لآخرها بعد الزوال . فصلى الظهر وأكل وعاد

(١) يقول جب انه كانت هناك مدينتان باسم السرا في بلاد التتار ، وكافتا بالتعاقب عاصمتين لحانات القرن اللعبي ، وهما السرا القديمة ، وتقع بالقرب من قرية سليترننو Selitrennoe الحالية حوالي ٤٧ ميلا فوق استراخان ، والسرا الجديدة التي تحيط بمدينة تساريف Tsarev الحالية على بعد (٢٢٥) ميلا فوق استراخان وقد نقل السلطان محمد اوزبك عاصمته من السرا القديمة إلى السرا الجديدة في حوالي هذا الوقت ، وربما قبل هذا الوقت بضع سنين . وينطبق وصف ابن بطوطة على السرا الجديدة التي تمتد بقاياها إلى حوالي (٤٠) ميلا وتغطي منطقة تزيد على (٢٠) ميلا مربعاً (جب ص ٢٨٥) .

فوصل المنزل عند المغرب ومشى يوماً في عرضها ذاهباً راجعاً في نصف يوم في عمارة متصلة الدور لا خراب بها ولا بساتين وفيها طوائف مختلفة من الناس منهم المغل والقجق والجركس والروم ، وكل طائفة تسكن على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار .

ثم غادر السرا قاصداً خوارزم في صحراء مسيرة أربعين يوماً لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وإنما تجر العربات بها الجمال ، وبعد عشرة أيام وصل مدينة سراجوق (١) وهي على شاطئ نهر كبير زخار يقال له ألوصو ، وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد وعند هذه المدينة باع الخيل لعدم فائدتها واكترى الجمال لجر العربات . ثم سار ثلاثين يوماً سيراً جاداً لا ينزل إلا ساعتين أحدهما عند الضحى والآخرى عند المغرب ، وكل إنسان إنما يأكل وينام في عربته حال السير . وكان من عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها ، وتهلك معظم الجمال التي تقطعها وما يبقى منها لا ينتفع به إلا في سنة أخرى بعد أن يسمن . والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان . ثم وصل إلى خوارزم وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة ، وهي تترج بسكانها وتموج بهم موج البحر . ولم ير في الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ولا أكرم نفوساً ولا أحب في الغرباء . وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ويسافر فيه في أيام الصيف بالمرائب إلى ترمدو يجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة

(١) تقع آثار سراجوق أو سراجيك بالقرب من غوربف (Gurber) على مصب نهر اورال .

عشرة للمنحدر ، وبطليخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً إلا ما كان من بطليخ بخارى ويليه بطليخ اصفهان . ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين . وقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن أمير خوارزم وبعض شيوخ الدين فيها ومن لقي فيها من التجار .

ثم غادر خوارزم ودخل البرية التي بينها وبين بخارى . وقد جمل الخيل لمحافظة من البرد وهي مسيرة ثمانية عشر يوماً في رمال لا عمارة فيها إلا بلدة واحدة . ثم وصل بعد أيام إلى مدينة الكات ، وليس بهذا الطريق عمارة سواها وهي صغيرة حسنة . ثم غادرها وسار في تلك الصحراء مسيرة ست أيام دون ماء ، ووصل بعد ذلك إلى بلدة وبكنة وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى ، حسنة ذات أنهار وبساتين ، وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الألو) فيبيسونه ويجلبه الناس إلى الهند والصين . ثم سار في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوماً كاملاً ووصل إلى مدينة بخارى . وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد ، وخربها تنكيز التتري ، فمساجدها ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل ، وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل في خوارزم لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق وقد زار فيها مقبرتها المشهورة ، وقد سُجِّلَتْ على قبور علماء بخارى أسماءهم وأسماء تصانيفهم .

وسافر من بخارى قاصداً معسكر سلطان ما وراء النهر علاء الدين طرمشي ، فمر ببلدة نخشب ثم وصل إلى محلة السلطان وأفاض في الحديث عنه وعن أسلافه وقص تاريخهم بالتفصيل . ولما ودع السلطان طرمشرين سافر إلى مدينة سمرقند وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً مبنية على شاطئ وادي يعرف بوادي القصارين عليه النواير تسمى البساتين . وقد خرب أكثر المدينة ولا سور لها ولا أبواب عليها

وأهلها لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى .
ثم غادر سمرقند واجتاز بلدة NSF ، ثم وصل إلى مدينة ترمذ وهي
مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تخرقها الأنهار والبساتين الكثيرة
وبها العنب والسفرجل ، وتكثر بها اللحوم والالبان . وكانت مدينة ترمذ
القديمة مبنية على شاطئ جيحون ، فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة
على بعد ميلين من النهر .

في خراسان :

وغادر مدينه ترمذ وسار يوماً ونصف يوم في صحراء ورمال
لاعمارة بها فوصل مدينة بلخ وهي خاوية على عروشها غير عامرة .
وكانت فخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن وقد
خربها تنكيز خان . وسافر من مدينة بلخ في جبال قوه إستان (قهستان)
سبعة أيام ، وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والأشجار المورقة
وأكثرها شجر التين . ثم وصل إلى مدينة هراة وهي أكبر المدن العامرة
بخراسان . ومدن خراسان العظيمة أربع ، اثنتان عامرتان وهما هراة
ونيسابور واثنتان خربتان وهما بلخ ومرو . ومدينة هراة كبيرة عظيمة
كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانة . ثم سار من هراة إلى
مدينة شيخ جام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة
وأنهار وأكثر أشجارها التوت ، ويكثر بها الحرير . ثم سافر إلى مدينة
طوس وهي أكبر مدن بلاد خراسان وأعظمها وهي بلد الغزالي . ورحل
منها إلى مدينة سرخس ثم إلى مدينة زاوة . ثم غادرها إلى مدينة
نيسابور وهي إحدى المدن الأربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها

دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياها وحسنها ، وتخترقها أربعة من الأنهار ، وأسواقها حسنة متسعة ويصنع بها ثياب الحرير وتعمل منها إلى الهند ، ثم سافر إلى مدينة بسطام . ثم سافر منها على طريق هندخير إلى قندوس وبغلان وهي قرى بها البساتين والأنهار . وقد أقام في مدينة قندوس أربعين يوماً لرعي الجمال والحيل ، وبها مراعي طيبة وأعشاب كثيرة . وكان من أسباب إقامته خوف الثلج .

الدخول إلى الهند :

وعلى مسيرة يوم كامل جبل يقال له هندكوش ومعناه قاتل الهنود لشدة البرد فيه وكثرة الثلج . وعند دخول الحر سار ابن بطوطة فقطع ذلك الجبل في آخر الليل وسلك به جميع النهار إلى الغروب . وكانوا يضعون اللبود بين أيدي الجمال لئلا تغرق في الثلج . ثم سافر إلى موضع يعرف بأنذر . ثم صعد جبل هندكوش المذكور فوجد عين ماء حارة غسلوا بها ثم نزل بموضع يعرف ببنج هير ومعناه خمسة جبال . وكانت هناك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من بدخشان ، وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش . وقد خرب تنكيز هذه البلاد . ووصل إلى جبل بشاي . ثم سافر إلى بردن ، ثم إلى قرية الجرخ وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة ثم سافر إلى مدينة غزنه وهي شديد البرد . ثم سافر إلى مدينة كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان . ومنها رحل إلى كرماش وهي حصن

بين جبلين تقطع به الأفغان . ثم بات بمنزل ششعار وهي آخر العمارة
بما يلي بلاد الترك . ومن هنا دخل البرية الكبرى وهي مسيرة خمسة
عشر لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر في أرض السند
والهند وذلك في شهر يولييه . وتهب في هذه البرية ربيع السموم القاتلة .
ثم وصل أخيراً مع رفقته إلى بنج آب وهو ماء السند ، ومعناه الأودية
الخمسة وهي قصب في النهر الأعظم وكان وصوله إلى النهر سلخ ذي الحجة
واستهل عليه تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة .

جولاته في بلاد الهند الشرقية الأقصى

في الهند :

وصل ابن بطوطة إلى وادي السند في مفتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . وقد كتب المسؤولون بخبره إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان حين قدومهم بمدينة سيوستان . ولما أجاز نهر السند دخل غيضة قصب لسلوك الطريق فخرج عليهم الكركدن وهو حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة . وسار من نهر السند يومين ووصل إلى مدينة جناني وهي مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة ، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة . وقد إلتقى في هذه المدينة بأحد أولياء الله المسمى بهاء الدين زكريا القرشي والذي سبق للشيخ برهان الدين الأعرج أن أخبره حينما مر بالاسكندرية في رحلته الأولى أنه سيلتقي به . ثم سافر منها ووصل إلى مدينة سيوستان ، وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر ام غيلان ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ ، وطعامهم الذرة والجلبان ومنه يصنعون الخبز ، وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية ، ثم سافر بصحبة الأمير علاء الدين خمسة أيام ووصل إلى موضع ولايته وهو مدينة

لاهرى (١) ، وهي مدينة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند في البحر فيلقتي بها بحران ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم وبذلك عظمت جبايتها وكثرت أموالها . وبعد إقامة خمسة أيام سافر إلى مدينة بكار (٢) وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند . ثم سافر إلى مدينة أوجة وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة . ثم سافر إلى مدينة ملتان وهي قاعدة بلاد السند ومسكن أمير امرائه . وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسروآباد وهو من الأودية الكبار لا يجاز إلا بالمراكب وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم ثم سافر من مدينة ملتان حتى وصل إلى بلاد الهند . وكان أول بلد دخله مدينة أبوهر وهي أول تلك البلاد الهندية ، صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار ، وقد لاحظ أن أشجارها لا تشبه أشجار بلاده سوى شجرة النبق لكنه عندهم عظيم الجرم حبه كحبة العنص وهو شديد الحلاوة . ثم سافر من مدينة أبوهر فوصل إلى مدينة أجودهن وهي مدينة صغيرة وقد شهد فيها لأول مرة حرق الزوجة عند وفاة زوجها . ثم سافر من مدينة أجودهن فوصل بعد مسيرة أربعة أيام إلى مدينة سرستي ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأرز وأرزها طيب ومنها يحمل إلى حضرة دهلي ولها مجبى كثير جداً . ثم سافر منها إلى مدينة حانسي وهي من أحسن المدن وأنقنمها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ، ثم سافر

(١) يقول جب أن آثار مدينة لاهري (لاربند) تقع على الجانب الشمالي لقنال (راهو)

حوالي ٢٨ ميلاً شرقي كراتشي التي حلت عام ١٨٠٠ ، بسبب ضحالة ساحلها (جب ص ٣٦١) .

(٢) بوكور .

منها ووصل بعد يومين إلى مسعود آباد (١) ، وهي على بعد عشرة أميال من حضرة دهلي . ثم رحل من مسعود آباد فنزل بمقربة من قرية تسمى ايلم . وفي غد ذلك اليوم وصل إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند . ومدينة دهلي كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهي أربع مدن متجاورات متصلات ، احداها المسماة بهذا الاسم دهلي وهي القديمة من بناء الكفار والثانية تسمى سيري وتسمى أيضاً دار الخلافة ، والثالثة تسمى باسم تفلق آباد باسم بانها ، والرابعة تسمى جهان وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند وهو الذي بناها . وكان قد رغب أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه . والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير ، عرض حائطه أحد عشر ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ويسمونها الانبارات ومخازن للمعدن ومخازن للمجانيق والرعادات ، ويبقى الزرع بها مدة طويلة لا يتغير ولا تطرقه آفة . ويمشي داخل السور الفرسان والرجالة من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طيقتان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء . وأسفل السور مبني بالحجارة وأعله بالآجر وأبراجه كثيرة متقاربة ، ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً ، وهم يسمون الباب دروازة . وقد أفاض ابن بطوطة في وصف جامع دهلي وصومعته ، وفي الحديث عن أحواض المياه الواقعة خارج المدينة . ثم روى بإسهاب تأريخها الحديث وذكر من تناولها من الملوك .

وتحدث عن الملك محمد شاه تفلق حديثاً مفصلاً للغاية ، ولم يترك جانباً يمس الإدارة أو الحكم أو الاحتفالات أو الأعياد أو شؤون البلاط

(١) يذكر جب أن آثار مسعود آباد تقع حوالي المثل شرقى ناجوفغار Najufgarh ،

وحوالى ٦ ميل الى (الشمال الغربى من محطة پالم پالم palem) جب ص ٢٦٢ .

دون أن يقف عنده وقفة طويلة ، وقد أسهب بشكل خاص في وصف خلق محمد شاه الذي كان ينطوي على متناقضات عظيمة بين لين ورحمة وعدالة متناهيه وطغيان وقسوة وبغي يفوق التصور ، وأطنب اطناباً شديداً في التحدث عن جوده وكرمه . كذلك روى تفاصيل حياته في بلاط الملك محمد شاه وفي مدينة دلهي بالذات . وقد مكث في دلهي حوالي ثمانية أعوام ، واشتغل بالقضاء ، ثم فارقها حينما طلب منه السلطان محمد شاه في شهر شوال من سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة أن يتوجه عنه رسولاً إلى ملك الصين ، الذي كان يمثل آخر سلالة المغول ، وذلك لعلمه حبه للأسفار والجولان . وقد جهزه بما يحتاج إليه وعين للمسفر معه خمسة عشر رجلاً ، وكان سفرهم في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . ونزلوا في أول مرحلة بمنزل تلمبت على مسافة فرسخين وثلاث من دلهي . ثم رحلوا منها إلى مدينة بيان وهي كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق . ثم وصلوا إلى مدينة كول (١) ، وهي مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبة . وقد شهد في هذه المدينة غزوة من قبل الكفار ، وبعد أن غادرها وقع في الأسر . وقص بأسهاب مغامراته أثناء الأسر . حتى استطاع في النهاية النجاة على يد دلشاد (القلب الفارح) وهو أحد أولياء الله . وقد سبق له حينما مر بمصر للمرة الأولى أن أخبره الشيخ أبو عبد الله المرشدي أنه سيتعرض للأسر وأن أخاه (القلب الفارح) سيفك أسره (٢) . ثم واصل سفره إلى برج بوره ثم إلى مدينة قنوج وهي مدينة كبيرة حصينة حسنة العمارة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل إلى دلهي وعليها سور عظيم ، ثم غادر المدينة مع

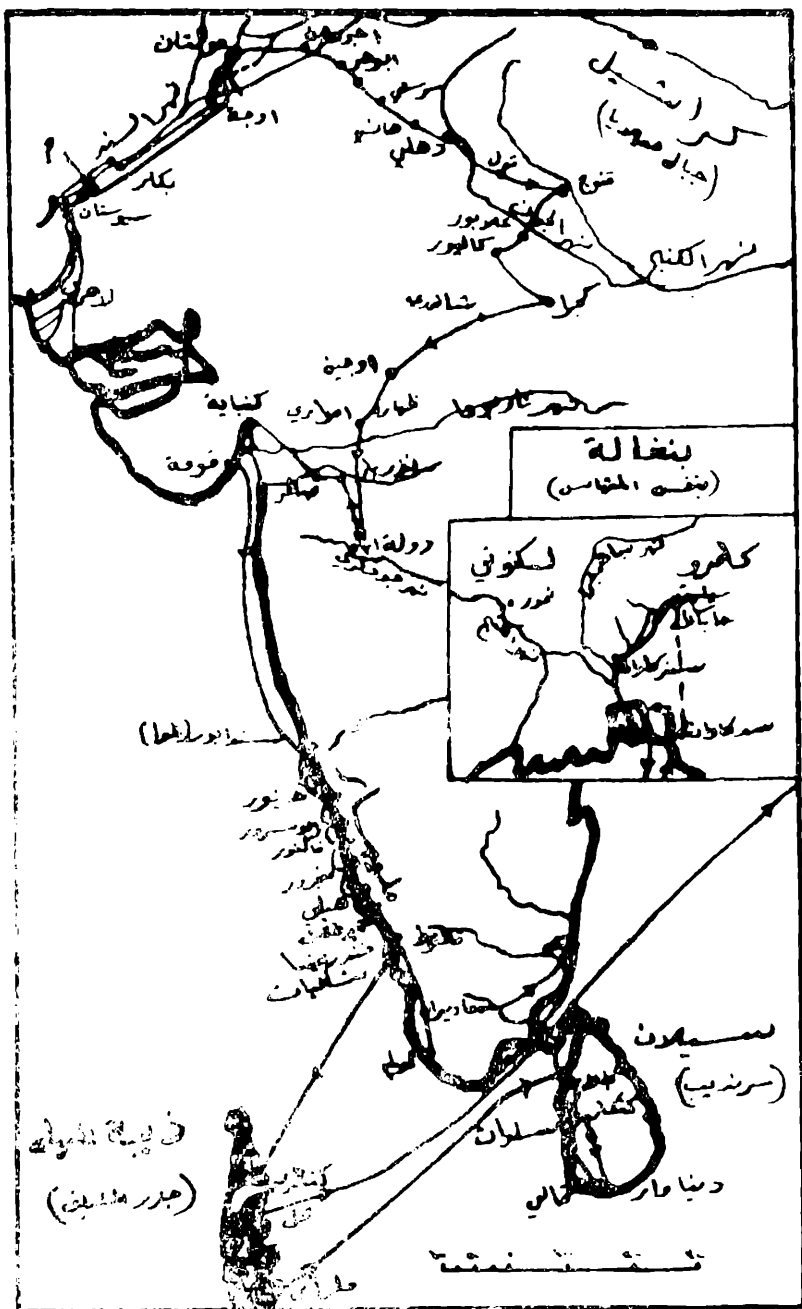
(١) تحتل موضعها في الوقت الحاضر مدينة عليكرة .

(٢) « الرحلة » ص ٩٨ ج ٢ .

جماعته فنزلوا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة . ثم وصلوا الى مدينة موري وهي صغيرة ولها أسواق حسنة . ثم غادروها الى مدينة مرة ، وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار وبها القمح الطيب الذي ليس له مثيل بسواها ومنها يحمل الى دلهي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة وقد ذكر أنه لم ير قمحاً مثله إلا بأرض الصين . وهذه المدينة منسوبة الى قبيلة المأمورة وهي قبيلة من قبائل الهند كبار الاجسام عظام الخلق حسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة ، وكذا نساء المرهنة ونساء جزيرة ذيبة المهل ، ثم سافروا الى مدينة علابور وهي مدينة صغيرة أكثر سكانها من الكفار . ثم سافروا الى مدينة كالبور أو كياالير ، وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع . ثم سافروا الى مدينة بردن وهي مدينة صغيرة للمسلمين وقد تحدث عن السحرة الجوكية فيها ، فذكر أنهم يقومون بالعجائب وأن أحدهم يقيم الاشهر لا يأكل ولا يشرب ، وأن كثيراً منهم تحفر لهم حفر تحت الارض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور . وان منهم من يقتصر في أكله على البقل ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الاكثرون ، والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ، ثم سافر من مدينة بردن الى منزل أموري ثم منزل كجرا (١) . ثم سافر الى مدينة حبذيري وهي مدينة عظيمة لها أسواق حافلة . ثم سافر الى مدينة مدينة ظهار وهي مدينة المالموه أكبر عمار تلك البلاد وزرعها كثير خصوصاً القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول الى دلهي وبينهما

(١) يعتقد جب ان مدينة كجرا هي مدينة خاجوراو Khajuraho التي تقع ٢٧ ميلا شرقي

شهارابورد (٢٥) ميلا شرقي يانه (جب ص ٣٦٣) .



خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في الهند وجنوب شرقي آسيا
(حَقَّقَهَا الْمُسْتَشَرُّ جَب)

أربعة وعشرون يوماً ، وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين . فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه وما بقي له الى المنزل والى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الاعمدة فعرفه . ثم سافر الى مدينة أجين وهي مدينة حسنة كثيرة العمارة . ثم سافر الى مدينة دولة آباد وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية للعاصمة دهل في رفعة شأنها واتساع خطتها ، وبها أسواق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الاسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكبيرة ، كل دكان له باب يفضي الى دار صاحبه ، وللدار باب سوى ذلك ، والمحانوت مزينة بالفرش ، وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بأنواع الحلي وجواربها يحركهن مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس وبين يديه خدامه وبما يليكه وتأتي المغنيات طائفة بعد اخرى فيغنين بين يديه ويرقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف . ثم سافر الى مدينة نذر باد وهي مدينة صغيرة يسكنها المرهنة وهم أهل الاتقان في الصنائع والاطباء والمنجمون . وشرفاء المرهنة هم البراهمة وهم الكثريون أيضاً وأكلهم الارز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويقتسلون للأكل كغسل الجنابة ولا ينكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة أجداد ، ولا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعائب . ثم سافر الى مدينة صاغر وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضاً صاغر كاسمها وعليه النواوير . والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر . ثم سافر الى مدينة كنباية (١) وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب وبه المد والجزر

وهي من أحسن المدن في اتقان البناء وعمارة المساجد ، وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء ، فهم أبدأ يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون في ذلك . ثم سافر إلى مدينة قندهار (١) ، وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر . ثم ركب البحر من قندهار مع الوفد المرسل إلى الصين ، ووصلوا بعد يومين إلى جزيرة بيرم وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال . ثم غادروها ووصلوا في اليوم الثاني إلى مدينة قوكة ، وهي مدينة كبيرة عظيمه الأسواق . ثم غادروها فوصلوا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سندابور (٢) ، وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور وإذا كان الجزر فعاؤها عذب طيب وإذا كان المد فهو ملح أجاج . ثم غادروها إلى مدينة هنور (٣) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفي أيام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للمتصيد .

في بلاد المليبار :

وبعد ثلاثة أيام وصلوا إلى بلاد المليبار وهي بلاد الغلغل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم . والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار . وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر وعند كل بيت منها بئر يشرب منه

(١) لملها ميناء بهانغا Bhaunagas .

(٢) غوا .

(٣) هنغار Honavar .

وهذا الطريق ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة ، ولكل انسان بستان على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها الى البستان الآخر . وهكذا مسيرة شهرين . ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة . وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يستطع أن يركب في دولة مشى على قدميه كائناً من كان . ومن كان له رجل أو متاع من تجارة وسواها اكرت رجالاً يحملونه على ظهورهم ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته . وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفي أعلاها مخطاف حديد ، فاذا أعيأ ولم يجد دكانة يستريح عليها ركز عوده في الأرض وعلق حمله عليه . فاذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به . وقد أثار اعجاب ابن بطوطة الأمن المستتب بهذه البلاد .

وأول المدن التي دخلوها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل . وبعد يومين وصلوا إلى مدينة فاكثور وهي مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد ، ثم وصلوا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجور (١) وهي مدينة كبيرة على خور كبير يسمى خور الدنب وهو أكبر خور ببلاد المليبار . وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن ويكثر بها الفلفل والزنجبيل . ثم سافروا الى مدينة هيلي فوصلوها بعد يومين وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبيرة والى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين لا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقوط . ثم سافروا الى مدينة جرفتن وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ثم سافروا الى مدينة ردهفتن وهي مدينة كبيرة على خور كثير البساتين

وبها النارجيل والفلفل والفول والتنبول وبها القلقاس الكثير . ثم سافروا الى مدينة فندرينا وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق ، وبهذه البلد تستو مراكب الصين . ثم سافر الى قالقوت (١) وهي احدى البنادر العظيمة في بلاد المليبار ويقصدها أهل الجاوة والصين وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها أعظم مراسي الدنيا وقد أقام ابن بطوطة وجماعته في قالقوت نحو ثلاثة أشهر في ضيافة سلطانها ، ينظرون زمان السفر الى الصين . وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين وهي على ثلاثة أصناف فالكبير منها يسمى (جنك) والمتوسط (الزو) والصغير (الككم) . وحينما حان وقت السفر وتحركت المراكب هبت عاصفة حطمت المركب الذي يحمل هدية ملك الصين وقتل من فيه من أعضاء الوفد . وكان ابن بطوطة قد وضع في مركب صغير أخرج جميع متاعه وغلماؤه وجواريه ، وانتظر هو على الساحل ففرّ أصحاب المركب وحملوا معهم كل شيء ، ولم يبق معه سوى عشرة دنائير والبساط الذي يفتشه . وأخبره الناس أن ذلك المركب لا بد له أن يرسو في مدينة كولم ، فعزم على السفر إليها ، وبينها وبين قلقوط مسيرة عشرة في البر أو في النهر . فسافر في النهر ، وفي عادتهم أن ينزلوا بالعشي بالقرى التي على حافتيه ثم يعودوا الى المركب في الغدو . ووصلوا في اليوم الخامس الى مدينة كنجي كري وهي بأعلى جبل يسكنها اليهود وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وفي اليوم العاشر وصلوا إلى مدينة كولم (٢) (٥) وهي أحسن بلاد المليبار وأسواقها

(١) كالكوت .

(٢) كيلون .

(٥) يقول جب انه بالرغم من ان قسماً كبيراً من المسافة بين كالكوت وكولم يمكن أن تقطع -

حسان وتجارها يعرفون بالصوليين ولهم أموال عريضة . وأقام في كولم فلم يستطع أن يعثر للمركب على أثر ، فقرر أن يعود إلى السلطان ليعلمه بما اتفق لهديته . لكنه خشي أن يلومه السلطان فقرر العودة إلى قالقوت وانتظار خبر مركبه . وأقام فترة في قالقوت ، ثم سافر بالبحر من قالقوت وذلك آخر فصل السفر فيه ، فكانوا يسرون نصف النهار الأول ثم يرسون إلى الغد . ووصلوا إلى مدينة هنور . وأقام فيها ما يزيد على أربعة أشهر . وفي أثناء إقامته بهذه المدينة اشترك مع السلطان في غزو سندابور . وأقام في هنور بعد فتحها فترة ، ثم سافر في البحر من هنور إلى فاكنور ثم إلى منجورور ثم إلى هيلي ثم إلى جرفتن ثم إلى رده فتن ثم إلى بدفتن ثم إلى فندرينا ثم إلى قالقوت ثم إلى مدينة الشاليات (١) وهي من أحسن المدن ، وتصنع فيها الثياب المنسوبة إليها . وأقام بها فترة غير قصيرة ثم عاد إلى قالقوت . وقد علم في هذه المدينة أن متاعه وجواريه قد استولت عليها الأيدي وأن أصحابه قد تفرقوا إلى الصين والجاوة وبنجالة . فلما علم بذلك عاد إلى هنور ، ثم غادرها إلى سندابور فوصلها في آخر المحرم ، وأقام بها إلى الثاني من شهر ربيع الأول . وقد حوصرت المدينة أثناء إقامته فيها فغادرها عائداً إلى قالقوت .

في جزر ذبية المهل :

وعزم على السفر إلى ذبية المهل ، وكان يسمع بأخبارها ، وركب

بواسطة الأنهار الداخلية إلا أنه لا يبدو ممكناً أن تقطع المسافة بأجمعها بالطرق المائية . ويبدو أن ابن بطوطة قد أهل - شأنه في الحديث - من رحلته في الصين - ذكر المراحل التي قطعها خلال ذلك بالطرق البرية (جيب ص ٢٦٤) .

(١) وتسمى الآن بيبور Bepore .

البحر ، وبعد مرور عشرة أيام على مغادرته قالقوط وصل الى جزر ذيبه المهمل وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة . ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه ، وإذا وصل المركب الى احداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزر ، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى . فاذا أخطأ المركب سمعها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر أو سيلان . وأهل هذه الجزائر كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة الى أقاليم على كل اقليم وال يسمى الكودوبي . ومن أقاليمها اقليم بالبور ومنها كنلوس ومنها اقليم المهمل وبها تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها . ومنها اقليم تلاديب ومنها اقليم كرايدو واقليم التيم ، ومنها اقليم تلدمتي ، ومنها اقليم هلدمني ، ومنها اقليم برويدو ، ومنها اقليم كندكل ، ومنها اقليم ملوك ، ومنها اقليم السويد وهو اقصاها ، وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا في اقليم السويد ، ففيه زرع يشبه أنثي ويجلب منه الى المهمل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس . ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك . وذكر ابن بطوطة أن سكان هذه الجزر أبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال لضعف بنيتهم وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقدار ، وأكثرهم يقتسلون مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها .

ولقد أقام ابن بطوطة في هذه الجزر حوالي عاماً ونصف ، وتزوج أربع نساء ، مع ان غرضه الأول من المرور بتلك الجزر هو السفر منها الى بلاد المعبر وسرنديب وبنجاله ثم الى الصين ، لكن الوزير ألحَّ

عليه إلحاحاً شديدآ بوجوب تولي القضاء مما اضطره الى قبول ذلك . وقد وصف بالتفصيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والادارية فى تلك الجزر وقد اختلف فيما بعد مع الوزير المذكور فقرر الرحيل ، وأخذ يتنقل بين تلك الجزر من اقليم الى اقليم . وقد وصل الى جزيرة ملوك ، وأقام بها نحو سبعين يوماً وتزوج بها امرأتين وهى من أحسن الجزائر حضرة ونضارة ثم سافر من هذه الجزيرة الى بلاد المعبر (١) .

فى سيلان :

وبعد تسعة أيام من مغادره الجزيرة ملوك لاح لهم جبل سرنديب فى جزيرة سيلان ذاهباً فى السماء كأنه عمود دخان . وقد نزل مدينة بطالة (٢) وهى مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرقة تأتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن . وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة . وبها أيضاً كثير من خشب البقم ومن العود الهندي المعروف بالكلخي . وقد طلب ابن بطوطة من سلطانها أن يسمح له بزيارة قدم آدم فأجابه الى طلبه وأرسل بصحبته جماعة فمروا بمنار مندلي وهى مدينة حسنة ثم بيتلاوات وهى بلدة صغيرة . ثم سافروا منها فى أوعار كثيرة المياه بها القيلة الكثيرة ، ثم وصلوا الى مدينة كنتكار (٣) ، وهى حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد ، وبنائوها فى خندق

(١) المقصود ببلاد المعبر شاطئ كروماندل .

(٢) بطالم Puttalam .

(٣) كورنغال Kurunegala .

بين جبيلين على خور كبير يسمى خور الياقوت . لأن الياقوت يوجد به
وقد ذكر ابن بطوطة ان الياقوت العجيب البهرمان يكون بهذه البلدة
فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنه . ثم
سافروا من كنفكار فنزلوا بجفارة تعرف اسطى محمود اللوري . ثم رحلوا
عنها فنزلوا بخور بوزنه ، وبوزنه هي القروود . والقروود بتلك الجبال
كثيرة جداً وهي سود الألوان لها أذنان طوال ، ولذكورها حتى كما
للآدميين . ثم رحلوا الى خور الخيزران ، ثم الى موضع يعرف ببيت
العجوز وهو آخر العمارة . ثم رحلوا الى مغارة باباطر ، ثم الى مغارة
السيك . وقد شاهد في هذا الموضع العلق الطيار ويسمونه لزلو . ثم
رحلوا الى السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر ، ثم الى مغارة
اسكندر ، ثم الى مغارة الاصفهاني وتوجد عين ماء وقلعة غير عامرة
تحتها خور يعرف بفوطه كاه عارخان ، وهناك مغارة النارنج ومغارة
السلطان وعندما دروازة الجبل أي بابه . وقد ذكر ابن بطوطة أن جبل
سرنديب هو من أعلى جبال الدنيا ، وانهم لما صعوده كانوا يرون السحاب
الى الأسفل ، وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، وكذلك
توجد الأزاهير الملونة والورد الأحمر . وقد أمضى في الجبل ثلاثة أيام
ثم عاد فمر في طريقه بعدة قرى تقح على سفح الجبل حتى وصل الى
مدينة دينور (١) وهي مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار . ثم
سافر الى مدينة قالي (١) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور . ثم
سافر الى مدينه كلنبو (٢) ، وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها .

(١) يعتقد جب ان المقصود بها مدينة دواندرا Dwandra (جب ص ٣٦٥) .

(٢) غاله Calle .

(٣) كولومبو .

ثم وصل بعد ثلاثة أيام الى مدينة بطالة .

في بلاد المعبر ثانية :

وسافر من بطالة قاصداً بلاد المعبر . وقد عصفت الريح بالمركب وكاد يفرق . ثم وصل ابن بطوطة وجماعته الى حصن هركاتو في بلاد المعبر . وقصد ابن بطوطة حملة السلطان ، وقد أفاض في الحديث عنه وعن قسوته الشنيعة تجاه خصومه . وبعد اقامة بضعة أشهر في حملة السلطان سافر الى مدينة فتن ، وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيبة ، وأقام فيها بضعة أشهر . ثم رحل الى مدينة مرة ، وهي مدينة كبيرة متحة الشوارع . وتحدث عن الحصومات التي كانت قائمة بين أقرباء السلطان وكيف قتل بعضهم بعضاً حتى استطاع أحدهم أن يستولي على الحكم . وعاد الى مدينة فتن فوجد ثمانية مراكب برسم السفر الى اليمن ، فاستقبل أحدها . ثم وصل الى كولم فأقام فيها ثلاثة أشهر . ثم استقل المركب قاصداً هنور . ولما وصل الى الجزيرة الصغرى وبين هنور وفاكنور خرج عليه الكفار في اثني عشر مركباً حربياً فقاتلهم قتالاً شديداً وتغلبوا عليهم . وقد سلبوا ابن بطوطة جميع ما ادخره للمشدائد وأخذوا منه الجواهر والياقيات ، بل وأخذوا منه حتى ثيابه ولم يتركوا له سائراً خلا السراويل ، وأنزلوهم بالساحل . فرجع الى قالمقوت . وقد علم هناك ان زوجته التي تركها في ذبية المهل حاملاً قد ولدت له ولداً ذكراً ، فقرر السفر الى هناك . ووصل بعد عشرة أيام الى جزائر ذبية المهل ونزل بكنلوس ثم قصد الى هيللي . وأراد أن يأخذ ولده لكنه رأى أن من الأصلح تركه مع امه ، كما ظهر له أن

تهجيل السفر أولى . فاستقل المركب الذي ظل يبحر أربعين يوماً حتى وصل الى بنجالة .

في بنجالة :

ووجد بنغالة بلاداً واسعة كثيرة الارز ، وهي رخيصة جداً إلا أنها مظلمة . وكانت أول مدينة دخلها في تلك البلاد هي مدينة سدكاوان (١) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم ، ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج إليه الهنود ، ونهر الجون (٢) ويصبان في البحر ، ولهم في النهر مراكب كثيرة وسافر من سدكاوان بقصد جبال كامرو . وبينهما مسيرة شهر ، وهي جبال متسعة متصلة بالصين ، وتتصل أيضاً ببلاد التبت حيث غزلان المسك . وأهل هذا الجبل يشبهون الترك وهم مشهورون بمعاماة السحر والاشتغال به . وقد قصد من سفرته هذه لقاء الشيخ جلال الدين التبريزي صاحب الكرامات الكثيرة . ولما ودع الشيخ جلال الدين سافر الى مدينة حنق وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبل كامر (٣) ويسمى النهر الأزرق (٤) ويسافر

(١) شيتاغونغ Chittagong .

(٢) المقصود به نهر براهو ترا .

(٣) يعتقد جب ان المقصود به (كامر) كلمة khamer وهي الاسم القديم لكمبوديا (جب ص ٣٦٨) .

(٤) لعل المقصود بهذا النهر ميغنا Meghna .

فيه الى بلاد البنجاله وبلاد الكلتوتي (١) وعليه النواعير والبساتين والقرى
يمنة ويسرة . وقد سافر في هذا النهر خمسة عشر يوماً بين القرى
والبساتين فكأنما كان يمشي في سوق من الأسواق ، وفيه من المراكب
مالا يحصى كثرة حتى وصل الى مدينة سنركاوان (٢) .

في جزر الهند الشرقية :

ولما وصل الى سنركاوان وجد بها جنكاً (مركباً) يريد السفر الى
جاوة فاستقبله ، ووصل بعد خمسة عشر يوماً الى بلاد البرهنكار الذين
أفواههم كأفواه الكلاب . وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون الى دين
الهنود ولا الى غيره ، وسكناهم في بيوت مسقفة بحشيش الأرض على
شاطيء البحر ، وعندهم كثير من أشجار الموز والفوفل والتنبول .
ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم
فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع ورجالهم عراة ويستتر نساؤهم بأوراق
الشجر ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة ، وإذا زنى رجل منهم فحد
الرجل أن يصلب حتى يموت كما تقتل المرأة .

وغادر بلاد البرهنكار ، وبعد خمسة وعشرين يوماً في البحر وصل
الى جزيرة الجاوة . وقد شوهدت على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة
وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكبي

(١) يقول جب ان لكتوتي Lakshmanawut هو الاسم القديم لمدينة غور Gawr
وقد كانت عاصمة لحكام بنغالة من المسلمين (جب ص ٢٦٦) .

(٢) يذكر جب ان مدينة سنركاوان تقع حوالي ١٥ ميلا الى الجنوب الشرقي من دكا . وكانت
احدى العواصم الاسلامية للبنغال (جب ص ٢٦٦) .

والبركي والعنبة والنارنج وقصب الكافور ، وبيع أهلها وشراؤهم بقطع
قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ، والكثير من أفاويه الطيب
التي ببلاد الكفار انما هو منها .

ووصل ابن بطوطة الى حضرة السلطان وهي مدينة سمطرة وبينها
وبين الساحل أربعة أميال . وهي مدينة كبيرة حسنة عليها سور خشب
وأبراج خشب . وتحدث عن لقائه بسلطان الجزيرة ، كما تحدث بالتفصيل
عن العادات في بلاطه . وأقام في سومطرة خمسة عشر يوماً ثم استأذن
السلطان في السفر الى الصين فأذن له . فسافر بطول بلاده احدى وعشرين
ليلة ثم وصل الى مل جاوة (١) . وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة
شهرين وبها الأفاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري . ثم وصل
الى مدينة قاقلة وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه
بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . ورأى بخارجها الفيلة عليها الأحمال
وذكر ابن بطوطة أن الفيلة بها كثيرة جداً ، وعليها يركبون ويحملون
وكل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده
يركبه الى داره .

ثم سافر في البحر فوصل بعد أربعة وثلاثين يوماً الى البحر
الكاثل (٢) وهو الراكد وفيه حمزة زعموا انها من تربة ارض تجاوره
ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع الساعة . ولأجل هذا البحر تتبع كل
جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب تجذف به فتجره ، ويكون في الجنك
مع ذلك نحو عشرين مجذافاً كباراً كالصواري يجتمع على المجذاف منها
ثلاثون رجلاً أو نحوها ، ويقومون قياماً صفيين ، كل صف يقابل الآخر

(١) يعتقد يول Yule أن المقصود بهذا الموضع شبه جزيرة الملايو ، وهو الرأي الأرجح .

(٢) امله بحر الصين الجنوبي .

وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطواويس ، فتجذب احدى الطائفتين الجبل
ثم تتركه وتجذب الطائفة الاخرى وهم يغنون .

ثم وصلوا الى طوالسي فعجب البحارة لذلك إذ أن الوصول اليها
قد يقتضي أربعين أو خمسين يوماً . وطوالسي بلاد عريضة ومملكتها هو أيضاً
ملك الصين ، وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها اهل الصين حتى يصلحه على
شيء ، وأهل هذه البلاد عبدة أو ثان حسان الصور أشبه الناس بالترك
في صورهم . والغالب على الوانهم الحمرة ، ونساؤهم يرتكن الخيل ويحسن
الرماية ويقاتلن كالرجال ، وقد رسوا بمدينة كيلوكري وهي من احسن
مدنهم . وقد تحدث ابن بطوطة عن مقابله للملكة طوالسي ووصف بلاطها

في الصين :

ثم سافر من بلاد طوالسي في ربيع مساعدة وسرعة كبيرة فوصل
بعد سبعة عشر يوماً الى الصين . واقليم الصين متسع كثير الخيرات
والفواكه والزروع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم
الأرض ويخترق النهر المعروف بآب حياة ومعنى ذلك نهر الحياة ،
ويسمى ايضاً نهر السبر (السرد) (١) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه
من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزن ومعناه جبل القروذ
ويمر في وسط الصين مسيرة ستة اشهر الى أن ينتهي الى صين الصين ،
وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كثيل مصر إلا ان هذا اكثر
عمارة ، عليه النواوير الكثيرة .

وقد تنقل ابن بطوطة بين مدن الصين . وأول مدينة وصلها هي

(١) المقصود به نهر يانجسي .

مدينة الزيتون (١) وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكفار الأطلسي وتعرف بالنسبة اليها ، ومرساها من اعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها ، وقد رأى فيه نحو مائة جنك كبار ، واما الصغار فلا يحصى لها عدد . ومرساها خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالبحر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره في وسطها كمثل ما عليه بلدة ساجلماشه ، ولهذا عظمت بلادهم . والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة .

وقد رغب ابن بطوطة في زيارة صين الصين (٢) وهم يسمونه صين كلان ، فركب في النهر مركباً يشبه المراكب الفزنويه (الأجفان) إلا ان الجذافين يجذفون فيها قياماً وجميعهم في وسط المراكب ، والركاب في المقدم والمؤخر . وقد سافر في هذا النهر سبعة وعشرين يوماً . وكان كل يوم يرسو بقرية عند الزوال فيشتري ما يحتاج اليه ثم ينزل بالعشي في اخرى حتى وصل الى مدينة صين كلان (٣) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار . وهناك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه بجمع البحرين ، وهي من اكبر المدن واحسنها أسواقاً ، ومن أعظم اسواقها سوق الفخار ، ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة ابواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يعقد عليها الساكنون بها . وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان واهل الزمانات ، ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من اوقاف الكنيسة ، وكذلك فيما بين الابواب كلها .

(١) أموي .

(٢) المقصود بها الصين الجنوبية .

(٣) كانتون .

وفي داخلها المارستان للمرضى ، والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الأطباء والخدام . وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة للمسلمين لهم المسجد الجامع والزاوية والسوق ، ولهم قاضي وشيخ . ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور للمسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم .

وقد ذكر ابن بطوطة أن ليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين ، وبينها وبين سد ياجوج وماجوج ستون يوماً كما ذكر له ويسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم . ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها . لكنه عقب قائلاً بأنه لم ير تلك البلاد من رأى السد المذكور ، ولا من رأى من رآه .

وفي مدينة صين كلان جاء أمر القان بوصوله الى حضرته (عاصمته) فاختار السفر عن طريق النهر . وكان يتغدى بقرية ويتعشى باخرى ووصل بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو (١) ، وهي مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيج والبساتين محدة بها فكأنها غوطة دمشق ، ولها أربعة أسوار ، يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمتارها ، ويسمون الباصوانات (الباسوانات) ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والأمير الحاكم على البلدة ، ويسكن داخل الثالث المسلمون ، ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهي أعظم المدن الأربعة ، ومقدار ما بين كل باب منها وما يليه ثلاثة أميال

(١) يقول جب ان تقرير حقيقة مدينة قنجنفو Qan - jan - fu ما يزال غير أكيد . لكن هناك ادلة قوية تحمل على الاعتقاد بأن المقصود بهذه المدينة فوجاو Fuchow . غير أن هناك آراء عديدة حول هذه المدينة . (جب ص ٢٧١) .

وأربعة . ولكل انسان بستانه وداره وأرضه ، وقد أقام فيها خمسة عشر يوماً ثم غادرها . وبعد أربعة أيام وصل الى مدينة بيوم قتلوا (١) وهي مدينة صغيرة يسكنها الصينيون في جند وسوقة وليس بها للمسلمين إلا أربعة من أهل الدور . ثم غادرها وركب النهر يتغدى بقرية ويتعشى بقرية حتى وصل بعد سبعة عشر يوماً الى مدينة الخنساء (٢) وذكر أن هذه المدينة هي أكبر مدينة رآها على وجه الأرض ، طولها مسيرة ثلاثة أيام ، يرحل المسافر فيها . وكل واحد له بستانه وداره . وهي منقسمة الى ست مدن على كل مدينة سور ، وعقد بالجميع سور واق ، فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة البالغون اثني عشر ألفاً وكذلك أميرهم والثانية يسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثيرون والثالثة يسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الاسلام ، وبها المساجد والمؤذنون ، والرابعة هي دار الامارة وهي مخصصة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة ، أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام واجمار الوقود ، وفيه السفن للنزهة ، والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جداً ، ودار الامارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات ، وفيه سقائق فيها الصنائع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . والمدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحدائق بالصنائع وبها

(١) لم يستطع الباحثون ان يقرروا حقيقة هذه المدينة أو ان يهتموا الى موضعها .

(جب ص ٣٧١ - ١٧٢) .

(٢) هانغ شاو .

تصنع الثياب الخنساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست وهي من القصب . والمدينة السادسة يسكنها البحرية والصيدون والجلاظة والنجارون والأصباوية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير . وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم .

ثم غادر ابن بطوطة مدينة الخنسا وهي آخر أعمال الصين ودخل الى بلاد الخطا (١) وهي احسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور ، فانه ان بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانيين هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوماً . وليس بها احد من المسلمين . وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبساتين فيها الزرع والفواكه والسكر . وقد ذكر انه لم ير في الدنيا مثلاً غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار الى عانة . وكان ينزل كل ليلة بالقرى حتى وصل الى مدينة خان بالق وتسمى أيضاً خانفو (٢) وهي حضرة القان والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا ، وهي من اعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبية ، وقصيرة في وسط المدينة المختصة بسكناء واكثر عمارته بالخشب المنقوس وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب . وقد وصف ابن بطوطة بالتفصيل القصر الملكي ثم تحدث عن

(١) المقصود ببلاد الخطا الصين الحالية .

(٢) بكين .

مقتل الخان إثر حرب بيته وبين عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرام . وقد ذكر أن فيروز استولى على الملك بعد مقتل القان واختار أن يكون حضرته فراقرام . لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر . فخالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن ، فقرر ابن بطوطة مغادرة البلاد .



رحلة العودة الى الوطن

غادر ابن بطوطة مدينة خان بالق منحدرأ في النهر ، فمر بالحنأ ثم بقنجنفو ثم بالزيتون . ولما وصل الزيتون وجد الجنوك على أهبة السفر الى الهند ، فاستقل أحدها . وصادفتهم الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربوا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر . وأقاموا كذلك عشرة أيام لا يرون الشمس . ثم دخلوا بحراً لا يعرفونه ، وحاول أهل الجنك العودة الى الصين فلم يتمكنوا من ذلك . وأقاموا كذلك اثنين وأربعين يوماً لا يعرفون في أي البحار هم . وفي اليوم الثالث والأربعين ظهر لهم جبل في البحر بعد الفجر وحينما اقتربوا منه اختفى فقال البحارة انه طير الرخ . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلوا الى الجاوة ونزلوا بمدينة سومطرة واقام ابن بطوطة بهذه الجزر شهرين في ضيافة السلطان الملك الظاهر ، ووصف أعراس ولده هناك . ثم غادرها فوصل بعد أربعين يوماً الى كولم . ثم سافر من كولم الى قالقوط وأقام بها أياماً . وأراد العودة الى دهلي لكنه خاف من ذلك . ثم ركب البحر فوصل بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ثم ركب البحر فوصل الى مسقط وهي بلدة صغيرة . بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس . ثم سافر الى مرسى القريات ، ثم الى مرسى شبة ، ثم الى مرسى كلبة من بلاد عمان . ثم سافر الى هرمز وأقام بها

ثلاثاً . وسافر منها في البر الى كورستان ثم الى اللار ثم الى خنج بال
ثم الى كارزي وأقام بها ثلاثاً . ثم سافر الى جمكنان ، ثم الى ميمن
ثم الى شيراز ، ثم سافر الى ماين ، ثم الى يزدخاص ، ثم الى كليل
ثم الى كشك زر ثم الى اصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزاء ثم الى
البصرة . ثم سافر الى النجف ، ثم الى الكوفة ، ثم الى الحلة ، ثم
الى صرصر ، ثم الى بغداد حيث وصلها في شوال سنة ثمان وأربعين
ثم غادر بغداد فمر بالأنبار (١) ثم بهيت ثم بحديشة ، ثم بعانة ، وهذه
البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثيرة العمارة
كان الماشي بها في سوق من الاسواق . ثم وصل الى مدينة الرحبة وهي
آخر بلاد العراق وأول بلاد الشام . ثم سافر الى بلدة السخنة وهي
حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى ، وانما سميت السخنة لحرارة
مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون بها . ثم سافر الى
مدينة تدمر ، ثم الى مدينة الشام . وكانت مدة مغيبه عنها عشرين
سنة كاملة ، وقد ترك بها زوجته حاملاً . وقد سأل عن ولده فعلم انه
توفي منذ اثني عشر سنة ، وعلم أيضاً أن والده توفي منذ خمسة عشر
سنة . لكن أمه ما تزال على قيد الحياة . وأقام في دمشق بقية العام
وكان الغلاء فيها على أشده . ثم سافر من دمشق الى حمص ، ثم الى
حماء ثم الى المزة ثم الى سرمين ثم الى حلب . وفي أوائل شهر ربيع
الأول عام ٣٤٩ بلغه الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزة ، وأن عدد
الموتى قد زاد على ألف في اليوم فسافر الى حمص فوجد الوباء قد وقع
فيها ، ومات يوم دخوله لها نحو ثلاثمائة انسان . فسافر الى دمشق وكان

(١) كانت الأنبار إحدى المدن الرئيسية على رأس قناة عيسى التي كانت تربط الفرات بدجلة .

الوباء قد اجتاحتها فبلغ عدد الموتى ألفين وأربعمائة في اليوم . ثم سافر
 الى عجلون ثم الى بيت المقدس فوجد الوباء قد ارتفع عنهم . ومرّ
 بالخليل ، ثم بارحها إلى غزة فوجد معظمها خالياً لكثرة من مات منهم
 بالوباء . ثم سافر بالبر فوصل الى دمياط . ثم غادرها ومر بفارسكور
 وسمنود وأبي صير . ثم سافر الى المحلة الكبيرة ، ثم الى النحرارية
 ثم الى أسيوط ثم الى دمنهور ثم الى الاسكندرية فوجد الوباء قد خف
 بها بعد أن بلغ عدد الموتى ألف وثمانين في اليوم . ثم سافر الى القاهرة
 وبلغه أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى الى واحد وعشرين ألفاً في اليوم
 ثم سافر الى بلاد الصعيد فوصل الى عيذاب . ثم غادرها عن طريق
 البحر فوصل الى جدة . ثم سافر الى مكة فوصلها في الثاني والعشرين
 لشعبان سنة تسع وأربعين . ثم سافر الى المدينة ، ثم الى العلا وتبوك
 ثم الى بيت المقدس ، ثم الى الخليل ، ثم الى غزة ، ثم الى منازل
 الرمل ، ثم الى القاهرة . وهناك هزه الشوق الى الوطن فركب البحر
 في قرقورة صغيرة لبعض التونسيين وذلك في صفر سنة خمسين ، وسار
 حتى نزل بجربة . ثم سافر المركب المذكور الى تونس فاستولى العدو
 عليه . ثم سافر بمركب صغير إلى قابس ثم توجه بالبحر إلى بليانة
 ومنها سار في البر مع العرب فوصل بعد مشقات الى تونس ، وكان العرب
 يحاصرونها . وأقام فيها ست وثلاثين يوماً . ثم سافر من تونس في البحر
 مع القطلانيين فوصل الى جزيرة سردينية من جزر الروم . ولها مرسى
 عجيب عليها خشب كبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا
 باذن منهم ، وفيها حصون فيها أسواق كثيرة . ثم رحل عنها فوصل
 بعد عشرة أيام الى مدينة كس . ثم غادرها الى مازونة . ثم الى
 مستغانم ، ثم الى تلمسان ، ثم وصل الى مدينة تازي ، وبها تعرف

خير موت والدته بالوباء . ثم غادر تازي فوصل يوم الجمعة في أواخر
شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس ، حيث
مثل بين يدي السلطان أبي عنان . ثم سافر الى بلدة طنجة لزيارة قبر
الوالدة ثم توجه الى مدينة سبتة فأقام بها شهوراً لمرض ألمّ به ثم
تعافى منه .



الرحلة الأندلسية

أراد ابن بطوطة أثناء اقامته بمدينة سبته أن يكون له حظ من الجهاد والرباط ، فركب البحر من سبته فوصل الى بلاد الاندلس . وأول بلد شاهده من البلاد الاندلسية جبل الفتح (١) ثم خرج منه الى مدينة أندة وهي أمنع معاقل المسلمين واجملها وضعاً . ثم سافر منها الى مدينة مربلة ، والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة . ومربلة بلدة حسنة خصبة . ثم سافر الى مدينة مالقة إحدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه كالعنب والرمان الذي لا مثيل له في الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن احوازها الى بلاد المشرق والمغرب . وبمالقه يصنع الفخار المذهب ويجلب منها الى اقاصي البلاد ، ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له في الحسن ، فيه اشجار النارنج البعيدة ثم سافر منها الى مدينة بلش وبينهما اربعة وعشرين ميلاً ، وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الاعناب والفواكه والتين . ثم سافر الى الحمة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين

(١) المقصود بجبل الفتح جبل طارق .

الحارة . ثم سافر منها الى غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والريضان والقصور ، والكروم محدقة بها من كل جهة . وفي عجيب مواصفها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين لامثيل له سواها .

ثم رحل من غرناطة الى الحمّة ، ثم الى مالقة ، ثم الى حصن بلش ، ثم الى ذكوان ، وهو حصن حسن كثيرة المياه والاشجار والفواكه ثم سافر منه الى رفدة ثم الى قرية بني رياح ، ثم الى جبل الفتح . ثم سافر منها الى أصيلا فأقام بها شهوراً . ثم سافر منها فوصل الى مدينة مراکش وهي من أجمل المدن فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة وبها الصومعة الهائلة العجيبة . وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة . وقد استولى الخراب على معظم احياء المدينة . ثم سافر من مراکش بصحبة ركاب السلطان الى مدينه سلا ، ثم الى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها فوصل الى حضرة فاس .

* الرحلة الإفريقية

ودع ابن بطوطة في مدينة فاس السلطان أبي عنان وتوجه برسم السفر الى بلاد السودان ، فوصل الى مدينة سجلماسة (١) ، وهي من احسن المدن ، وبها التمر الكثير الطيب ، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ، لكن تمر سجلماسة أطيب ايراداً منه ولا نظير له في البلاد . ومنها اشترى الجمال وعلفها لأربعة اشهر . ثم سافر في غرة شهر محرم سنة ثلاث وخمسين فوصل بعد خمسة وعشرين الى تغازي (٢) وهي قرية لا خير فيها . ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وصقفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة . وتزودوا من تغازي بالماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لأماء فيها . وتكثر الكمأة بتلك الصحراء ، كما يكثر القمل بها حتى يجعل الناس في اعناقهم خيوطاً فيها الزئبق فيقتلها .

(١) امتدنا على جب في تحديد مواضع المدن الافريقية .

(١) تقع آثارها على وادي زير على بعد (٥) أميال من مدينة تغلبت .

(٢) تقع تغازي الى الشمال الغربي من تودني .

وكان ابن بطوطة وجماعة في تلك الأيام يتقدمون امام القافلة فاذا وجدوا مكاناً يصلح للرعي رعت القافلة دوابها . ثم وصلوا تاسرهملا وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون سقيتهم ويملؤونها بالماء ويخطون عليها التلايس خوف الريح . ومن هناك يبعث التكشيف . والتكشيف اسم رجل من مسوفة يكتريه اهل القافلة فيتقدم الى ايولاتن يكتب الناس الى اصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للمقائهم بالماء . وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم اهل ايولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منها . وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح فيها الصدر وتطيب النفس ، وهي آمنة من السراق ، وتكثر البقر الوحشية فيها ، كما تكثر فيها أيضاً الحيات . ثم وصلوا الى مدينة ايولاتن (١) في غرة شهر ربيع الأول بعد شهرين كاملين من سجلماسة ، وهي أول عمالة السودان ، وأهلها يحترفون البيض . وبلدة ايولاتن شديدة الحر . وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ، وثياب أهلها حسان مصرية . واكثر السكان بها مسوفة ، ولنسائها الجمال الفائق ومن اعظم شأناً من الرجال . وأقام ابن بطوطة في ايولاتن نحو خمسين يوماً . وبعد مسيرة عشرة أيام من ايولاتن وصلوا الى قرية زاغري (٢) وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون دنجراته ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضيه من الخوارج ويسمون صفنفو ، والسنيون المالكيون من

(١) ان ايولاتن هي جمع والاتا . وتظهر الخرائط الحديثة موضعين باسم والاته . ويبدو أن ايولاتن التي ذكرها ابن بطوطة هي الموضع الجنوبي الواقع على خط عرض ٢ ر ١٧ شمالاً و ٤٤ ر ٤ غرباً .

(٢) من المعتقد أن قرية ديوارا تحمل محل زاغري في الوقت الحاضر .

البيض يسمون عندهم توري . ومن هذه القرية يجلب أنلي الى ايوا لاتن ثم ساروا من زاغري فوصلوا الى النهر الأعظم وهو النيل (١) وعليه بلدة كارسخو (٢) . والنيل ينحدر منها الى كبرة ثم الى زاغة . ثم ينحدر النيل من زاغة (٣) الى تنبكتو ثم الى كوكو (٤) ثم الى بلدة مولي (٥) من بلاد الليمين وهي آخر عمالة مالي ، ثم الى يوفي (٦) وهي من أكبر بلاد السودان ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه ، ثم ينحدر الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ، ثم الى دنقلة وهي أكبر بلادهم . ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر . وقد رأى التمساح لأول مرة في النهر في بلدة كارسخو . ثم سافر من كارسخو فوصل الى نهر صنصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالي ، وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا باذن . وقد أقام في مالي (٧) بضعة أشهر وتحدث عن سلطانها منس سليمان وعن

(١) المقصود به نهر النيجر .

(٢) لقد اعتبر المستشرق ديلافوس Delefosse مدينة كارسخو مقابلة لكلمة كارا - ساخو kara - sekho أي سوق كارا . ويقابل موضعها في الوقت الحاضر بلدة كونجوكورو kongokuru على الضفة اليسرى من نهر النيجر شمالي كارا .

(٣) يطلق مل زاغة في الحقيقة اسم جاكا Jaka أو جاغا Jaga (Piaga) وتقع على مسيرة نصف يوم شمالي جافارابا Jafaraba على الرافد الشمالي الغربي لنهر النيجر .

(٤) ان كوكو أو جوجو هي إما أن تكون كوكا koka على بحيرة فيتري Fitri الى الجنوب الشرقي من كانم أو أن تكون بلدة كوكا في بورونو (جب ص ٣٨٣) .

(٥) ان بلدة مولي هي المنطقة المسماة موري Muri على الضفة اليسرى لنهر النيجر حوالي نيامي

(٦) ان يوفي هي مدينة نيوب Nupe التي تقع على الضفة اليسرى من نهر النيجر بين بلدي جبا ولاكوجا .

(٧) هناك عدة آراء حول حقيقة مدينة مالي . ويبدو أن الأبحاث الحديثة قد أثبتت هي مدينة

بلاطه ونظامه الادارى ، كما تحدث باسهاب عن الاحوال الاجتماعية في
 مملكة مالي . وكان دخوله الى مالي في الرابع عشر لجمادي الاولى سنة
 ثلاث وخمسين . وكانت له جمل يركبها لان الخيل غالية الاثمان يساوي
 أحدها مائة مثقال . ووصل الى خليج كبير يخرج من النيل ولا يجاز
 إلا في المراكب . وذلك الموضع كثير البعوض . فلا يمر أحد به إلا
 في الليل . وقد شاهد في ذلك الخليج لأول مرة فرس البحر ، ووصف
 طريقة صيده من قبل السكان ، ونزل عند هذا الخليج بقرية كبيرة . ثم
 غادر تلك القرية فوصل الى بلدة قرى منسا (١) . ثم غادرها الى بلدة
 ميمة . ثم سافر منها الى مدينة تنبكتو ، وبينها وبين النيل أربعة أميال
 وأكثر أهلها مسوفة أهل اللثام ومن تنبكتو ركب النيل في مركب صغير
 منحوت من خشبة واحدة . وكان ينزل كل ليلة بالقرى ، فيشتري
 ما يحتاج من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبجلى الزجاج . ثم
 وصل الى بلدة نسي اسمها . ثم سار من تلك البلدة الى مدينة كوكو (٢)
 وهي مدينة على النيل من أحسن مدن السودان وأكثرها وأخصبها ، فيها
 الارز الكثير واللبن والدجاج والسمن ، وتعامل أهلها في البيع والشراء
 بالودع ، وكذلك حال أهل مالي . وقد أقام فيها شهراً ثم سافر منها

نياني Niyani وانها كانت تقع قرب قرية نياني الحالية على الضفة اليسرى لنهر سانكاراني

Sankarani الى الشمال من بالاندوغر Balandugu والى الجنوب من جليبا Jeliba .

(١) من المتقد ان قرى منسا تقع بالقرب من قريتي كوكري kokri وماسامانا
 Massamana الى الشمال الشرقي من سانساندينغ sansanding وهي ليست بعيدة من بلدة
 كارسخر التي توقف عندها ابن بطوطة .

(٢) لعل مدينة كوكو تحريفاً من الاسم الأصلي كوغا kugha ، وكانت هذه البلدة مركزاً
 تجارياً هاماً لطريق التجاري القاري بالإضافة الى الطريق القادم من الشمال الشرقي والآتي من
 الغرب والذي يجرى عبر الصحراء الكبرى وهو طريق الملح .

برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للقداميين . ثم وصلت القافلة الى بلاد بردامة ، وهي قبيلة في البربر ، ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم والمرأة عندهم أعظم شأنًا من الرجل ، وهم رحالة لا يقيمون . ويوتنهم غريبة الشكل ، ويطعمون أعواداً من الخشب ويصنعون عليها الحصر ، وفوق ذلك أعواد متشبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن . ونساؤهم أتم النساء جمالاً وأبدعهم صوراً ، مع البياض الناصع والسمرة ، وطعامهن حليب البقر وجرش الذرة يشربنه مخلوطاً بالماء غير مطبوخ عند الصباح والمساء . ومن أراد الزواج فيهن سكن بهن في اقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايوالاين . وقد مرض ابن بطوطة في هذه الجهات بسبب اشتداد الحرب . ثم غادرها مع الركب فوصلوا الى مدينة تكدا (١) ، وديارها مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك . ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ، وهي كثيرة العقارب ، ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال ، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالي وايوالاين . ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون إلى البلد فيسبكونه في درهم ، وبفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فاذا سبكوه نحاساً أصفر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ . وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والخطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن

(١) كانت مدينة تكدا في ذلك الوقت أضخم مدينة في بلاد الطوارق أو هي تقع الى الجنوب

من أغادس .

والقمح . ويحملون السمن منها إلى مدينة كوبر (١) من بلاد الكفارة وإلى زغاري وإلى بلاد برنو (٢) ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا ، ومن تلك البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسدة ويحمل النحاس منها أيضاً إلى جوجرة وبلاد الموريتيين وسواها .

وقرر ابن بطوطة السفر من تكدا إلى توات فأعدوا زاد سبعين ليلة ، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات انهما يوجد اللحم واللبن والسمن يشتري بالأنثواب . وخرج من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة في رفقة كبيرة فوصلوا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركري ، وهي أرض كثيرة الأعشاب ، يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحملها أهل توات إلى بلادهم . ثم دخلوا منها إلى بركة لا عمارة فيها إلا أن بها الماء ، ثم وصلوا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخر إلى ديار مصر وطريق توات . وهناك احساء ماء يجري على الحديد ، فإذا غسل به الثوب الأبيض أسود لونه .

وساروا من هنالك عشرة أيام فوصلوا إلى بلاد هكار (٣) ، وهم طائفة من البربر ملثمون . وكان وصولهم في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه ولا يعتضون القوافل . وإذا وجد سراقها المتاع في الطريق في رمضان لم يعرضوا له ، وكذلك حال جميع من بهذه الطريق من البربر . وساروا في بلاد هكار شهراً ، وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعرة . ووصلوا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابرة أهل لثام كهؤلاء . ثم وصلوا

(١) يقصد بمدينة كوبر بلدة Cobir وهي تقع إلى الشمال من سوكوتو Sokoto .

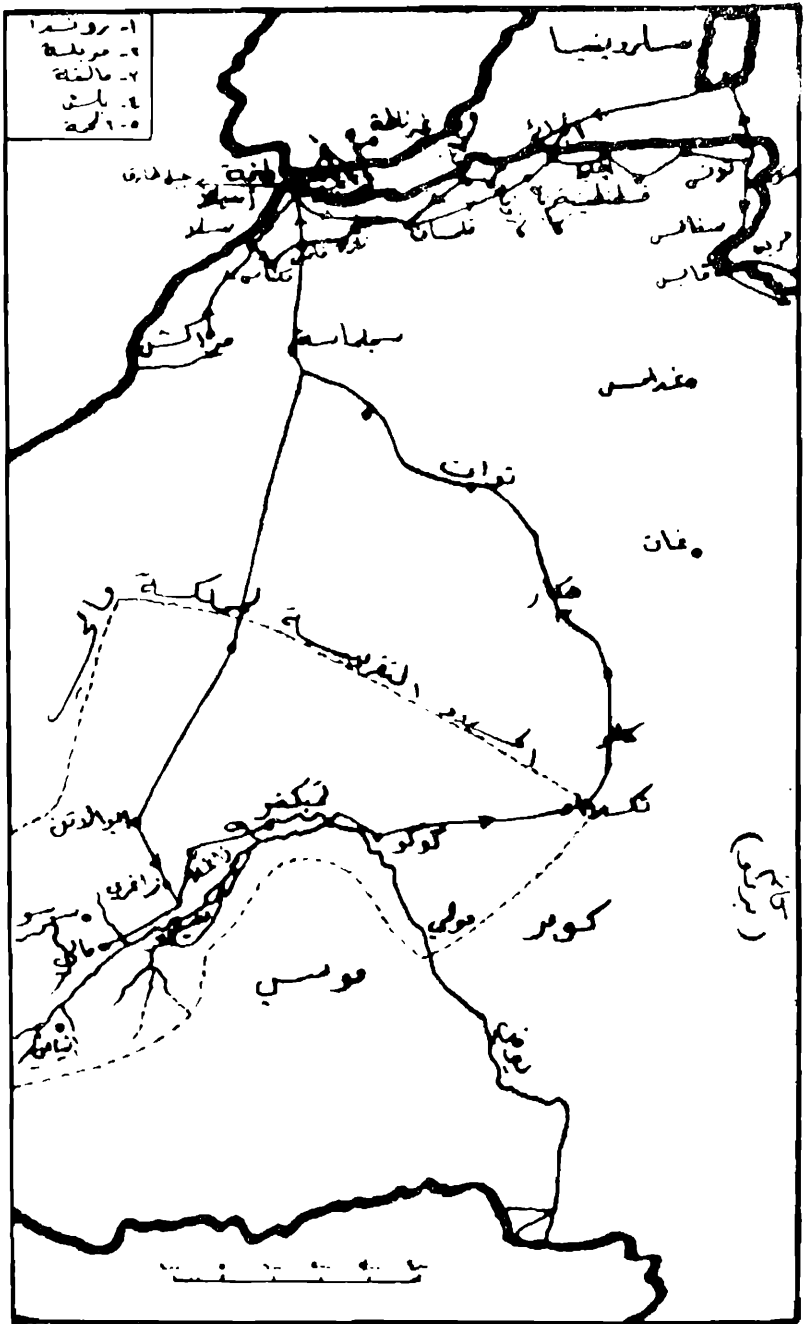
(٢) يقصد ببلدة برنو مدينة كانم kaneM وليست مدينة بورنو Burnu في نيجيريا .

(٣) إن هكار هي قبيلة الطوارة التي تقطن الهضبة الوسطى من الصحراء العربية الكبرى وجبال

الأطلس القديمة التي تسمى في الوقت الحاضر أهجار .

بعد ذلك الى بواد وهي من أكبر قرى توات ، وأرضها رمال وسبخ
وثمرها كثير ليس بطيب ، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت ، وإنما
يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير
عندهم يختزنونه كما يختزنون التمر ويقاثلون به ويخرجون الى صيده قبل
طلوع الشمس لأنه لا يطير بسبب البرد . وأقاموا بها أياماً ثم رحلوا
الى سجلماسة ووصلوها في أواسط ذي القعدة . ثم غادرها ابن بطوطة
في أوائل ذي الحجة ، وكان أوان البرد الشديد ، ونزل بالطريق ثلج .
ويقول ابن بطوطة أنه رأى الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى
وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك فلم ير أصعب من طريق أم جنيبة .
ووصل ليلة عيد الأضحى الى دار الطمع فأقام فيها يوماً ثم غادرها فوصل
الى فاس . واستقر بشكل نهائي في كنف السلطان أبي عنان .





خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في شمال وغربي افريقيا
(حققها المستشرق جب)

الباب الثاني

رحلة ابن بطوطة

الكتابة والمرحلة

تبين لنا في الفصول السابقة أن ابن بطوطة كان يمثل الرحالة المثالي الذي يضرب في انحاء الارض ليشبع فيه غريزة حب الاستطلاع وليشاهد اكبر عدد ممكن من البلدان والشعوب ، وانه لم يكن يهدف الى غرض علمي أو تجاري . ولما عاد الى وطنه واتصل ببلاد السلطان أبي عنان راح يروي للملأ حكاياته ومشاهداته . فاستهوت تلك الحكايات السلطان أبي عنان ونفذت إشارته الكريمة في تدوين ما شاهده من أمصار وما علق بحفظه في نوادر أخبار الملوك والعلماء والأولياء . ويبدو ان ابن بطوطة لم يكن ينوي كتابة مشاهداته ، ولولا أوامر السلطان ما فكر في ذلك ، فهو إذن يختلف عن الرحالة الآخرين الذين عزموا منذ البداية على تدوين مشاهداتهم كابن جبير وابن سعيد والبغدادى وغيرهم . وقد اعتذر بلباقة غير مرة عما قد يبدو من ثغرات في « رحلته » فأشار الى ضياع أوراقه حينما سلبه كفار الهنود في البحر (١) مما اضطره الى الاعتماد كلياً على على ذاكرته . ويكاد يتفق جميع من كتبوا عنه أنه قد أملى « رحلته » من الذاكرة (٢) ، وأن ابن جزى قد تولى تنقيحها بأمر من السلطان نفسه (٣) . وسنحاول في هذا الفصل أن نمتحن صدق ادعاء ابن بطوطة في اعتماده المطلق على ذاكرته ، وسنرى اذا كان قد اعتمد على مراجع أخرى بالإضافة الى ذاكرته .

ولابد لنا أن نبدأ بتمحيص ذاكرة ابن بطوطة . لقد ذكر جب Gibb أن ذاكرة ابن بطوطة ، (قد دربت بشكل ممتاز حسب النظام

(١) « الرحلة » ص ٢٣٨ ج ١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٨ ج ١ .

(٣) راجع « جب » ص ٤ و ١٢ و كراتشكوفسكي ص ٤٢٨ .

المألف للتعليم الديني حيث ينبغي أن يستظهر عدداً كبيراً من الكتب (١) .
واكد كراتشكوفسكي أن ابن بطوطة (كان يتمتع بذاكرة ممتازة شأنه
في هذا شأن جميع ممثلي الثقافة العربية لذلك العهد (٢)) :

وهكذا ربط جب وكراتشكوفسكي ذاكرة ابن بطوطة بالنظام التعليمي
الذي كان سائداً في ذلك العهد ، وهو نظام يعتمد على استظهار النصوص .
لكننا نجد من الصعب الاقتناع بأن ذلك النظام ونلك الذاكرة كفيلان
بجعل ابن بطوطة قادراً على الاحتفاظ بهذا التسلسل المذهل الذي ورد
في « رحلته » لاسماء المواضع والملوك والسلطين والشيوخ والاولياء
والأرقام والمسافات والتواريخ ، فضلاً عن الحوادث العرضيه بدقائقها
وتفاصيلها الكاملة . ولقد اشتملت « رحلته » التي تجاوزت الخمسمائة
صفحة من القطع الكبير على معدل لا يقل عن عشرة اسماء في كل صفحة
للمواضع والاشخاص ، وأغلبها اعجمية وغريبة عليه كالاسماء الهندية
والتركية والصينية وحتى الفارسية . وما يزيد في صعوبة تذكرها عنصر
الزمن الذي يتفاوت بين ربع قرن وبضعة سنوات . وسندرج في الصفحات
التالية نماذج توضح نوع التفصيلات والاسماء التي يزعم أنها علقت
بذاكرته . قال يتحدث عن دراسته في دمشق :

(سمعت بجامع بني امية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام
أبي عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر
رحلة الأفاق ملحق الأصاغر بالاكابر شهاب الدين احمد بن أبي طالب
بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين مقري الصالح المعروف
بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء ، منتصف

(١) « جب » ص ١٢ .

(٢) كراتشكوفسكي ص ٤٢٨ .

شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وآخرها يوم الاثنين
 الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي
 محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الأصل الدمشقي في
 جماعة كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طغرل بك بن عبدالله بن الغزال
 الصيرفي سماع الشيخ أبي العباس الحجازي بجميع الكتاب من الشيخ
 الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد
 ابن يحيى بن علي بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي
 في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري
 بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ، وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين
 أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي
 المؤرخ . وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن رؤبة القلانسي العطار
 البغدادي ومن باب غير النساء ووجدته الى آخر الكتاب من أبي المنجا
 عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللقي الخزاعي البغدادي بسماع
 أربعتهم من الشيخ شديد الدين أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن
 شعيب بن ابراهيم السزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين
 وخمسمائة ببغداد . قال أخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد
 الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن
 الحكم الداودي قراءة عليه وأنا اسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة
 قال : أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن حويه بن يوسف بن
 أيمن السرخسي قراءة عليه وأنا اسمع في صفر سنة احدى وثمانين
 وثلاثمائة قال أخبرنا عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر
 ابن ابراهيم العزيري قراءة عليه وأنا اسمع سنة ستة عشر وثلاثمائة
 بغرير قال أخبرنا الامام أبو عبد الله بن محمد بن اسماعيل البخاري

رضي الله عنه سنة ستة وثمانين وأربعين ومائتين بفرير ومرة ثانية وبعدها سنة ثلاث وخمسين . ومن أجازني من أهل دمشق إجازة الشيخ أبو عبد الله الحجازي المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لي به . ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي . ومنهم إمام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزني الكبي حافظ الحفاظ ، ومنهم الامام علاء الدين علي بن يوسف ابن محمد بن عبد الله الشافعي . والشيخ الامام الشريف محيي الدين بن يحيى بن علي العلوي . ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم ابن عبد الله أبي عبد الله المعلى الدمشقي ، ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة ، ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم ابن فلاح بن محمد الاسكندري . ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن عامر . والشيخان الأخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي . والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري . والشيخة الصالحة ام محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الجراني والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين احمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي . كل هؤلاء أجازوني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق (١) .

وقال يتحدث عن لقيهم من الناس في مدينة القرم :
(ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائل قاضي)

الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفقير المدرس علاء الدين الأمسي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة . والشيخ الحكيم الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين (١) .

وقال يتحدث عن اجتماع بهم من الغرباء الوافدين على ملك الهند في مدينة ملتان : (فمنهم خدائون زادة قوائم الدين قاضي ترمذ قدم بأهله وواده . ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين . ومنهم مبارك شاه احد كبار سمرقند . ومنهم إرنبغا أحد كبار بخارى ، ومنهم ملك زادة ابن اخت خدائون زادة وبدر الدين الفصالح وكل واحد من هؤلاء معه اصحابه وخدامه واتباعه . ولما مضى من وصولنا ملتان شهران وصل احد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجي والملك محمد الهروي الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال زوجة خدائون زادة المذكور (٢) .

ويحمل ابن بطوطة ذاكرته ما يتجافى مع منطق الأمور حينما يورد بين حين وآخر عبارات قبلت قبل عشرين عاماً وبلغت لايحسها . ومثال ذلك وصفه لمشهد حرق إحدى الارامل حيث يذكر بأن تلك المرأة نزعت الملعقة من ايدي الرجال الذين يحجبون منظر النار عنها وقالت لهم : (ماو ميتراساني أزاطش من ميدانم او اطيش است رهاكني ما رادعي) (٣) .

ومن الامثلة الاخرى ما يتعلق بكرم السلطان محمد شاه حيث أورد

(١) « الرحلة » ، ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٩ ج ٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥ .

الحكاية التالية : (وسأل السلطان في ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو ، فقال له بهاء الدين ابن الفلكي ياخوند عالم نميداً ، ومعناه ماندرى . ثم قال شنيدم زحمت دارد (دار) . ومعناه سمعت أن به مرضاً . فقال له السلطان : بروهمين زمان در خزلته يك لك تنكة زربكزي أوييس يري تادل أوخش (خوش) شود . ومعناه امش الساعة إلى الخزانة وخذ منها مائة ألف تنكة من الذهب واحملها إليه حتى نسيانه : يبقى خاطره طيباً) (١) .

والأمر الملفت للنظر أنه هو نفسه يقدم لنا البراهين على أن ذاكرته عرضة للنسيان شأنه شأن غيره من البشر . فهو يذكر بين الحين والآخر أنه قد نسي أمراً من الأمور ، وإن اعتبر بعض الكتاب ذلك شاهداً على أمانته (٢) . لكن الأمر غير المفهوم هو كيف يمكن أن ينسى صاحب ذاكرة خازنة مثله أموراً عادية يسهل تذكرها ، بينما يتذكر قوائم طويلة لمختلف أسماء المواضع والأشخاص ؟ ولقد سجلنا الأمثلة التالية على نسيانه قال يتحدث عن تنقله بين المدن المصرية : (وسافرت منها إلى مدينة أرمنت . . أضافني قاضيها وأنسيت اسمه) (٣) .

وقال يتحدث عن رحلته إلى القسطنطينية : (وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا تثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار) (٤) .

وقال متحدثاً عن أحد أمراء الهند : (وكان جلوس هذا الأمير

(١) « الرحلة » ص ٤٢ .

(٢) « دائرة المعارف » - نشر أنيس المقدسي ، بيروت ١٩٥٨ ص ٣٦٩ .

(٣) « الرحلة » ص ٣٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي ويسمى سالار
والخطيب ولا أذكر اسمه (١) .

وقال متحدثاً عن إحدى مدن الهند : (مدينة سرستي مدينة كبيرة
كثيرة الارز ، وارزها طيب ومنها يحمل الى حضرة دهلي ، ولها مجي
كثير جداً . أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته (٢)
وقال متحدثاً عن كرم ملك الهند محمد شاه طفلق حينما سمع
ب وفاة قاضي ملتان : (فلما بلغ الخبر الى الملك أمر أن يبعث الى
أولاده عدداً من آلاف الدنانير لا أذكره الآن) (٣) .

وقال متحدثاً عن زيارته لمدينة بلخ : (وركب معنا وأرانا مزارات
هذه المدينة منها قبر حزوقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا
بها أيضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن) (٤) .

وقال متحدثاً عن ضيافة سلطان الهند له : (وأتوا تلك الليلة
برجلين احدهما الطاحوني ويسمونه الخراجي والثاني الجزار ويسمونه
القصاب ، فقالوا لتأخذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا
كذا وكذا من اللحم لأوزان لا أذكرها الآن) (٥) .

وقال متحدثاً عن تنقلاته بين مدن بلاد الشام . (ثم سافرت من
طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار بأعلى
تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الى بعض كبراء الامراء

(١) المصدر السابق ص ٩ ج ٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ ج ١ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٦ ج ٢ .

ونزلت عند قاضيها ولا أحق^١ الآن اسمه (١) .

وقال متحدثاً عن مدينة تعز : (وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومما يليه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره) (٢) .

وقال متحدثاً عن رحلته في بلاد السودان الغربي : (وثم وصلت الى بلد نسييت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فوبا سليمان) (٣) . تلك هي المواضع التي خانت فيها ابن بطوطه ذاكرته خلال « الرحلة » بأجمعها . ولسنا نجد سبباً معيناً دفعه للاعتراف بهذا النسيان كما لا نستطيع أن نفهم بالضبط لماذا نسي تلك الامور بالذات من بين آلاف الاسماء والاحداث الصغيرة والكبيرة . وهل هي الوحيدة التي نسيها بالفعل . بل ان من الغريب حقاً أن ينسى اسم ذلك البلد في السودان مع انه لم يمض على رحلته في تلك البلاد أكثر من عام ، بينما يتذكر أسماء مدن أعجمية مضى ما يقرب من ربع قرن على مروره بها وإذا كان قد أضاع أوراقه التي سجل فيها ملاحظاته عن رحلته الآسيوية الكبرى فاضطر أن يعلي من الذاكرة ، فما الذي دعاه الى اتباع ذات الاسلوب للرحلة الافريقية ، وهي آخر رحلة قام بها بتكليف من السلطان أبي عنان نفسه ؟ ١ .

ويتفق الباحثون على أن ذاكرة ابن بطوطه وان كانت ممتازة إلا انها كانت توقعه في كثير من الخلط والنسيان . يقول جب : (وفي احاديثه عن رحلاته

(١) « الرحلة » ص ٢٤٥ ج ١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦ ج ٢ .

يخطيء بعض الأحيان في ترتيب المدن وكثيراً ما يترك نفسه في الهواء يفصله فراغ من مئات الأميال . وهو يذكر أسماء خاطئة في مواضع عديدة لا سيما حينما يتحدث عن الأقطار غير الإسلامية حيث تغذله معرفته باللغة العربية أو الفارسية . وهذا ما يحدث أيضاً عند ذكره لبعض الحوادث التاريخية (١) .

ويقول كراتشكوفسكي : (ان ابن بطوطة أسبغ على روايته في بعض الاحايين دقة خيالية لا تمت للحقيقة بسبب وذلك فيما يتعلق بتحديد المسافات والاماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له) (٢) .

ان الذاكرة التي تتعرض للنسيان في التواريخ والاحداث وتسلسل المدن لا يمكن أن يركن الى احتفاظها بالآلاف المدن وبأدق التفاصيل وبعبارة أوضح فاننا لا يمكن أن نجزم بأنها ذاكرة خارقة . وما يؤيد هذا الزعم أن ابن بطوطة لم يستطع أن يتعلم اللغة الهندية المحلية بالرغم من أن اقامته في الهند امتدت الى أكثر من ثمان سنوات وفي ذلك يقول كراتشكوفسكي : (ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التي زارها ، وفيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية كذلك ، إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت في الواقع عند حد الالفاظ المحدودة التي كان يجب أن يعرضها من حين لآخر ، ولكن التوفيق جانبه في معظم الاحيان) (٣) .

ثم ان « الرحلة » تشتمل بالإضافة الى رواية مشاهداته في البلدان

(١) « جب » ، ص ١٢ .

(٢) كراتشكوفسكي ص ٤٢٧ .

(٣) كراتشكوفسكي ص ٤٢٨ .

ولقاءاته مع الشيوخ والسلاطين والاولياء على سرد لبعض الاحداث التاريخية . ومثال ذلك حديثة عن بناء مسجد الرسول (ص) (١) ، وحديثة عن فتوحات جنكيزخان (٢) ، وحديثة المفصل عن تاريخ الهند المعاصر منذ استولى المسلمون على مدينة دلهي سنة ٥٨٤ هـ حتى عهد محمد طغرل شاه (٣) ، وهو حديث حافل بالاسماء والتواريخ والاحداث وحديثه عن المتلبين على الملك في العراق العربي والعجمي بعد موت السلطان أبي سعيد ، وغير ذلك من الاشارات المفصلة أو الموجزة الى أحداث العصر . فكيف أمكنه أن يذكر كل تلك الاحداث من دون الرجوع الى ملاحظات مدونة أو الى المراجع التاريخية ؟ !

وهكذا نجد أنفسنا أمام افتراضين : فأما أن تكون الكثير من المعلومات التي وردت في « الرحلة » مختلفة ، ولا سيما ما يتعلق بأسماء الاشخاص الذين تجاوز عددهم الآلاف بين سلطان ووزير وشيخ وولي وتاجر ، أو أن تكون تلك الاسماء والاحداث ، وخاصة التاريخية منها ، وقد نقلت عن أوراق مدونة واستشيت فيها مراجع معينة ، وهو الافتراض الأرجح لاسيما وقد امتحنت بعض المعلومات التاريخية والاسماء الواردة في « الرحلة » من قبل الباحثين فثبتت صحتها . وفي جميع الاحوال فان عدداً غير قليل من أسماء الاشخاص قد اختلف اختلافاً ، كما ان كثيراً من التواريخ قد وضعت اعتباراً ولا يمكننا بالطبع أن نثبت من مسألة اختلاف أسماء الاشخاص لان أغلبهم غير معروف ، وخصوصاً أسماء الاولياء والشيوخ والولاة . أما مسألة التواريخ فقد لاحظ

(١) « الرحلة » ، ص ٧٠ - ٧١ ج ١

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٧

(٣) « الرحلة » ، ص ٢٠ - ٣٤ ، ج ٢

كراتشكوفسكي أن أكثر رحلات ابن بطوطة المهمة تبدأ في غرة محرم من كل عام مما يبدو أمراً غير معقول (١). كذلك أورد جب نفس الملاحظة حيث قال : (ولعل أصعب الأمور قبولاً هي تلك المتعلقة بتاريخ رحلاته إذ أنها تكاد تكون مستحيلة ، وكثير من تلك التواريخ تعطي انطباعاً بأنها قد ذكرت كيفما اتفق ، ولعلها حددت بطلب من كاتب الرحلة) (٢) كذلك لاحظ جب أن ابن بطوطة قد وضع تواريخ غير صائبة لبعض الأحداث ، ومثال ذلك رحلته الى القسطنطينية وأحداث شيراز وغيرها . أما ما يتعلق بأسماء المدن فلا شك أن العربية منها ، وبعض الأعجمية ، لاسيما الايرانية قد استشيرت المراجع في ضبط ألفاظها كما سنبين فيما بعد . أما الأسماء الصعبة غير المألوفة كمدن بلاد الصين فلم يتذكر منها ابن بطوطة سوى أربع مدن ، بالرغم من زعمه بأنه قد زار الصين من أقصى جنوبه الى أقصى شماله .

وإذا سلمنا بأن « الرحلة » قد استشارت مراجع معينة فسنجد أنفسنا مرة أخرى أمام معضلة جديدة ، وهي تحديد دور ابن بطوطة في تلك الاستشارة . فلقد أشرنا في بداية هذا الفصل أن ابن بطوطة قد أملى « رحلته » أولاً على محمد بن جزي الذي قام بدوره بتنقيحها والواقع أن دور ابن جزي غير واضح تماماً ، فهو يزعم أن دوره محدود للغاية ، ويوضحه بهذه الكلمات : (ونقلت معاني الشيخ أبي عبد الله بالفاظ موحية للمقاصد التي قصدنا ، موضحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما اوردت لفظه على وضعه فلم أدخل بأصله ولا فرعه ، وشرحت ما أمكنتني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٢٧ :

(٢) « جب » ص ١٢

ويخطئ في فك معماها معهود القياس (١) .

ويحاول ابن جزى أثناء استطرادات « الرحلة » أن يحافظ على وعده فيشير الى اضافاته الشخصية محدداً اياها بوضوح . فكلما شارك في اضافة شيء من عندياته الى « الرحلة » استدرك قائلاً : (قال ابن جزى كذا وكذا) . ومثال ذلك ان ابن بطوطة كان يتحدث عن عمره عند ارتحاله عن وطنه فأضاف ابن جزى الى ذلك قوله : (قال ابن جزى : أخبرني أبو عبدالله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمئة) (٢) . وعند العودة الى حديث ابن بطوطة يكتب (رجع) . ومن الأمثلة الاخرى على تدخله وصفه لمدينة صفاقس (٣) ، ولمدينة قابس (٤) ، ولمدينة تنيس (٥) ولمدينة حماة (٦) ولمدينة القاهرة (٧) ، ولمدينة حلب (٨) ، ولمدينة دمشق (٩) ، ولمدينة عبادان (١٠) ، ولمدينة بغداد (١١) ، ولمدينة نصيبين ، ولقلعة ماردين (١٢)

(١) « الرحلة » ، ص ٤ ج ١

(٢) « الرحلة » ص ٥

(٣) المصدر السابق ، ص ٧

(٤) المصدر السابق ، ص ٨

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ - ١٧

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٨

(٧) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤٢

(٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ - ٥٢ و ص ٥٩

(١٠) المصدر السابق ، ص ١١٨

(١١) المصدر السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٥٠

ولمدينة مالقة (١) ، ولمدينة مراکش (٢) ، وكذلك تفسيره لتسمية معرة
النعمان (٣) ، وتفسيره لصعوبة دخول غار جبل ثور (٤) ، وتصحيحه
لبعض الأحداث التاريخية (٥) ، وتعليقه على هواء مدينة البصرة وسبب
اصفرار لون سكانها (٦) ، وإشارته الى قضية سابور ذي الأكتاف ملك
الفرس حينما دخل بلاد الروم متنكراً (٧) ، وإشارته الى عادات رسول
سلطان مالي منسي سليمان عند حضوره لمقابلة السلطان أبي عنان (٨) ،
وصفه للنهر الأزرق بمدينة تستر في ايران (٩) ، وتعليقاته الطويلة في
امتداح السلطان أبي عنان (١٠) وتعليقه على جبل الفتح (جبل طارق) (١١)
وتعليقه على حديث ابن بطوطة بشأن غرناطة (١٢) ، وتعليقه على شجر
القسطل (١٣) ، وتعليقه على النجيري (١٤) .

(١) « الرحلة » ، ص ١٨٩ ج ٢

(٢) « الرحلة » ، ص ١٩١

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩

(٤) « الرحلة » ، ص ٩٠

(٥) » ص ١٢٦

(٦) » ص ١١٧

(٧) » ص ١٦١ ج ٢

(٨) » ص ٢٠٠

(٩) » ص ١١٩ ج ١

(١٠) » ص ٢٨٢ - ١٨٥ ج ٢

(١١) » ص ١٨٦ - ١٨٨

(١٢) » ص ١٩٠

(١٣) » ص ١٩٥

(١٤) » ص ٢٠١ ج ١

وتكاد تقتصر جميع تعليقات ابن جزي على استشهادات شعرية ينقلها عن شعراء آخرين ، كما أنها جميعاً تتعلق بوصف مدن أو مواضع عربية . لهذا يمكن القول أن دور ابن جزي دور محدود لا يتجاوز الصياغة الأدبية ، وربما كانت السجعات التي تتقدم وصف البلدان من صنعه أيضاً (١) أما اعتقاد البعض بأنه قام باستشارة المراجع وكتب الرحلات المعروفة وذلك لتحقيق بعض أجزاء « الرحلة » فيبدو أنه بعيد الاحتمال (٢) ، كذلك لا يبدو أنه تدخل في « الرحله » تدخلًا جوهرياً بحيث يدعو الأمر إلى الأخذ برأي كراتشكوفسكي القائل بأن كثيراً من اللوم الموجه إلى ابن بطوطة على ما في « رحلته » من نقائص قد يكون ناشئاً عن ابن جزي نفسه (٣) ويمكن أن نقرر باطمئنان أن ابن بطوطة نفسه كان مسؤولاً بصورة مباشرة أو غير مباشرة - أي بالاستعانة بابن جزي - عن الاطلاع على المراجع واستشارتها . صحيح أنه لم يكن ينتهي إلى طبقة الجغرافيين والادباء أو العلماء وأنه كان مجرد رحالة ، وصحيح أنه لم يكن يحفل بلقاء العلماء والمتأدبين إلا أنه في الواقع لم يكن يجهل عالمهم ، فالكتاب حافل بالاستشارات الجغرافية والتاريخية ، ومن غير المعقول أن يتكفل ابن جزي بهذا الجهد من دون أن يشير إليه كما فعل في اضافاته الأخرى . وبما يدلنا على تولي ابن بطوطة هذه المهمة قول ابن جزي : (على أنه سلك في اسناد صحاحها أقوم المسالك) (٤) . فمأذا يعني هذا القول ان لم يكن المقصود به استشارة المراجع المعروفة ؟

(١) « الرحلات » للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦ من ٩٨

(٢) « ابن بطوطة » بقلم فؤاد بدوي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٣ ص ١١

(٣) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٦

(٤) « الرحلة » ص ٤ ج ١

ومن الأمثلة على اهتمامه باستشارة المراجع قوله أثناء الحديث عن مدينة دمياط : (ثم سافرت في أرض رملية الى مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة الأقطار متنوعة الثمار عجيبة التركيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها باعجام الذال . وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبدالله بن علي الرشاطي . وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي يضبطها باهمال الدال) (١) .

وفي موضع آخر قال متحدثاً عن بحيرة البرلس : (والبرلس بباء موحدة وراء مهملة وآخره سين مهملة . وقيدته بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام . وقيدته أبو بكر بن نفطة بفتح الاولين) (٢) . وفي أثناء حديثه عن الاسكندرية قال مشيداً بمحاسنها : (وقد وصفها الناس فاطنبوا وصنفوا في عجائبها فأغربوا . وحسب المشوق الى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك) (٣) .

وفضلاً عن ذلك فإنه كان يرغب بلا شك في اخراج « رحلته » بشوب قشيب ، لامن أجل العلم فحسب ، فربما لم يكن معنياً بذلك كثيراً ، ولكن من أجل ترسيخ مكانته في بلاط السلطان أبي عنان . وكانت « الرحلات » السابقة ، وتلك التي قام بها الرحالة الأندلسيون معروفة لدى المتأولين وذوي العلم ، ولعل ابن بطوطة قد حلم أن تنال « رحلته » ما نالته تلك « الرحلات » من حظوة علمية . ولهذا فقد كان يعتمد إضفاء الصفة العلمية على « رحلته » ، (فقيده المشكل من

(١) « الرحلة » ص ١٧

(٢) « الرحلة » ص ١٦

(٣) « الرحلة » ص ٩

اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط (١) . وقد بالغ في هذه الناحية بكل ملحوظ . فقد راح يحاول ضبط الفاظ مدن هندية وتركية وصينية كان يعلم هو قبل غيره انه ان لم يكن يتذكر نطقها الصحيح . أما الأسماء العربية والايرانية وغيرها من الاسماء المألوفة للمتأدبين العرب فقد حافظ بالفعل على نطقها الصحيح ، ولعل الفضل في ذلك يعود الى استشارته للقواميس وكتب الاختصاص .

وهناك مسألة أخرى لا بد من بحثها وهي مدى استفادة ابن بطوطة من مؤلفات الرحالة السابقين . فمن الأمور المعروفة للباحثين ، استفادته من « رحلة ابن جبیر » بالذات . وقد اعتاد الدارسون أن يشيروا الى اقتباسه وصف مدينة حلب ودمشق وبغداد عن ابن جبیر . وقد أشار هو نفسه الى ذلك الاقتباس صراحة فيما يتعلق بتلك المدن ، ولكن الواقع أنه لم يقتصر في اقتباساته عن ابن جبیر على وصف تلك المدن الثلاث فحسب بل نقل عنه أجزاء كثيرة ، وكان هناك تعمد واضح في إخفاء ذلك النقل عن طريق التلاعب بالألفاظ . ويمكن القول أنه اعتمد في وصف أغلب المدن العربية في الحجاز ونجد والعراق ومصر وبلاد الشام على ابن جبیر . وبالنظر لأهمية هذه الناحية فسنطيل الوقوف عندها ونثبت في الصفحات التالية مواضع تلك الاقتباسات قال ابن جبیر يصف الطريق بين المدينة والنجف :

(وفي ضحوة يوم السبت لمحرم المذكور والحادي والعشرين من شهر ابريل كان رحيلنا من المدينة المكرمة الى العراق قرب الله لنا المرام وسهل علينا السبيل . واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام ، فنزلنا ثالث يوم رحلتنا المذكور بوادي العروس فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه في الأرض

بئراً فينبع ماء عذب معين . وصعدنا من وادي العروس الى أرض نجد
 وخلفنا تهامة وراينا . ومشينا في بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون
 أدناها ولا يبلغ مداها ، وتنسمنا نسيم نجد وهواها المضروب به المثل . .
 ونزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم رحيلنا على ماء يعرف بماء العسيلة . ثم
 نزلنا يوم الأربعاء خامس يوم رحيلنا بموضع يعرف بالنقرة وفيها آبار
 ومصانع كالصهاريج العظام . . ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرّم
 وسادس يوم رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر
 وهذا الموضع هو وسط أرض نجد . وما أرى أن في المعمور أرضاً
 أفسح بسيطاً ولا أوسع أنفاً ولا أطيب نسيماً ولا أصح هواً ولا أمد
 استواءً ولا أصفى جواً ولا أنقى تربة ولا أنعش للنفوس والأبدان
 ولا أحسن امتداداً في كل الأزمان من أرض نجد . ووصف محاسنها
 يطول والقول فيها يتسع . وفي يوم الخميس المذكور مع ضحوة النهار
 نزلنا بالحاجر ، والماء فيه في مصانع وربما حفروا عليه حفراً قريبة
 العمق يسمونها أحفاراً واحدها حفر . . وفي يوم الجمعة بعده نزلنا
 ضحوة النهار سميرة ، وهي موضع معمور وفي بسيطها شبه حصن يطيف
 به حلق كبير مسكون والماء فيه في آبار كثيرة إلا أنها زعاق ومستنقعات
 وبرك . وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن
 ولبن . ووقع الناس على قرم وعيمة فبادروا الابتياح لذلك بشقق الخام
 التي يستصحبونها لمشاراة الأعراب لأنهم لا يبايعونهم إلا بها .

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق وهو جبل في بيداء
 من الأرض ، وفي سفحه الأعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح . ثم رحلنا
 من ذلك الموضع وبتنا بوادي الكروش على غير ماء . ثم اسرينا منه
 واصبحنا على فيند يوم الأحد وهي حصن كبير مبرّح مشرف في بسيط

من الأرض يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان ، وهو معمور
بسكان من الأعراب ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات ، وغير
ذلك من المرافق . وهناك يترك الحاج زادهم اعداداً للارمال من الزاد
عند انصرافهم ، ولهم بها معارف يتركون بها ازودتهم عندهم . وهذا
نصف الطريق من بغداد الى مكة على المدينة شرفها الله او أقل يسيراً .
ومنها الى الكوفة اثني عشر يوماً في طريق سهلة طيبة والمياه فيها بحمد الله
موجودة في مصانع كثيرة . ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على
تعبئة وأهبة ارباباً للمجتمعين به من الأعراب لئلا يداخلهم الطمع من
الحاج . منهم يلحظونهم مستشرفين الى مكانهم لكنهم لا يجدون اليهم
سبيلاً والحمد لله . والماء بهذا الموضع كثير في آبار تمدها عيون تحت
الأرض . ووجد الحاج مصنعاً قد اجتمع فيه الماء من المطر فانتزف
للحين ، وامتلأ ايدي الحاج القرمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة
وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها الى ظهر يوم الاثنين بعده ثم
اسروا نصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل . ونزلوا ضحوة يوم
الثلاثاء الثامن عشر لمحرّم وهو أول يوم من مائة بموضع يعرف بالأجفر
وهو مشتهر عندهم بموضع جميل وبشينة العذريين . ثم اقلعنا ظهر يوم
الثلاثاء المذكور على العادة ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة . ثم
اسرينا منها ونزلنا ضحوة يوم الاربعاء بزود وهي وهدة في بسيط من
الأرض فيها رمال منهالة ، وبها حلق كبير داخله دويرات صفار وهو
شبيه الحصن يعرف بهذه الجهات بالقصر ، والماء بهذا الموضع في آبار
غير عذبة . فنزلنا ضحوة يوم الخميس الموافق عشرين لمحرّم والثالث لمائة
بموضع يعرف بالثعلبية ولها مبنى شبه الحصن خرب لم يبق منه إلا
الحلق ، وبازائه مصنع عظيم كبير الدور من اوسع ما يكون من الصهاريج

واعلاها ، والمهبط اليه على ادراج كثيرة من ثلاث جهات . وكان فيه من ماء المطر ما عمّ جميع المحلة . ووصل الى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساء واتخذوا به سوقاً عظيمة حافلة للججمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل ، فكان يوم السوق نافقة .

وبقي من هذا الموضع الى الكوفة من المناهل التي تعم جميع المحلة ثلاثة ، أحدها بزالة والثاني واقصة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة .

وفي ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم وهي مصنع . . ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق وقد علا كأنه هضبة شماء ، وكل مجتاز عليه لابد أن يلقي عليه حجراً . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . وبادروا للحن بما لديهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج . وكان هذا مملوءاً من ماء المطر فغمر الناس وعمهم والحمد لله . وهذه المصانع والبرك والمنازل التي من بغداد الى مكة هي آثار زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه . انتدبت لذلك مدة حياتها فابقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفداً الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها الى الآن . ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق . والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها .

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق وفيه مصنعان الغيناهما مملوئان ماء عذبا صافيا . فأراق الناس مياههم وجددوا مياهاً طيبة . . ورحنا في ذلك الموضع المذكور وبقنا بموضع يعرف بالتنانير وكان فيه أيضاً مصنع مملوء ماء . وأسرينا منه ليلة الأحد الثالث والعشرين لمحرّم واجتزنا سحراً بزبالة وهي قرية معمورة وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب ومصنعان للماء وآبار وهي من مناهل الطريق

الشهيرة . ونزلنا عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور بالهيشمين وفيها
 مصنعان للماء . وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين لمحرّم المذكور على
 مصنع مملوء ماء فسقى الناس بالليل واستقوا ، وهذا الموضع هو دون
 العقبة المعروفة بعقبة الشيطان . ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور
 صعدنا العقبة وليست بالطويلة الكثور ، ولكن ليس بالطريق وعر
 غيرها فهي شهيرة بهذا السبب . ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع
 دون ماء . وأجزنا مصانع كثيرة وما منها مصنع إلا والى جانبه قصر
 مبنى من قصور الأعراب ، والطريق كلها مصانع . . ثم نزلنا ضحوة
 يوم الثلاثاء بعده بواقصة ، وهي وهدّة من الأرض منفسحة فيها مصانع
 للماء مملوءة ، وقصر كبير وبازائه أثر بناء وهي معمورة بالأعراب وهي
 آخر مناهل الطريق ، وليس بعدها الى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع
 ماء الفرات ، ومنها الى الكوفة ثلثه أيام . وبها يتلقى الحاج كثير من
 أهل الكوفة وهم مستجلبون اليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه
 الى ضرة في ذلك الوقت . ويهنيء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة . . وبتنا
 ليلة الأربعاء السادس والعشرين بموضع يعرف بـ (بلورة) وفيها مصنع
 كبير . وأجزنا سحر يوم الاربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء يعرف
 بالقرعاء ، وفيه أيضاً مصنع ماء . . وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب
 تحصرها ولا تضبطها . . وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم
 مملوء ماء . ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف بمنارة القرون
 وهي منارة في بيداء من الارض لا بناء حولها . . واجتزنا عشي يوم
 الخميس المذكور على العذيب ، وهو واد خصيب وعليه بناء وحوله فلاة
 خصيبة فيها مسرح للعيون وفرجة ، ووصلنا منه الى الرحبة وهي بمقربة
 منه وفيها بناء وعمارة ويجري الماء فيها من عين نابعة في اعلى القرية

المذكورة . وبتنا امامها بمقدار فرسخ . ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل واجزنا على القادسية وهي قرية كبيرة فيها حدائق النخيل ومشارع من ماء الفرات واصبحنا بالنجف وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينهما وبين الصحراء ، وهو صلب من الارض منفسح متسع ، للعين فيه مراد استحسان وانشراح . . (١) .

وقال ابن بطوطة يصف الطريق نفسه بين المدينة والنجف .

(ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله (ص) ثانياً ، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام . واستصبحنا منها الماء لمسيرة ثلاث . ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس فتزودنا منه الماء من حسيان يحفرون عليها في الارض فينبطون ماءً أذباً معيناً . ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الأرض مد البصر فتقسمنا نسيمه الطيب الارج . ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالغسيلة . ثم رحلنا عنه ونزلنا ماءً يعرف بالنفرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة . ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة وهي مصابيح مملوءة بماء المطر ، مما صنعه زبيدة ابنة جعفر رحما الله ونفعها . وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل . ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء في الحفار . ثم رحلنا ونزلنا سميرة ، وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار إلا أنه زعاق . ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب والحام ولا يبيعون بسوى ذلك ، ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخردق وهو في بيداء من الأرض

وفي أعلاه ثقب نافذة تخرقه الريح . ثم رحلنا منه إلى وادي الكروش ولا ماء به . ثم أسرينا ليلاً وصبحنا حصن فَيَسِد ، وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة . وهناك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى ، فاذا عادوا وجدوه ، وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوماً في طريق سهل به المياه في المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهيه ارباباً للعرب المجتمعين هناك ، وقطعاً لاطعامهم عن الركب . . وأتى العرب بالجمال والغنم فاشتري منهم الناس ما قدروا عليه . ثم رحلنا ونزلنا الموضع الآخر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة . ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء . ثم نزلنا بزروود وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ، وهناك آبار ماء ليست بالعذبة . ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج ، وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل . ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيمة من الحجارة ، وكل من مر به رجمه . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك ، وبه مصنع كبير يعم جميع الركب بما بنته زبيدة رحمة الله عليها ، وكل مصنع أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيراً ووفى لها أجرها ، ولولا عنايتها بهذا الطريق ما سلكها أحد ، ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء ، وتزودوا منهما . ثم رحلنا

ونزلنا موضعاً يعرف بالتناير وفيه مصانع ممتلئة بالماء . ثم اسرينا منه واجتازنا ضحوة بزماله وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق . ثم رحلنا فنزلنا الهيشمين وفيه مصنعان للماء . ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان . وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على أنها ليست بصعبة ولا طائلة . ثم نزلنا موضعاً يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق ، وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات . وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهنيئ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة . ثم نزلنا موضعاً يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء . ثم نزلنا موضعاً يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع . ثم نزلنا موضعاً يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الأرض بائلة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها . ثم نزلنا موضعاً يعرف بالعذيب ، وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر . ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي اظهر فيها الله دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم ، وكان أمير المسلمين يومذاك سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وكانت القادسية مدينة عظيمة . افتتحها سعد رضي الله عنه ، وخربت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من الماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف (١) .

وقال ابن جبير يصف الطريق بين بغداد والموصل :

(وأسرنا الليل كله فصبحنا تكريت مع الفجر في يوم الجمعة التاسع من الشهر وهو أول يوم من يونيه فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم . وهي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء فسيحة الساحة حافلة الاسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق . أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها في جوفها . ولها قلعة خصبة على الشط هي قصبتها المنيع . ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه وهي من المدن العتيقة المذكورة .

وتمادى سيرنا الى ان ارتفع النهار من يوم الاحد بعده ، فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة ، وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليها تعرف بالعقر وعلى رأسها ربوة مرتقة كانت حصناً لها . وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف حفيل البنيان وثيقه . والقرى والعمائر من هذا الموضع الى الموصل متصلة . ومن هنا ينتثر انتظام الحجاج في المشي فينبسط كل من طريقه متقدماً ومتأخراً وبطيئاً ومستعجلاً آمناً مطمئناً .

• • وفي ضحوة هذا اليوم وهو يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر والرابع ليونيه مررنا بموضع يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة ، وبالجانب الشرقي منها وعن يمين الطريق الى الموصل فيه وهدة في الارض سوداء كأنها سحابة قد انبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنه الغليان ، ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطة على الارض أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة شديد التعلق فيلصق بالاصابع لاول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه الى جوانبها فيرسب قاراً • • وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة

عين اخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقليل لنا ان النار
تشعل فيه وإذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه
قطرات ويحملونه . . ولا شك أن على هذه الصفة هي العين التي ذكر
أنها بين الكوفة والبصرة وقد ذكرنا أمرها في هذا التقييد . ومن هذا
الموضع الى الموصل مرحلتان (١) .

وقال ابن بطوطة يصف الطريق نفسه بين بغداد والموصل :
(ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارعاء مليحة
الاسواق كثيرة الجوامع وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة في الجهة
الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط الدجلة ، والمدينة عتيقة البناء
عليها سور يطيف بها . ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا قرية تعرف بالعقر
على شط الدجلة ، وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها خان معروف
بخان الحديد له أبراج وبنائوه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك
الى الموصل . ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة
وهناك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويجتمع فيها فتراء شبه الصلصال
على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطباً وله رائحة طيبة وحول تلك
العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتتدفقه الى جوانبها
فيصير أيضاً قاراً . وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا فنقل
القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم
يقطعونها قطعاً وينقلونه . وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة
على هذا النحو . ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما
الى الموصل (٢) .

(١) « رحلة ابن جبير » ص ٢١٩ - ٢٢٠

(٢) « الرحلة » ص ١٤٨ ج ١

ولقد اقتبس ابن بطوطة أيضاً من ابن جبير وصف مدينة الكوفة (١) والحلة (٢) ، والموصل (٣) ، ووصف الطريق بين الموصل وسنجار (٤) . أما ما يتعلق ببلاد الشام فمن المعروف ان ابن بطوطة قد اقتبس عن ابن جبير وصف حلب ودمشق ، ولكنه في الواقع لم يقتبس وصف مدينة دمشق فحسب ، بل نقل أيضاً مشاهد كثيرة أخرى تتعلق بالمدينة ومثال ذلك وصفه للمسجد الأموي (٥) ، ووصف جبل قاسيون ومشاهده المباركة (٦) ، وكذلك وصف الربوة والقرى التي تواليها (٨) كذلك اقتبس عنه وصف مدينة عكا (٨) ومدينة صور (٩) .

تلك هي المواضع التي اقتبس منها ابن بطوطة عن ابن جبير . وقد قدم أو آخر في بعض العبارات أحياناً ، كما أدخل على البعض الآخر منها تغييراً طفيفاً في أحيان أخرى . وإن دل ذلك على شيء فانما يدل على محاولته تغطية مواضع الاقتباس ، ولسنا ندري ان كان ابن بطوطة قد اقتبس أيضاً عن كاتب آخر أم انه اكتفى بالاقتباس عن ابن جبير

(١) راجع «رحلة ابن بطوطة» ص ١٣٧ - ١٣٨ ج ١ و «رحلة ابن جبير» ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) راجع «ابن بطوطة» ص ١٣٨ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ١٩٩ .

(٣) راجع «ابن بطوطة» ص ١٤٨ - ١٤٩ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) راجع «ابن بطوطة» ص ١٤٩ - ١٥٠ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(٥) راجع «ابن بطوطة» ص ٥٥ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ٢٤٩ - ٢٦٢ .

(٦) راجع «ابن بطوطة» ص ٦١ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ٢٦٣ .

(٧) راجع «ابن بطوطة» ص ٦٢ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٨) راجع «ابن بطوطة» ص ٣٥ ج ١ ، «ابن جبير» ص ٢٣٩ .

(٩) راجع «ابن بطوطة» ص ٣٥ - ٣٦ ج ١ ، و «ابن جبير» ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

فقط بسبب شهرة « رحلته » . وما دام قد سمح لنفسه أن يقتبس عن كاتب معين ، فليس هناك مانع أن يقتبس عن كاتب آخر أيضاً ، وفي هذه النقطة بالذات مجال متسع للباحثين للكشف عن حقائق جديدة حول « الرحلة » ولا يعنيها بالطبع إن كان ابن جزي كاتب « الرحلة » هو المسؤول عن هذا الاقتباس ، أم ابن بطوطة تولى ذلك بنفسه والمهم في الأمر أن صاحب الرحلة على علم بالأمر . ولا يفوتنا أخيراً أن نشير الى أن هذه الاقتباسات - وإن لم تمس جوهر « الرحلة » - إلا أنها تدل على أن معلومات « الرحلة » ليست أصيلة دائماً .



تَحَارُرُ الرَّحْلَةِ

يمثل هذا الفصل وجهة النظر الجغرافية في « رحلة ابن بطوطة » وقد حاولنا أن نستعرض فيه أبرز معلوماته عن البلدان المذكورة . ومن الملاحظ أن ثمة تفاوتاً كبيراً في قيمة تلك المعلومات . فالبعض منها عامة وسطحية ولا تضيف شيئاً جديداً إلى المعلومات السابقة ، في حين يتميز البعض الآخر منها بدقة وأصالة وجدة . ويمكن القول أن معلوماته عن البلاد العربية موجزة وثانوية الأهمية على العموم ، بينما تكتسب أخباره عن بلدان آسيا الوسطى والشرق الأقصى أهمية عظيمة . ولابد لنا أن نلفت الأنظار إلى أمرين يرتبطان بقيمة معلوماته . الأول هو ان اختلاف الكتاب حول زيارته لبعض البلدان لا يقلل من شأن معلوماته ومثال ذلك أخباره عن الصين وسيريا . فبالرغم من اعتقاد طائفة من الباحثين بأن ابن بطوطة لم يزر الصين أو سيريا ، لكن معلوماته عن هذين البلدين صحيحة وقيمة . وهذا يعني انه استقاها من مصادر موثوق بها .

والأمر الثاني هو عدم ارتباط أهمية معلوماته عن البلدان بما أمضاه من زمن فيها . فقد أنفق مثلاً بضعة أشهر في زيارة أقطار آسيا الوسطى ، وحوالي العامين في زيارة أفريقيا الغربية ، لكن معلوماته عن تلك الجهات فاقت في أهميتها أخباره عن الهند التي عاش فيها ما يقرب من ثمان سنوات . وسيحاول هذا الفصل أن يوضح مدى مساهمته في الجغرافية العربية على وجه العموم .

(١)

العالم العربي

تتصف ملاحظات ابن بطوطة عن أقطار العالم العربي بالايجاز والسطحية عموماً ، بالرغم من انه زار أغلب تلك الأقطار مرات ومكث فيها شهوراً طويلة ، والواقع أنه لم يضيف جديداً الى المعلومات عن تلك الاقطار بالقياس لما قدمه الرحالة والجغرافيون السابقون . واذا كان لوصفه الجغرافي لعدد من مدن العالم العربي قيمة ما ، فان تلك القيمة تتضاءل بعد أن ثبت لنا أن قسماً كبيراً منها قد اقتبس من « رحلة ابن جبير » أو ربما من « رحلات » أخرى . ولو قارنا ملاحظاته الجغرافية بملاحظات ابن جبير الذي سبقه بما يقرب من قرن في التجوال بين اقطار العالم العربي لتبين لنا أن ملاحظات ابن جبير اكثر دقة ونفاذاً فقد أشار ابن جبير الى ظاهرات هامة - جغرافية وأثرية - كانت تغيب عن ابن بطوطة . وقد يكون لبعده الشقة الزمنية بين وقت زيارته للاقطار العربية وبين تسجيله « المرحلة » اثر في ذلك ، لكن من الواضح أيضاً أن ما يتمتع به ابن بطوطة من حس جغرافي وعلمي كان أدنى مرتبة مما يتمتع به ابن جبير ولعل مرجع ذلك أيضاً الى عناية ابن بطوطة بالاشخاص واخبارهم اكثر من عنايته بتسجيل الأوضاع الجغرافية للمدن والأقطار المعنية .

ويمكن القول أن أقل ملاحظات « الرحلة » قيمة هي التي تتعلق ببلدان شبه الجزيرة العربية. فلم يذكر ابن بطوطة من مدنها سوى عدد محدود ، كما أنه لم يسجل عنها أية ملاحظات اقتصادية أو اجتماعية جديرة بالاهتمام .

وتأتي كتابته عن العراق بالدرجة الثانية بعد شبه الجزيرة في ايجازها وسطحيتها . هذا فضلاً عن ان ملاحظاته - لا سيما الاجتماعية منها - يعوزها الوضوح والدقة في كثير من الاحيان . وما لاريب فيه أنه لم يأتي جديد عن هذه البلاد . والمعروف أن الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين قد مسحوا العراق جغرافياً اكثر من أي قطر اسلامي آخر ، باعتباره مركز الخلافة الاسلامي . وكانت كتابات اليعقوبي وابن خرواذية . والمقدسي والاصطحري وغيرهم شاملة لشق النواحي الجغرافية من طبيعية واقتصادية وبشرية . ولم يصنف الرحالة والجغرافيون المتأخرون أية معلومات هامة الى المعلومات المبكرة . وبالرغم من أن ابن بطوطة كان قد زار العراق مراراً عديدة ، لكنه لم يحاول التعمق في طبيعة الحياة الاجتماعية ، كما أنه لم يسجل أية ملاحظات اقتصادية ذات قيمة تذكر . ويمكن أن يعزى اهماله للعراق الى حالة النفور التي تملكته تجاه البلاد ، والتي تتجلى في ثنائيا حديثه عن مدن وسط وجنوب العراق وعن سكانها الشيعة ، وربما كانت غزارة المعلومات الجغرافية عن العراق وسهولة تداولها سبباً اضافياً آخر لذلك الاهمال .

وتعتبر أحاديثه عن بلاد الشام افضل ماورد في الرحلة من معلومات عن أقطار العالم العربي . وبالرغم من أنه اقتبس الكثير من أوصاف المدن عن ابن جبير كما ذكرنا - لا سيما مايتعلق بدمشق - الا ملاحظاته عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية قيمة وأصيله . وقد أمدنا

بصور دقيقة واضحة عن عادات السكان في حياتهم اليومية ، وعن نشاطهم الاقتصادي ومستواهم الثقافي . كذلك قدم لنا صوراً واضحة عن نوع الحكم السائد في البلاد . وتزى جودة ملاحظاته عن بلاد الشام وسعتها وشمولها الى تكرار زيارته لهذه البلاد والى اقامته الطويلة نسبياً فيها . فقد أقام في دمشق - كما اخبرنا - ما يزيد على عام يدرس على ايدي علمائها في الجامع الأموي ، إضافة الى زيارته المتعددة وكان قد أحب البلاد وطابت نفسه للإقامة فيها . كل ذلك قد لون احاديثه عن بلاد الشام بلون خاص واكسبها نكهة طيبة ، وجعل (رحلته) من المراجع الهامة لدراسة أحوال البلاد الاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية في ذلك العهد .

أما أحاديثه عن مصر فلم تشتمل على ملاحظات قيمة سوى ما أورده عن نهر النيل وطريقة فيضانه . وقد اقتصرت بقية المعلومات على حكايات عن الأولياء والسلاطين . ويجدر بالذكر أن كتب الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين حافلة بالمعلومات عن نهر النيل ، وقد اسهبوا في وصف مجراه وطريقة فيضانه .

أما ملاحظاته عن بلدان المغرب العربي والاندلس فهي أقل ملاحظات « الرحلة » قيمة من وجهة النظر الجغرافية . وما يزيد في ضآلة قيمتها ما كتب من أدب جغرافي غزير عن تلك البلدان . فقد قام عدد كبير من المغاربة برحلات الى اقطار العالم العربي والاسلامي ، ودونوا مشاهداتهم عن بلدان المغرب العربي بالذات ، كابن سعيد التجاني ، والعبدري وابن جبير ، فضلاً عن الكتابات الجغرافية القيمة للادريسي والبيكري .

وهكذا يتضح لنا أن اضافات ابن بطوطة الجغرافية عن أقطار

العالم العربي محدودة عموماً ، وهي أقل قيمة من اضافاته عن الاقطار الاسلامية الأخرى ، وسنسلط الضوء في الصفحات التالية ، على ملاحظاته الجغرافية عن تلك الاقطار في مختلف جوانبها الطبيعية ، والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

الحجاز

اشتملت أحاديث ابن بطوطة عن الحجاز على معلومات غابرة مع أنه أقام في مكة ما يقرب من ثلاثة اعوام . ففي الجانب البشري مثلاً اقتصر ملاحظاته على تصوير عادات اهل مكة الغذائية ، حيث ذكر أنهم يأكلون وجبة رئيسية واحدة في اليوم بعد صلاة العصر ، بينما تقتصر الوجبات الاخرى على التمر ، وقد أشار أيضاً الى ميلهم الى النظافة وعطفهم على الضعفاء والغرباء . كذلك صور بالتفصيل مناسك الحج وشعائره ، ولون صوره بالحوية والواقعية .

أما في الجانب الطبيعي فقد شرح بأسهاب طوبوغرافية المواضع الدينية في مكة والمدينة . وقد وصف طريق الحج الصحراوي بين بلاد الشام ومكة ماراً بتيوك والمدينة وصفاً دقيقاً ، وذكر جميع المواضع والقرى التي تقع عليه .

نجد

تكاد تقتصر ملاحظات ابن بطوطة الجغرافية عن نجد على وصف طريق الحج الصحراوي بين النجف وحائل والمدينة ، وهو الطريق الذي

يطلق عليه اسم « درب زبيدة » نسبة الى زبيدة زوجة هارون الرشيد . ويجدر بالذكر ان زبيدة قد اقامت على امتداد هذا الطريق عدداً من الصهاريج لجمع مياه الامطار وحفرت عدداً من الآبار فأُنقذت حجاج العراق من اخطار العطش ، كما اتخذ الطريق حدوداً واضحة عبر متاهات النفوذ الكبرى والهضبة النجدية . وقد وصف ابن بطوطة أيضاً الهضبة النجدية وصفاً عاماً غير ذي قيمة جغرافية ، فقد ذكر أنها (فسيحة ، طيبة النسيم ، صحيحة الهواء ، نقية التربة) ، وهو وصف كان الجغرافيون يتناقلونه واحداً عن الآخر ، وقد سبق لابن جبير أن سجله في « رحلته » أيضاً .

ولعل اهم ملاحظاته الجغرافية عن الهضبة النجدية مايتعلق بالجانب البشري فقد أشار الى ممارسة بدوها لتجارة « المقايضة » مع الحجاج ، وقد أورد مراكز عديدة من مراكز المقايضة مثل « سميرة » و « الثعلبية » و « حصن فيد » . وكان البدو والاعراب يبادلون الحجاج الغنم والسمن واللبن بالثياب الخام وما شابهها من بضائع . وفي بعض الاحيان كانوا يستعيضون عن تجارة « المقايضة » بالسلب والنهب ، فكان الحجاج يعتمدون - تلافياً لمثل تلك الهجمات المفاجئة - الى التهيؤ للحرب والظهور بمظهر القوة الحربية عند الوصول الى مناطق معينة من الصحراء النجدية

ساحل الخليج العربي

اهتم ابن بطوطة بثلاث مراكز على هذا الساحل ، هي البحرين والقطيف والاحساء ، وأورد ملاحظات عابرة عن جغرافيتها الاقتصادية والطبيعية والبشرية ، وقد أكد بشكل خاص على البحرين ، فأشار الى تميز مناخها

بالحرارة الشديدة ، والى هبوب الرياح الشمالية الشرقية عليها باستمرار حيث تحمل اليها الرمال من الصحراء المجاورة . وتحدث عن الحياة الاقتصادية فيها ، فذكر ان صيد اللؤلؤ يمثل دعامة هامة من دعائم اقتصاد البلاد . وقد اسهب في طريقة صيده ونظام بيعه وتصديره . كذلك أكد على انتعاش الزراعة وعلى كثرة بساتين النخيل والرمان ، واتساع زراعة القطن . وقد أشار الى ازدهار العلاقات التجارية بينها وبين عمان في عهود سابقة ، فكان هناك طريق بري يربط بينهما ، لكن ضعف الصلات بين القطرين أدى الى اهمال ذلك الطريق فطمرته الرمال . وقد استعوض عنه بالطريق البحري ، وهو طريق طويل جداً لكنه يربط بين جميع المدن الواقعة على ساحل الخليج . وقد أشار ابن بطوطة أيضاً الى طريق آخر يخرق شبه الجزيرة من شرقها الى غربها . ويصل ما بين ساحل الخليج العربي وساحل البحر الاحمر . ويربط ذلك الطريق ما بين الاحساء واليمامة ومكة .

الساحل للعماني والعديني

لقد مر ابن بطوطة بموانئ متعددة تقع على ساحل البحر الاحمر وهي ظفار والاحقاف ومرسى حائل ومرسى صور وقلهان وعمان ، وقد لاحظ أن هذا الساحل فقير بسكانه على العموم نظراً لفقره في الموارد الاقتصادية ، وتشتمل مواطن السكنى فيه على قرى صغيرة عدا ظفار وعمان وقلهان . إلا ان بعض موانئه كانت على صلات تجارية نشطة مع الشرق وخصوصاً الهند ، لاسيما ميناء ظفار الذي كان ميناء تجارياً مزدهراً ، وكان هذا الميناء قاعدة الصلة بين الشرق الاقصى والبلاد

العربية وايران . كذلك كان لميناء قلهمان أهمية تجارية عظيمة حيث كان أول نقطة تصلها السفن من الهند .

وقد تحدث ابن بطوطة عن الحاصلات الزراعية في هذا الساحل ، ووضح أوجه الشبه بينها وبين حاصلات الهند ، وأهمها اشجار النارجيل والتنبول والموز . ويبدو أن زراعة الموز تجود في مدينة الاحقاف بشكل خاص ، فقد بالغ في ضخامه الموز المنتج فيها . كذلك أشار الى انتشار الاشجار التي يستخرج منها الصمغ واللبان . وقد استرعى اهتمامه ايضاً الصيد البحري في الساحل العماني الذي يكاد يكون قوام الحياة الاقتصادية . فذكر أن الاسماك تعتبر غذاء رئيسياً في تلك المناطق ، وهي تجفف وتحفظ خلال أيام السنة . كما أنها تستخدم غذاءاً للحيوانات . ولم يسجل ابن بطوطة ملاحظات هامة عن النظام الاجتماعي في تلك الجهات ، لكنه أشار الى تمتع المرأة بحرية كبيرة في عمان بالقياس الى الجهات المجاورة .

اليمن

كانت جولات ابن بطوطة في اليمن على نطاق واسع نسبياً ، فقد زار معظم مدنها الكبرى ، مثل تعز وصنعاء وزايد وعدن ، فضلاً عن موانئ صغيرة أخرى تقع على ساحل البحر الاحمر . ويتم حديثه عن المدن الكبرى عن تحسن الوضع الاقتصادي في البلاد . فاذا كان من الطبيعي أن تتسع العاصمة تعز ويرتفع مستواها ، فإن اتساع صنعاء وزايد وغيرها من المدن يعود الى ازدهار الوضع الاقتصادي في كافة انحاء البلاد . والواقع أن اليمن كانت تعتمد في اقتصادها على موردين رئيسيين :

هما الزراعة والتجارة . فليس من المستغرب اذن أن تزدهر الزراعة في اليمن ، فقد كان هذا شأنها من زمن بعيد . ويرجع الفضل في ذلك الى كمية الأمطار الموسمية التي تتلقاها جبال اليمن ، كما يعود الى الجهد البشري الذي يبذله سكان هذا القطر منذ آلاف السنين ، حيث اقاموا الخزانات والسدود للاحتفاظ بمياه الامطار . وقد أشار ابن بطوطة الى هذا التقليد الذي ظل سائداً منذ القدم ، فذكر ان مدينة عدن تشتمل على صهاريج ضخمة تجتمع فيها المياه أوقات المطر .

أما الازدهار التجاري في البلاد فيرتبط بموقع بعض موانئها على مدخل البحر الاحمر الجنوبي مما جعلها قاعدة للاتصال بين الشرق والغرب . وقد اطلق ابن بطوطة على عدن اسم (مرسى أهل الهند) وذكر ان البضائع ترد اليها من مدن الهند الكبرى مثل كالكوت وكولم وسنابور . ومن أدلة النشاط التجاري في هذا الميناء تجمع عدد غير قليل من التجار الغرباء فيه - كما أشار ابن بطوطة - من هنود ومصريين وشوام . وما يزال ميناء عدن يحتفظ بأهمية التجارة كقاعدة هامة في الطريق الواصل بين الشرق والغرب . ويبدو أن هذا الازدهار التجاري لم يكن يشمل مدينة عدن فحسب ، بل كان يمتد تأثيره الى المدن اليمنية الكبرى أيضاً . فقد ذكر ابن بطوطة أن الناس في اليمن يربحون اموالاً كثيرة . وان هناك عدداً كبيراً من التجار الذين يمتلكون مراكب بأكملها ويتباهون بضخامتها وحمولتها .

ولعل من أهم الملاحظات التي سجلها ابن بطوطة عن الجغرافية الطبيعية لليمن تلك التي تتعلق بالملاحة في البحر الاحمر وبمناخ البلاد . فقد ذكر ان الملاحين يتجنبون السفر ليلاً في البحر الأحمر توقياً لخطر الصخور المرجانية الساحلية . ومن المعلوم أن الملاحة في

البحر الاحمر تنطوي على صعوبات متعددة أهمها الصخور المرجانية الساحلية ، وخطر الرياح العاصفية التجارية الشمالية الشرقية .
 أما ملاحظاته عن مناخ اليمن فقد حدد فيها صفاتة الموسمية ، وقرنه بشكل صحيح مع مناخ الحبشة والهند . ومن المعروف ان هذه الاقطار جميعاً تتأثر بالامطار الموسمية التي تسببها الرياح الموسمية . وقد وصف ابن بطوطة امطار اليمن بأنها وابلة متدفقة ، وهي تسقط وقت الظهيرة مما يدعو السكان الى إنهاء أعمالهم قبل موعد بدء سقوطها . ولم يبحث ابن بطوطة في الجغرافية الاجتماعية لليمن ، لكنه اطرى بشكل خاص على المرأة اليمنية التي وصفها بأنها زوجة ممتازة ، وهو وصف قد أجمع عليه الرحالة القدماء والمعاصرون .

العراق

انصفت ملاحظات ابن بطوطة عن جغرافية العراق بالسطحية عموماً ، فضلاً عن أنها لم تكن ملاحظات أصيلة . وقد اوضحنا في فصل سابق أنه وصف أغلب المدن العراقية من (رحلة ابن جبير) ، لاسيما المدن الكبرى ، كبغداد والبصرة والموصل والكوفة والنجف والحلة وسامراء ، بالرغم من أنه تجول على نطاق واسع جداً في العراق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . ثم أن اوصافه لم تكن تخلو من أخطاء جغرافية واضحة . ومثال ذلك اشارته الى رحلته بين الحويزاء والكوفة . فقد ذكر أنه قطع المسافة بين الكوفة والحويزاء في برية لا ماء فيها سوى بموضع واحد يعرف بـ (الطرفاوي) (١) ، وهذا أمر مخالف للحقيقة

(١) « الرحلة » ، ص ١٣٧ ج ١

فمن المعروف أن المنطقة الممتدة بين الحوزاء التي تقع في جنوب العراق بالقرب من شاطئ دجلة ، والكوفة التي تقوم في وسط العراق بجوار شاطئ الفرات هي منطقته غنية بالمياه ، ويجري فيها دجلة والفرات وفروعهما المختلفة بالإضافة الى انتشار المسطحات المائية الواسعة في جنوب ووسط العراق .

ويبدو لنا أن ملاحظاته عن ازدهار الطريق بين الأنبار وعانة وبين سامراء والموصل (١) لم تكن دقيقة أيضاً ، ولعله استقاها من مراجع تاريخية سابقة . فمن المعروف أن المصادر التاريخية قد أشارت بالفعل الى تقدم الزراعة إبان الحكم العباسي في بعض المدن الواقعة على وادي الفرات الشمالي ، ولا سيما هيت التي اشتهرت بكثافته سكانها وبساتينها المكتظة بفواكهها ، والأنبار التي كانت تقع على رأس قناة عيسى (وكانت تربط بين الفرات ودجلة) . لكن من المعروف ايضا أن مدن وادي الفرات الاعلى تحتاج الى بذل جهد بشري خاص لتنشط الزراعة فيها ، لأن ضفاف النهر أعلى من مستوى الوادي عموماً ، ولا بد من الاستعانة بالواسطة لرفع المياه الى الاراضي المجاورة . وقد اهتم الخلفاء العباسيون بمشاريع الري وأحييت جهات واسعة على الفرات الأعلى وازدحمت على ضفافه القرى والبساتين . ومنذ أن اجتاحت جيوش هولاكو أراضي العراق أصاب الزراعة الإهمال والخراب ودمرت مشاريع الري القديمة . وقد لحق الضرر بالقرى والبساتين الواقعة على وادي الفرات الأعلى أكثر من غيرها وفقدت ازدهارها القديم . لذلك لا يمكننا أن نقبل قول ابن بطوطة بأن وادي الفرات ابتداءً من

الأنبار حتى عانة كان يمثل قرى متراحة وأنه أقرب الى بستان متصلة (١) ولعلنا نستطيع أن نحكم على وضع المنطقة في عهده بما نلمسه من تخلف الزراعة فيها في الوقت الحاضر .

وينطبق هذا الحكم أيضاً على وادي دجلة بين سامراء والموصل ، فضفاف النهر في هذه الجهات مرتفعة ، واستقاء المياه من النهر يتطلب استخدام الوسطة . وقد عفى العباسيون باقامة مشاريع الري على نهر دجلة لاسيما في المنطقة ما بين سامراء وبغداد ، لكن التخريب الذي أصاب البلاد على ايدي التتار قد دمر مشاريع الري في تلك الجهات أيضاً فانطمرت القنوات والنهيرات . ولا يمكن في مثل هذه الحال أن تتصل العمارة على نهر دجلة ما بين تكريت والموصل في وقت زيارة ابن بطوطة . ويكشف لنا حديث ابن بطوطة عن العراق من جهة أخرى ما أصاب البلاد من تدمير على أيدي المغول . وكانت أبرز آثار الاحتلال المغولي ظاهرة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وقد لاحظ ابن بطوطة أنها مدينة خربة وكأنها أطلال دارسة بعد أن كانت أعظم المدن الاسلامية قاطبة . كذلك لاحظ بأن الأمن مفقود في البلاد لاسيما خارج المدن الكبرى ، وان القبائل الأعرابية كانت تهدد المدن بغاراتها دوماً . وحينما رغب في الارتحال من النجف الى البصرة صحب ركبا لعشائر خفاجة ليأمن على نفسه . نظراً لانهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للمسافر في تلك الاقطار إلا بصحبتهم (٢) . وقد أوضح تأثير تلك الغارات الأعرابية المستمرة على المدن ، فأورد مثلاً من مدينة الكوفة التي جعلتها تلك الغارات مدينة قليلة الشأن خربة ،

(١) « الرحلة » ص ١٦٩ ج ٢

(٢) المصدر السابق ص ١١٣ ج ١

لا سيما وانها لم تكن محاطة بسور (١) .

أما ملاحظاته عن الجغرافية الاقتصادية للعراق فلا تنم عن وجود ازدهار اقتصادي في البلاد . فلم يستلقت نظره من المزروعات ، سوى النخيل التي ذكر أنها تستخدم في صناعة عسل طيب يسمى (السيلان) . والمعروف أن النخيل نباتات معمرة لا تتطلب عناية خاصة ، وأن العراق الجنوبي موطن زراعتها منذ أقدم الأزمان . أما الحاصلات الأخرى من الحبوب والفواكه فلم يشر إليها بما يدل على كونها في حاله متخلفة . ولقد أكد ابن بطوطة أيضا أن المتاجرة داخل البلاد كانت تشمل على الغنم والسمن واللبن . وهذا يعني أن سكان المناطق الريفية كانوا أكثر اهتماما بالحيوان منهم بالزراعة ، أي أنهم كانوا أدنى إلى طباع العشائر البدوية .

وتدل ملاحظات ابن بطوطة عن الوضع الاجتماعي في البلاد على ما أصاب الناس من خنوع تحت حكم السلاطين المغول ، ويبدو أن ذلك الحكم قد جعل الناس أكثر انصرافا إلى شؤون الدين ، وبالتالي أكثر اهتماما بالخلافات المذهبية . ومن المعلوم أن العراق كان قد انقسم منذ خلافة الأمويين إلى طائفتين رئيسيتين هما أهل السنة ، والشيعة . وكان هذا الانقسام يزداد حدة ووضوحا كلما تقدم الزمن ، وكلما حمل الحكم على تعميقه . وقد انعكست الخصومات المذهبية والخلافات الطائفية بين السكان في أحاديث ابن بطوطة ، كما انعكست أيضا نزعاتهم الدينية القوية . فقد ذكر أن سكان بغداد كانوا يزورون كل ليلة شيخا من شيوخ المدينة الكثيرين ، وأن أهالي الحلة كانوا يخرجون عصر كل يوم في موكب تتقدمه الرايات والطبول ويقصدون

الى مشهد صاحب الزمان فيتضرعون اليه لكي يظهر من جديد ويظهر الارض بما عمها من ظلم وفساد .
والخلاصة أن أحاديث ابن بطوطة عن العراق تدل على أنه كان يمر في ذلك العهد بطور من أطوار التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

بلاد الشام

تحدث ابن بطوطة عن بلاد الشام كوحدة جغرافية كبرى تشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن . ومن المعلوم ان الاقسام الحالية نشأت من اعقاب الحرب الكبرى الأولى . وبما أنه قد تجول في ربوع هذه الاقطار مراراً عديدة وفي أوقات مختلفة ، فقد حدث نوع من الخلط في ذاكرته بين المدن المختلفة مما جعل خط سيره ضمن بلاد الشام غامضاً أحياناً ومفتقراً الى الدقة في احيان أخرى . فقد كان يتنقل من مدينة الى أخرى في بعض أجزاء « الرحلة » من دون أن يخضع للتسلسل الجغرافي لهذه المدن (١) .

وقد وقع أيضاً في بعض الأخطاء الجغرافية البارزة . ومثال ذلك قوله بأن النهر الذي يمر بمدينة حلب هو نهر العاصي ، بينما هو في حقيقته نهر قويق (٢) . وقد أهمل الإشارة الى آثار بارزة كآثار بعلبك . أما الوصف الجغرافي لمدينة بلاد الشام فقد اقتبس أغلبه عن (رحلة ابن جبير) كما أشرنا في موضع سابق ، لا سيما ما يتعلق

(١) « الرحلة » ص ٤٣ - ٤٤

(٢) « الرحلة » ص ٤١

بمدينة دمشق . والغريب أنه كان قد أقام في هذه المدينة ما يزيد على عام ، ولم يكن مضطراً لاقتباس وصفها من مصدر آخر .

ولعل أهم ملاحظاته الجغرافية ما يتعلق بوصف طريق الحج الصحراوي بين بلاد الشام والحجاز . فقد وصفه وصفاً دقيقاً وبين أهمية الخانات التي تقع عليه . كذلك تكتسب ملاحظاته الاقتصادية والاجتماعية - لا سيما عن دمشق - أهمية خاصة نظراً لأصالتها .

وتدل ملاحظاته عن الاحوال الاقتصادية في بلاد الشام أنها كانت في وضع مزدهر . فقد كانت الصناعة والتجارة والزراعة فيها نشطة ، وكانت المدن الكبرى تشتهر بالتخصص في صناعة معينة والاتجار بها وتصديرها الى خارج البلاد . فمدينة نابلس تختص بزراعة الزيتون وصناعة الزيت الذي يحمل الى مصر ودمشق ، كما تصنع فيها حلواء الخروب التي تصدر الى دمشق . ومدينة صيدا تشتهر بفواكهها، وهي تصدر التين والزبيب والزيت الى مصر . وتصدر بيروت الفواكه الى مصر . وتختص مدينته المعرة بزراعة التين والفسق الذي يحمل الى مصر والشام . أما بلدة سرمين فتختص بصناعة انواع متعددة من الصابون تصدرها الى مصر والشام ، كما تختص أيضاً بصناعة الأنسجة القطنية . وتشتهر بعلبك بصناعات عديدة كصناعة الادوات والأواني الخشبية وصناعة الانسجة الخاصة المسماة بالثياب البعلبكية ، كما تصنع فيها أيضاً انواع عديدة من الحلواء التي يطلق عليها اسم (الملبن) أو (جلد الفرس) أما دمشق فتتنوع فيها الصناعات وأهمها صناعة الانسجة على اختلافها وصناعة الحلواء المتنوعة . وهي تصدر كثيراً من مصنوعات ومنتجاتها الى مصر وغيرها من الاقطار . ويبدو أن الحركة الصناعية والتجارية في دمشق كانت على درجة عالية من النشاط ، مما أدى الى كثرة

الأسواق فيها ذات الاختصاصات المتنوعة . فقد كان هناك سوق خاص بالوراقين أيضاً .

ولقد امتدح ابن بطوطة أسواق أغلب المدن التي شهدناها ولاحظ أنها واسعة وعامرة ونشطه حتى في المدن الصغيرة وبعض القرى . وما لا ريب فيه أن تلك الأسواق النشطة دليل على تقدم الزراعة وعلى ارتفاع القوة الشرائية لدى الفلاحين .

ولقد أشار ابن بطوطة أيضاً الى النشاط التجاري المزدهر في بلاد الشام ، الى الصلات التجارية القوية بينها وبين مصر خصوصاً والبلاد العربية عموماً . ومن المعلوم أن نشاط التجارة في بلاد الشام ظاهرة قديمة ساعد عليها موقع البلاد وحيوية السكان .

أما ملاحظاته عن الوضع الاجتماعي في البلاد فقد كانت حافلة بالمعلومات المفيدة . فقد أوضح أن السلطة الأجنبية المتمثلة بالسلطين المغول كانت تحكم البلاد حكماً تعسفياً تلتف حولها طبقة منتفعة من الاقرباء ورجال الجيش وكان رجال الدين يلعبون دوراً رئيسياً في الحياة الاجتماعية وهم يتمتعون بنفوذ واسع . وأبرز - بأحاديثه المفصلة عن المدارس الدينية - مدى ما بلغته علوم القرآن والحديث والفقه والعلوم الاسلامية المختلفة الاخرى من تقدم ، كما أشار الى كثرة عدد المتعيشين من ورائها . ولم يكن هؤلاء من السوريين فحسب ، بل كان العديد منهم من أقطار عربية أو اسلامية اخرى .

وقد ذكر ابن بطوطة أن نظام الوقف الذي يطبق في دمشق خصوصاً وبلاد الشام عموماً كان يتكفل بتجهيز الفتيات من بنات الاسر المحتاجة للزواج ، كما يتعهد بتخصيص أموال لفك من يقع في الاسر من المسلمين

بل وكانت تخصص بعض المبالغ لتمهيد الطرق وتعديلها (١) . ولا ريب أن نظام الوقف هذا كان يمثل نوعاً من التأمين .

وأورد ابن بطوطة أيضاً بعض عادات أبناء دمشق ، ومثال ذلك أنهم كانوا يتعطلون عن أعمالهم يوم السبت ويخرجون إلى المتنزهات والبساتين يمضون فيها عطلتهم الأسبوعية ، وأنهم كانوا يفضلون تناول طعامهم خارج بيوتهم وأن أصحاب الحوانيت والمصالح يتناولون طعامهم في السوق .

وعلى العموم فقد نمت أحاديث ابن بطوطة عن أهالي بلاد الشام أنهم كانوا ينعمون بدرجة طيبة من الرفاهية ، وأن مستواهم الاجتماعي والاقتصادي كان مرتفعاً عموماً .

مصر

تركزت أحاديث ابن بطوطة عن مصر على رواية أخبار الشيوخ والقضاة ورجال الدين وكراماتهم ، وعلى تفقد الزوايا والتكايا والجوامع والمساجد . أما الملاحظات الجغرافية بشق أنواعها فقد وردت بشكل ثانوي ، بل وفي أشارات موجزة جداً في غالب الأحيان . وقد عزى بعض الكتاب هذه الظاهرة الى تقادم العهد على زيارة ابن بطوطة الاولى لمصر حتى لم يعد يذكر من تفصيلاتها شيئاً . ولهذا التفسير أساس من الصحة لكن عاملاً آخر أثر في توجيه ابن بطوطة في الحقيقة نحو هذه الوجهة وهو حماسه الديني كما أوضحنا سابقاً . والواقع أن ابن بطوطة قد برهن في ثنايا (رحلته) على اهتمامه الشديد بكل ما يتصل بالدين . وكانت

(١) « الرحلة » ، ص ٦٣ ج ١

مصر بالذات مؤثلاً للشيوخ والمتعبدین ذوي الزوايا والتكايا ، وكانت تفوق فی ذلك أي بلد عربي أو اسلامي آخر . فلا عجب أن تفص احاديث ابن بطوطة المستفيضة عن مصر بحكايات الشيوخ والأولياء وكراماتهم بدرجة تطفی على الجوانب الاخرى . ولهذا وردت ملاحظاته الجغرافية عن المدن المصرية بصورة موجزة ومتميرة حتى بالنسبة للاسكندرية والقاهرة التي أفاض الرحالون في الحديث عنهما ، وقد فاته تسجيل ملاحظات هامة عن هاتين المدينتين ففيما يتعلق بمدينة الاسكندرية مثلاً أورد تفصيلات تاريخية وحكايات دينية ذات قيمة ضئيلة ولم يتناول بالبحث جوانبها الجغرافية . واهتم في أحاديثه عن القاهرة بتعداد الزوايا والتكايا والمساجد ، بينما وصف الأهرام وصفاً موجزاً لا يكشف عن أهميتها ، ولم يذكر أبا الهول على الإطلاق بالرغم من أنه أحد الظواهر الأثرية الهامة في المدينة . وإذا كان لابن بطوطة عذرة في عدم الاهتمام بالآثار القديمة ، فلنسا ندري كيف يفسر عدم اشارته نهائياً الى (الأزهر) وهو المركز الديني الأعلى في مصر ، وفي رحابه يجتمع علماء الدين وفقهائه الكبار .

وإذا كان وصفه للمدن المصرية الكبرى موجزاً ، فقد كان حديثه عن المدن الصغرى أشد إيجازاً . وقد عني عناية خاصة بوصف مدن الوجه البحري .

ولعل أهم ملاحظاته في الجغرافية الطبيعية لمصر ما يتعلق منها بوصف نهر النيل وطريقة فيضانه . فقد اجتذبت انتباهه طريقة جريان النهر من الجنوب الى الشمال ، كما أثار اهتمامه حدوث الفيضان وقت الصيف . وقد وصف فيضان النهر على النحو التالي :

(ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار

وجفافها ، وابتداء نقصه حين زيارة الأنهر وفيضانها وهو يشبه بهذه الصفة نهر السند . وان أول ابتداء زيادته في حزيران (يونيه) فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ثم خراج السلطان . فان زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام . فان بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وان نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وان نقص ذراعين استمقى الناس وكان الضرر الشديد (١) وقد قرن كذلك فيضان النيل بفيضان نهر السند ، ومن المعلوم أن السند يفيض وقت الصيف أيضاً . وقد أكد ابن بطوطة أيضاً أهمية النهر الاقتصادية للبلاد وأثره في ازدهار الزراعة والاستيطان على ضفافه وقد قال في ذلك : (انه يفضل أنهار الأرض غذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة ، والقرى والمدن بصفتيه منتظمة ليس في المعهور مثلاً ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل) (٢) .

أما معلوماته عن مجرى النيل الأعلى فلم تكن واضحة ولا بد أنه استقها من أحد الجغرافيين العرب ، وربما كان مصدره الإدريسي . فقد أشار في موضع آخر من « رحلته » - لدى حديثه عن جولاته في السودان الغربي - الى نهر النيجر باسم النيل ، واعتبره أحد فروع أو روافد نهر النيل ، كما ذكر أن هذا الفرع للنيل ينحدر الى بلاد النوبة ثم الى دنقلة ، ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان من صعيد مصر (٣) . وهكذا افترض أن نهر النيل ينعطف غرباً في بلاد النوبة فينبع من أراضي السودان الغربي . وقد نادى

(١) « الرحلة » ، ص ٢٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٦ ج ٢

الادريسي بهذه الفكرة وظل يتداولها من بعده الجغرافيون العرب والمسلمون المتأخرون .

وقد وقع ابن بطوطة في بعض الأخطاء الجغرافية الاخرى كخلطه مثلاً بين بحيرتي البراس وتنيس واعتبارهما بحيرة واحدة (١) .

أما الأوضاع الاجتماعية في البلاد فقد صورها ابن بطوطة تصويراً عابراً عن طريق اشاراته الى الروح الدينية المتصوفة الغالبة على الشعب المصري . وكانت هذه الروح تبرز بشكل خاص في كثرة الزوايا التي يعتكف بها الشيوخ ورجال الدين وفي تبجيل الناس لهم وإيمانهم بمالهم من كرامات وما يمكن أن يقوموا به من معجزات .

وقد أوضح أن رجال الدين كانوا يمثلون طبقة متنغذة في طبقات المجتمع المصري تتمتع باحترام الامراء والحكام . غير أن بقية أفراد الشعب كانوا يرزحون تحت وطأة حكم مستبد يستأثر بخيرات البلاد ويتكهم على حافة الجوع . ومع ذلك فإن أفراد هذا الشعب البائس قد تمسكوا بحبهم للحياة ، فنجد ابن بطوطة يصف المصريين بأنهم ذوو لهو وطرب وسرور (٢) .

ويمكن القول أن أهم ملاحظات ابن بطوطة عن مصر هي تلك التي تمس الحياة الاقتصادية في البلاد . والواقع أنه كان يولي النواحي الاقتصادية عند مروره بالمدن المصرية أهمية خاصة ، وقد سجل ملاحظات ذكية تصور الواقع الاقتصادي في البلاد تصويراً واضحاً . وتنم ملاحظاته على ازدهار الوضع الاقتصادي في البلاد في جميع الميادين لاسيما في الميدان الزراعي . ولقد أثارت دهشة ابن بطوطة انتظام القرى والمزارع

(١) « الرحلة » ، ص ١٦ ج ١

(٢) المصدر السابق ص ٢٠

على نهر النيل من مدخله في الحدود المصرية لغاية مصبه في البحر المتوسط حتى لقد خيّل إليه أنه لا يوجد مثيل لها في العالم (١) . ومن المعروف أن ازدهار الزراعة في مصر ظاهرة قديمة تدين بوجودها لطريقة فيضان النيل في فصل الصيف بما دعا الفلاح المصري منذ أقدم الأزمان الى اتباع الطريقة التي يطلق عليها اسم (ري الحياض) . ومن الجدير بالذكر أن أهم المزروعات النقدية التي عني المصريون بزراعتها يومذاك هو الكتان الذي كان يصدر الى بقية الأقطار الأفريقية ، وكانت أهم مراكزه بوش ودلاص .

ولقد أدى التقدم الزراعي في البلاد الى ازدهار السكن والعمران لذلك اكتظت ضفاف النيل بالقرى والمدن . ولقد أكد ابن بطوطة على هذه الظاهرة أثناء حديثه عن تنقلاته بين المدن المصرية عن طريق نهر النيل إذ قال :

(ومن هذه المدينة [سمود] ركبت النيل مصعداً الى مصر [القاهرة] ما بين حدائق وقرى متصلة بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للصلاة ولشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من الاسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسوان) (٢) .

وقد انعكس هذا الازدهار الزراعي الذي صاحبه ازدهار صناعي وتجاري أيضاً على اتساع العمران وازدهام السكان في عاصمة البلاد والقاهرة ، وكذلك على نشاط النقل في نهر النيل . وقد أخذ العجيب من ابن بطوطة مأخذه لسعة المدينة وكثرة سكانها ، فذكر أن

(١) « الرحلة » ، ص ١٩ و ٢١ ج ١

(٢) المصدر السابق ص ١٩ ج ٢

أرضها مسير شهر لمجد السير ، وأنها تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها (١) . وقد يكون في وصفه للمدينة شيء من المبالغة ، وألا أنه يدل على كل حال على ارتفاع شأن المدينة وازدهار الحياة الاقتصادية فيها . ولعل مبالغة ابن بطوطة تتجلى في زعمه بأن البعض يقدر ما فيها من سقائين على الجمال باثني عشر ألف سقاء ، وما فيها من مكارين بثلاثمائة ألف مكار ، وما في نيلها من المراكب بستة وثلاثين ألف مركب (٢) . وكانت النقطة الأخيرة بالذات مدعاة لاتهام بالكذب والمبالغة ، لكن الرحالة الإيطالي فريسكو بالدي Frisco Baldi الذي مر بمصر بعده بحوالي نصف قرن أورد للمراكب العابرة لنهر النيل رقماً مقارباً لرقمه (٣) . وعلى أية حال فقد تكررت اشارات ابن بطوطة الى النقل المائي بواسطة نهر النيل بين المدن المصرية المختلفة ، وهي ظاهرة تدل على ازدهار الحياة الاقتصادية . وكانت مصر على صلات تجارية طيبة مع الأقطار العربية (لا سيما بلاد الشام) وكذلك مع الاقطار الافريقية على اختلافها . وقد أشار ابن بطوطة الى حديثه عن جولاته في بلدان السودان الغربي الى تنقل القوافل عبر الصحراء الكبرى بين مصر وجهات السودان الغربي حاملة الانسجة المصرية (٤) . وما يدل على أهمية النشاط التجاري في البلاد اهتمام السلطان بالمراكز الكمركية على حدود البلاد . فقد اشار ابن بطوطة الى مراكز التفتيش الكمركي على الطريق المؤدية الى الشام ، لا سيما مركز (قطيا) التي تعتبر ثغر الحدود . وقد ذكر أن مجي هذا المركز

(١) ، (٢) « الرحلة » ص ١٩

(٣) « دائرة المعارف » للمقدي ص ٣٦٩

(٤) « الرحلة » ص ٢١٠ ج ٢

يبلغ حوالي ألف دينار من الذهب كل يوم ، وأنه لا يمكن لأحد من الشام أن يجوز عليها إلا ببراءة من مصروفها الدواوين والعمال والكتاب والشهود . بل أن السلطات المصرية احتاطت لما يمكن أن يجرى من عمليات التهريب الى البلاد أو خارجها فوكلت القبائل العربية بحفظ هذا الطريق . وذلك بأن يمسحوا على الرمل وقت الليل حتى لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر الى الرمل فإن وجدوا أثراً طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم (١) . وهكذا نجح ابن بطوطة الى حد غير قليل في تصوير الأحوال الاقتصادية في مصر في ذلك العهد .

المغرب العربي والأندلس

كانت أحاديث ابن بطوطة عن مدن أقطار المغرب العربي ، وكذلك عن مدن الأندلس موجزة للغاية ، بل هي أشد ما في الرحلة إيجازاً . ويمكن أن نعلل ذلك بأن أحوال تلك البلدان ومدنها معروفة لمواطنيه ولم يكن في وسعه أن يضيف الى معلوماتهم ما يبهرهم . ومن المعروف أن كتابات الادريسي المفصلة عن المنطقة في مؤلفه (فزحة المشتاق في اختراق الأفاق) ، وكتابات البكري عنها في كتابه (المسالك والممالك) كانت مألوفة لدى جمهرة المتعلمين من مواطنيه . ولعل أهم اضافاته عن احوال تلك الأقطار ما يتعلق بجغرافيتها السياسية . فقد أوضح لنا انعدام الحكم الراسخ فيها وضعف السيطرة الحكومية خارج المدن . وكانت القبائل البدوية التي تجوب الصحراء العربية الكبرى تهدد المدن

(١) « الرحلة » ص ٣١ ج ١

تهديداً دائماً وتقطع طريق المواصلات البري الذي يربط فيما بينها .
لذلك كان المسافرون يفضلون الطريق البحري ما أمكن ذلك ، بالرغم
من أنه أشد بعداً وأكثر طولاً ، وبالرغم من تعرضهم لمخاطر لصوص
البحر وسراكب الدول المسيحية . ويبدو أن هذا الوضع القلق قد
أثر تأثيراً سلباً على نشاط الحياة الاقتصادية في أقطار المغرب العربي
لاسيما في تونس وليبيا ، فإن طابع الحمول على تلك البلدان . لكن
مراكش بالذات كانت تتمتع بحكم قوي على أيدي سلاطين الموحدين
بما جعلها بمنأى عن القلاقل والفوضى .

أما حديثه عن الأندلس فلم يشغل من « رحلته » سوى بضع
صفحات ، لكنه أوضح في تلك الصفحات الموجزة حالة القلق التي
كانت تعيشها الامارات الإسلامية المتيقمة في شبه جزيرة إيبيريا بعد أن
سقط أكثرها بأيدي الافرنج . فقد كان القتال قائماً بين المسلمين
والمسيحيين ، وكان السكان يعيشون حالة حرب دائمة ، وإن لم تؤثر
تلك الحالة على سير الحياة اليومية . وقد أكد ابن بطوطة على ما تتميز
به الزراعة في البلاد الاندلسية من تقدم ، وخصوصاً زراعة الفواكه
على اختلافها . كذلك أكد على تخصص بعض المدن بصناعات معينة
كصناعة الفخار المذهب في مدينة مالقة . وقد دهم لاتساع مدينة
غرناطة وازدهارها ، وذكر أن مراعها لا نظير لها في الدنيا من حيث
جماله وبساتينه وحقله ، وأنه يبلغ مسيرة أربعين ميلاً يقطعه نهر
شنل الذي يخترق أنواعاً رائعة من البساتين والرياض والقصور (١) .

(٢)

جنوب غربي آسيا

إن أهمية جولات ابن بطوطة في بلدان جنوبي غربي آسيا تنطوي على ما احتوته من معلومات جديدة عن بلاد الأناضول والقسطنطينية . أما ما ورد في (الرحلة) عن إيران فيكاد يخلو من أية أهمية علمية لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأدب الجغرافي العربي الغزير الذي ألف عن هذه البلاد منذ القرن الثامن الميلادي حتى عصر ابن بطوطة . وفضلاً عن ذلك فإن خط سير ابن بطوطة بين المدن الإيرانية كان متلفعاً بالغموض والارتباك ، كما أن ملاحظاته عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لم تكن قيّمة بشكل خاص .

أما كتاباته عن بلاد الأناضول فعلاوة على ما احتوته من معلومات أصيلة لم ترد في كتب معاصريه أو سابقيه من الجغرافيين المسلمين ، وإضافة الى ما حفلت به من حكايات طريفة ، فإنها ذات أهمية تاريخية خاصة . فمن المعلوم أن رحمان عثمان مؤسس الدولة العثمانية على جهات آسيا الصغرى كان قد بدأ منذ أوئل القرن الرابع عشر . وحينما توفي في نهاية الربع الأول من القرن نفسه كان قد نجح في الاستيلاء على مدينة بروسة (حوالي عام ١٦٢٩) (١) . وقد تولى ابنه اورخان

مقاليد الحكم وأتم الزحف على جهات بلاد الأناضول . وكان هذا الزحف ما يزال مستمراً في وقت زيارة ابن بطوطة لهذه البلاد . وكانت عملية قيام الدولة العثمانية آخذة في التبلور . ويقول جب بهذا الصدد : (تعتبر قصص ابن بطوطة عن تركيا من التقارير الأولية القليلة التي نمتلكها عن الايام الأولى للإمبراطورية العثمانية) (١) .

إيران

اجتاز ابن بطوطة ايران ثلاث مرات ، سافر اليها في المرة الأولى عن طريق جنوبي العراق (من منطقة الاهواز) ، ودخلها في المرة الثانية عن طريق البحر قادماً من عمان ، وعبرها في المرة الثالثة عن طريق البحر قادماً من عمان . وقد استطاع خلال هذه الرحلات الثلاثة أن يشهد معظم البلاد الايرانية المعمورة وأن يزور اكبر المدن الايرانية وأهمها مثل اصفهان وشيراز وعبادان وهرمز ومشهد . لكن خط سيره وتنقلاته بين تلك المدن كان - كما لاحظ جب - يفتقر الى الدقة والضبط في بعض الاحيان . فقد أخطأ مثلاً في طريق مروره بالمدن الايرانية بعد عودته من الهند ، فذكر أنه مر بمدينة كاورستان (خورستان) قبل مروره بشيراز ، بينما العكس هو الصحيح . ولاحظ جب أيضاً أن الاضطراب يسود تنقلاته بين مدن طوس والمشهد وشيخ جام ، وأن هناك فجوات واضحة في تنقلاته في المنطقة الشمالية الشرقية ، فقد قفز من بحر قزوين الى شمال افغانستان حيث تقع مدينة قندر على النهر

المسمى بنفس الاسم (١) . غير أنه غطى على أية حال مساحات من البلاد الإيرانية خلال جولاته . وقد أوضح لنا في سياق أحاديثه أنه كان يهدف في كل مرة الى زيارة بعض الشيوخ والأولياء . وقد شغل الكلام عنهم وعن زهدهم وكراماتهم جزءاً هاماً من اخباره عن البلاد الإيرانية ، إضافة الى أخبار الملوك والأمراء . لذلك يمكن القول أن ملاحظاته في الجغرافية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الإيرانية كانت عابرة وإن كانت قيمة في بابها . وقد انصبّت ملاحظاته الاجتماعية على إيضاح أثر الدين على سلوك الناس ، حيث بين لنا أنه كان يسيطر على تصرفاتهم سيطرة تامة . كذلك أوضح لنا نتائج الانقسام الطائفي في غربي إيران وآثاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد صور بأسهاب بعض العادات الاجتماعية السائدة لا سيما ما يتعلق بالبذخ على الأطعمة والأشربة التي أصبحت جزءاً أساسياً من النظام الاجتماعي . وقد خص سكان اصفهان بالذات بالكرم العظيم والتنافس فيما بينهم في تنوع الأطعمة وجودتها .

أما ملاحظاته الاقتصادية فتكشف عن ازدهار زراعة الفواكه في إيران التي كانت عصب الحياة الاقتصادية في البلاد ، وابرزها المشمش والسفرجل والعنب والبطيخ . وقد ذكر بأن مشمش اصفهان بالذات لا نظير له في بقية البلاد . وتقوم بعض الصناعات على الفواكه كصناعة قمر الدين من المشمش والتي تختص بها اصفهان .

وقد أشار ابن بطوطة الى صيد اللؤلؤ كمورد اقتصادي هام للبلاد ووصف بأسهاب طريقة صيده . وكان فيائي هرمرز وقيس (سيراف) اللذان يقعان على الخليج العربي اهم مراكز استخراج اللؤلؤ . وتتميز

أوصافه الجغرافية والطوبوغرافية للمدن والبلاد الايرانية بايجاز عموماً - عدا اصفهان وشيراز - ، كما وأنها تفتقر الى الوضوح والدقة احياناً . وفي أمثلة أهتمامه بالتفصيلات الطوبوغرافية إشارته الى الصحراء الممتدة بين بلدة ماجول ومدينة رامز ، وقد ذكر أنها موطناً للعشائر الكردية الرحالة التي تقيم في خيام الشعر . وقد وصف أيضاً منطقة الجبال في اقليم اللور وبيتن أن الطرق قد نحتت في تلك الجبال الشاخنة ، وسويت ووسعت بحيث تصعد الدواب بأحمالها ، وذكر أن طول تلك الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة ، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وتثبت على سفوحها اشجار البلوط الذي يصنع السكان محلياً من دقيقه الخبز .

بلاد الأناضول

تكتسب أحاديث ابن بطوطة عن بلاد الاناضول أهمية خاصة نظراً لأنها حدثت في وقت نشوء الدولة العثمانية . وقد حفلت بمعلومات قيمة عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد . بالاضافة الى أوصافها الجغرافية الهامة . إلا أن بعض جوانبها كان - مع ذلك - هدفاً لنقد طائفة من الباحثين . وقد انصب النقد بشكل خاص على الوصف الجغرافي للمدن وعلى المعلومات المتعلقة بنظام « الأخي » . فأما وصف المدن فبالرغم من أنه كان جيداً على العموم إلا أنه لم يخل من الغموض ، كما أن خط تنقلاته بين تلك المدن كان يفتقر الى الدقة أحياناً ويقول كراتشكوفسكي في تعليل ذلك : (أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى فيمكن رده الى ابن جزي الذي

حاول بلا شك أن يستخلص صورة متكاملة للجوانب بازاء العدد الكبير من أسماء الاماكن التي يذكرها ابن بطوطة . وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهداً بالآلا يأخذ طريقاً ما اكثر من مرة . ومن ثم فإن تحديد طريق سيره بدقة قد يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التي سلكها (١) ولاريب أن وجهة نظر كراتشكوفسكي مقبولة الى حد كبير ، فجهل ابن بطوطة بلغة القوم قد أدى الى الخلط بين اسماء المواضع الكثيرة التي مر بها ، كما سبب نوعاً من الارتباك في ذكرها بشكل منظم ومرتب ، لكن لقاء اللوم على ابن جزي لا مبرر له . ولقد أدى هذا الارتباك والخلط بنفر من الدارسين الى الاختلاف حول بعض اسماء المدن المذكورة . وقد بذل الاستاذ « جب » جهود مشمرة في تصحيح أسماء بعض تلك المدن وفي تقريبها الى المدن المعروفة وتحديد مواضعها الحالية .

أما نظام « الأخي » الذي تعرض بدوره المنتقد ، فقد شرحه ابن بطوطة على النحو التالي :

(واحد الأوخية أخى على لفظ الأخ إذا اضافته المتكلم الى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية وفي كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتقالاتاً بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن ألحق بهم من أهل الشر . والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على انفسهم . وتلك هي الفتوة أيضاً . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرير وما يحتاج اليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ويأتون اليه بعد العصر بما

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩

يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم حتى ينصرف . وأن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو واتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأُخْيَ (١) .

ويبدو هذا النظام بشكله البسيط على أنه نوع من الكرم المفرط والضيافة المنظمة ، أي أنه صفة من الصفات الخلقية الكريمة التي يتحلى بها سكان بلاد الأناضول . لكن بعض الكتاب ذهب إلى مدى أبعد في تفسيره . فقد شبهه العدوي بنظام النقابات الاقتصادية (٢) . وزعم كاتب آخر أنه نوع من أنواع نظام الفتوة الاسلامي الذي اشتق من نظام الفروسية العربي . كذلك عزا باحثون آخرون نشوء هذا النظام الى انعدام الحكم المركزي في أنحاء بلاد الأناضول يومذاك ، مما أدى الى تكون مثل هذه الجماعات التي تتولى بنفسها الهيمنة والاشراف على الامور (٣) .

وقد لا يكون موضوع تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية مهماً بقدر أهمية التحقق من وجودها بالفعل ، فهناك من ينكر وجود هذه الظاهرة ويعتقد أنها نموذج من مبالغات ابن بطوطة . والحقيقة أن اسراف ابن بطوطة في تصوير الخدمات التي يؤديها (الأُخْيَ) الى الضيف تثير الشكوك في صحة حكاياته ، غير أن تلك المبالغات حرية ألا تدعو الباحث الى رفض الظاهرة رفضاً تاماً ، ويلوح لنا أن ابن بطوطة لم يختلق حكاياته

(١) « الرحلة » ص ١٨١ ج ١

(٢) العدوي ، ص ٦٠

(٣) العدوي ، ص ٦١

من الخيال المحض ، إلا أنه سمح لمخيلته بأن تلعب دوراً رئيسياً فيها ، ففي مدينة العلايا كان النساء يبكين أسفاً لمفارقة الضيوف الغرباء (١) وعند دخوله وأصحابه الى مدينة لاذق (دون غزله) كاد يقع بين سكان المدينة شجار بالسكاكين تنافساً على ضيافتهم (٢) . وهناك مبالغات كثيرة من هذا النوع . وإذا سلمنا بواقعية تلك المبالغات فاننا نجابه بصعوبة اخرى تتمثل في اختفاء آثار هذه الظاهرة بين السكان الحاليين اختفاء تاماً . ومن المعلوم أن أمثال هذه التقاليد التي يتوارثها السكان أباً عن جد تصبح تراثاً ذا شخصية واضحة ، ولا يمكن أن تمحى آثارها كلياً وما يزيد في شكوك الباحثين أن المؤرخين الذين عاصروا ابن بطوطة أو جاؤا بعده لم يشيروا الى وجود تلك الظاهرة وقد ذكر الاستاذ محمود الشرقاوي في كتابه عن ابن بطوطة أن آثار تلك الظاهرة الاجتماعية تتمثل في تقاليد طائفة يطلق عليها اسم (الكاكاية) (٣) . ويقطن هؤلاء القوم - وهم من أصل تركي - في بعض قرى لواء كركوك في العراق . وتلك ملاحظة جديرة بالاهتمام . فكلية « الكاكاية » تعني « الأخوة » بالفعل . ويتخذ النظام المطبق بين هؤلاء الجماعات شكلاً من أشكال النظام الاشتراكي بأبسط تبعاته الاجتماعية ، ويدين أبناء القرية بالولاء لزعيم يتولى تنظيم حياتهم الاقتصادية . لكن الصفة التي يؤكدوها ابن بطوطة وهي صفة الضيافة ، لا تتمثل بمجتمع الكاكائيين لأنه مجتمع مغلق لا يرحب بالغرباء .

ولقد سجل ابن بطوطة ملاحظات اجتماعية هامة اخرى تكشف

(١) « الرحلة » ص ١٨٠ ج ١

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤

(٣) الشرقاوي ، ص ١٠٧

عن الوضع الاجتماعي قبل تبلور الدولة العثمانية ، ومثال ذلك انتشار تعاطي « الخشيش » انتشاراً واسعاً بين مختلف طبقات السكان (١) . كذلك سجل ملاحظة أخرى تنم عن تحلل النظام الاجتماعي وهي انتشار البغاء العلني على نطاق واسع . وقد قال في ذلك : (وأهل هذه المدينة - مدينة لاذق - لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كلهم . وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتكوهن للفساد . وكل واحدة عليها وظيف لما لكها تؤديه له . . وذكر لي أن القاضي له جوار على هذه الصورة) (٢) .

وكان يقابل هذا التحلل الاجتماعي اغراق من الدين لدى طائفة من الناس ، مما أدى الى انتشار الطرق الصوفية التي كان يحظى أتباعها بمنزلة عالية في المجتمع . وكانت من أكثر الطرق الصوفية انتشاراً طريقة (الجلالية) المنسوبة الى جلال الدين الرومي و « الرفاعية » المنسوبة الى الشيخ أحمد الرفاعي .

وعني ابن بطوطة أيضاً بأحوال المرأة التركية وبمكانياتها في المجتمع وأوضح انها تتمتع بمكانة طيبة . وبالرغم من أنه أشار بصورة عابرة الى عدم تحجب النساء التركيات إلا أن تلك الظاهرة كانت كما يبدو قاصرة على طبقة خاصة من النساء هن زوجات السلاطين والامراء والحكام وكذلك الجواري . وقد ذكر أيضاً أن بعض النساء كن يشتهرن بالفروسية كما كان بعض زوجات السلاطين يتقلدن مقاليد الحكم بدلاً من أزواجهن . أما ملاحظاته عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد فقد كانت مفيدة ووافية . فقد أوضح أن زراعة الفواكه بشكل خاص مزدهرة في البلاد

(١) « الرحلة » ص ١٨٠ ج ١

(٢) « الرحلة » ص ١٨٤ ج ١

لاسيما زراعة الكروم والجوز والمشمش والقسطل ، وهي في الغالب جبلية كما أشار الى أهمية الرعي في اقتصاد البلاد . ومن المعلوم أن هضبة الأناضول كانت وما تزال من أفضل مواطن الرعاة في بلدان الشرق الأوسط . ولا شك أنها كانت أفضل حالاً حينما كانت مساحات واسعة من الأرض تترك بوراً . وهناك ملاحظة لابن بطوطة تنم عن هذا المعنى فقد ذكر أن البهائم عندهم لم تكن تأكل العشب اليابس بل تجد على الدوام ما يشبعها من الحشيش الأخضر .

وأبدى ابن بطوطة اهتماماً خاصاً بالصناعة ، وأوضح أنها تقوم أساساً على الانتاج الزراعي والرعي . وما زاد في ازدهار الصناعة العلاقات التجارية الواسعة التي كانت قائمة بين بلاد الأناضول والبلدان المجاورة لاسيما مع مصر وبلاد الشام . وكانت بلاد الأناضول تصدر عديداً من انتاجها الى تلك الأقطار . فقد كانت تصدر الأخشاب إلى مصر . وشراب قمر الدين الى مصر وبلاد الشام ، وبسط أقصرا التي تصنع في مدينة أقصرا من صوف الغنم الى الشام ومصر والعراق والهند والصين .

وكان يصنع في البلاد مختلف أنواع الأنسجة ، ولعل من أشهرها صناعة الأنسجة القطنية المقلمة بالذهب ، وهي صناعة كان يقوم بها النساء بشكل خاص لاسيما في مدينة لاذق . ويذكر ابن بطوطة أن هذه الأنسجة لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها (١) . وكانت مدينة ارزنجان تشتهر أيضاً بصناعة ثياب جيدة تنسب إليها . وكان استثمار موارد الثروة الاخرى نشطاً أيضاً . فقد كانت الأخشاب تقطع من الغابات الكثيرة وتصدر الى مصر والبلاد الاخرى ،

وكان معدن النحاس يستثمر في ارزنجان وتصنع منه الأواني ، ومعدن
الفضة يستثمر في جوار كمش .

القسطنطينية

بالرغم من ان القسطنطينية جزء من آسيا الصغرى ، إلا أننا أفردنا ،
لها موضعاً خاصاً نظراً لما أثارته زيارة ابن بطوطة لهذه المدينة من جدل
بين الدارسين . وكانت القسطنطينية تمثل وقت زيارة ابن بطوطة - مع
بعض المناطق المحيطة بها - آخر ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية .
ولقد قص ابن بطوطة باسهاب أخبار زيارته لهذه المدينة والطريق
الذي سلكه إليها ، وتحدث عن معالم المدينة بالتفصيل . وبالرغم من أن
أوصافه للمدينة وللحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها - تتم عن
دقة وأصالة ، فان بعض الأخطاء والتأريخية التي وقع فيها ، اضافة الى
شطحات خيالية ، قد أثارت جدلاً عظيماً بين الباحثين . ومن الجدير
بالذكر أن ابن بطوطة كان الرحالة المسلم الوحيد في عصره الذي استطاع
زيارة القسطنطينية . وتبدو القصة التي روى فيها طريقة زيارته للقسطنطينية
أقرب الى الخيال منها الى الواقع . فقد ذكر أنه طلب من السلطان
محمد أوزبك الذي كانت بلاد الأناضول خاضعة له أن يرافق احدى
زوجاته أثناء زيارتها لوالدها امبراطور القسطنطينية فوافق السلطان على
ذلك . ويقول جب ، وهو من المتحمسين في تصديق ابن بطوطة ، أن
المؤرخين البيزنطيين لا يوردون أي ذكر لوجود مصاهرة بين أي خان من
خانات القرن الذهبي (محمد أوزبك أو غيره) وبين الامبراطور
اندرونيكس الثالث . هذا فضلاً عن أن الامبراطور المذكور ، كان وقت

زيارة ابن بطوطة أي في عام ١٣٣١ م في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره (١) . وكانت هذه النقطة بالذات من النقاط المهمة التي استند إليها المتشككون في رفض حكاية ابن بطوطة .

وهناك نقطة أخرى تبعد الحكاية عن الواقع وتقربها من الخيال وهو تأكيده على اهتمام الخاتون بيلون به ، مع أنها كانت في قرارة نفسها تكره الاسلام ، والدليل على ذلك أنها ارتدت حالما وصلت الى القسطنطينية ثم انه يشير الى استقبال السلطان محمد أوزبك للوفد لدى عودته من القسطنطينية بقوله : (فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمنا) (٢) فكيف يعقل ألا يسألهم عن زوجته الخاتون بيلون التي رفضت العودة معهم وارتدت عن الاسلام ؟ ! .

وهناك نقطة ثالثة تتعلق بمقابلة ابن بطوطة لوالد الامبراطور أندونيكس الثالث الصغير وكان قد هجر الحكم وسلم المقاتل لولده . فالمؤرخون يذكرون بأن الامبراطور المذكور كان قد توفي قبل تأريخ المقابلة المشار اليها بما يزيد عن عام .

وأخيراً فقد استند المتشككون ايضاً في رفض حكاية ابن بطوطة عن القسطنطينية الى غموض الطريق الذي وصفه للوصول إليها . وتكون معظم المواضيع التي ذكر أسماءها غير معروفة للمؤرخين أو المختصين بالجغرافية التاريخية . (٣)

(١) « جب » ، ص ٢٥٧

(٢) « الرحلة » ص ٢٣٠ ج ١

(٣) لقد وصف ابن بطوطة طريقه الى القسطنطينية كما يلي :

(ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباالمطوق : وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك ، بينها وبين -

لكن رفض زيارة ابن بطوطة للقسطنطينية استناداً الى المبررات المذكورة أعلاه. تنطوي على تعسف واضح ، لا سيما إذا استعرضنا معلوماته الصحيحة عن المدينة وملاحظاته الدقيقة عن الحياة الاجتماعية الاقتصادية والدينية فيها . والواقع أن وصفه للقسطنطينية لا يمكن أن يكون من أبتكار الخيال بأي حال من الاحوال لأنه لم يكن وصفاً عاماً ينطلق على أي مدينة كانت - شأن وصفه لأغلب المدن الأخرى - كما أننا لا يمكن بالمثل أن نتهمه باستعارة معلوماته من أحد المراجع العربية لأنه كان أول رحال عربي يشاهد القسطنطينية في ذلك العصر . وقد يجوز اتهامه بنقل معلوماته من أحد الاسرى العرب الذي أمضى في القسطنطينية فترة أسره . وكان يحدث أن يحمل الاسرى المسلمين الى القسطنطينية ثم يفتدون بالمال أو يبادلون بالأسرى الروم . لكن هذا الاتهام ينطوي على التعسف أيضاً ، لأن حكاية الاسير لا يمكن أن تنطبع في ذهن ابن بطوطة بمثل تلك التفاصيل الدقيقة . فحديثه عن قسمي المدينة الشرقي والغربي ، ووصفه لخليج القسطنطينية (بحر مرمره) ولسور المدينة ، وكذلك وصفه المسهب لكنيسة أيا صوفيا (وأن كان قد أكتفى برصفها من الخارج لأنه لم يستطيع الدخول اليها) ، وأخيراً ملاحظاته الدقيقة عن طبيعة الحياة الدينية في القسطنطينية وعن أهمية الأديرة وعددها الكبير ونمط الحياة فيها ، كل ذلك لا يمكن ان يكون من

- أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات. ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا يوم فارقتنا السلطان الى أول البرية تسعة عشر يوماً واقامتنا خمسة . ورحلنا من هذه للبرية ثمانية عشر يوماً مضى ومضى ، ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولي وهو أول عمالة الروم) ه الرحلة ج ١ ص ٢٢٢ .

ابتكار الخيال ، كما لا يمكن أن يكون منقولاً عن حكاية مروية .
ولقد أبد المستشرقون الذين درسوا « الرحلة » بعناية وترو
زيارته القسطنطينية وعلى رأسهم الاستاذان جب وكراتشكوفسكي .
ويعتقد أن غموض الطريق الذي سلكه ابن بطوطة نحو القسطنطينية
وعدم ضبطه للمدن لا يستدعي انكار الزيارة كلياً . ويبرز ذلك بأن عدم
الفقه ابن بطوطة للأسماء وجهله بلغة القوم قد أدى الى تحريف شديد
في بعض الأسماء ، لاسيما وأنه حاول تذكرها بعد مضي ما يقرب من
ربع قرن (١) . كذلك يعتقد جب أن مقابلة ابن بطوطة للامبراطور
اندرونيكس الثالث قد لا تكون مختلفة كما يخيّل لبعض المؤرخين نظراً
لوفاة الامبراطور قبل التاريخ المذكور بعام واحد ، والأرجح أن يكون
ابن بطوطة قد أخطأ في تأريخ زيارته ، وانها ربما وقعت ما بين عام
١٣٣١ - ١٣٣٢ م (٢) . ويستطرد جب الى القول بأن وصف المدينة
بتلك الدقة والشمول لا يمكن أن يكون صادراً إلا من شخص شاهدها
بنفسه وتمتع بتسهيلات كتلك التي تمتع بها ابن بطوطة . وفضلاً عن
ذلك فإن ملاحظاته عن الحياة الدينية فيها ، لاسيما عن عدد الأديرة
والرهبان تأيدت من قبل كتاب غربيين زاروا القسطنطينية في نفس
الفترة فقد ذكر برتراندون دي لابلوكير Bertrandon de Bloquiere
بأن عدد الكنائس في المدينة يبلغ حوالي (٣٠٠٠) كنيسة وأن أغلب
السكان يعيشون في الأديرة (وذلك حوالي عام ١٤٣٢ - ١٤٣٣) (٣) .
ولقد أيد كراتشكوفسكي ايضاً جب في رأيه ، وذكر بأنه على

(١) « جب » ص ١٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٨

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٨

الرغم من أن اضطراب التواريخ كان سبباً في حدوث بعض الخلط لدى ابن بطوطة ، إلا أن من المعترف به بأن وصفه للمدينة نفسها يتسم بطابع الصحة ولا يمكن أن ينتج إلا عن معرفة مباشرة (١) .

ومن الممكن القول بأن معلومات ابن بطوطة عن الامبراطورية البيزنطية ومدينة القسطنطينة بالذات كانت معلومات أصيلة وعلى جانب كبير من الاهمية ، ولا يقلل من أهميتها ما تضمنته من شطحات الخيال ومن ادعاءات زائفة .



(٣)

آسيا الوسطى

شملت جولات ابن بطوطة في آسيا الوسطى بلاد القرم وجنوبي روسيا وتركستان ، وهي مناطق كان يحكمها السلطان محمد أوزبك خان القبيلة الذهبية . والسلطان محمد أوزبك هو أحد سلاطين القرن الذهبي وقد حكم بين عام ١٣١١ - ١٣٢٠ م ، وكانت مملكته تمتد من كيف والقوقاز الى بحر أورال وخيفا . وهو حفيد أحد خانات المغول الأربع الذين قسمت فيما بينهم امبراطورية جنكيز خان . وكان جنكيز خان قد استطاع في عام ١١٨٩ م أن يوحد تحت زعامته قبائل المغول التي تنتشر في صحاري منغوليا ثم يزحف على الصين ويستولي عليها عام ١٢١٩ م . ثم اتجه غرباً وأخذ يفتاح بلاد المسلمين فدمر مدن بلاد ما وراء النهر لاسيما بخارى والعاصمة سمرقند ، كما استولى على بلاد فارس وسيطر على جميع مناطق اواسط آسيا . وبعد وفاته انقسمت امبراطوريته الى أربعة اقسام بين أبنائه الأربعة فاستقل أحدهم بالصين وتولى الثاني حكم المنطقة الوسطى ، ونال الثالث وهو هولاكو بلاد فارس وأخذ الرابع الجزء الغربي ولقب بـ (خان القبيلة الذهبية) ومن المعروف أن هولاكو كان قد زحف على بغداد فيما بعد واسقطها ودمرها عام ٦٥٦ هـ . واستمر في زحفه غابراً نهر الفرات متجهاً نحو بلاد الشام ، لكن السلطان

الظاهر بيبرس تصدى له في عين جالوت وأوقع في جيشه هزيمة منكرة في عام ٦٥٨ هـ فتراجع عن بلاد الشام .

وكان خان أور رئيس القبيلة الذهبية المسمى بركة خان والذي يحكم تركستان والأراضي الواقعة وراء النهر أول من أسلم من أمراء المغول . أما السلطان محمد أوزبك فهو أحد أحفاده . وهكذا يتضح لنا أن ابن بطوطة قد صور أوضاع المغول وحياتهم الاجتماعية في أول عهدهم بالاسلام . وتبرز هنا أهمية المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي وردت في (الرحلة) ، فهي تعتبر معلومات أصيلة لم يسبق ابن بطوطة إليها أحد . إلا أن معلوماته واوصافه الجغرافية للمنطقة لا ترقى الى مستوى المعلومات الاجتماعية والتاريخية عنها لاسيما وأن كتب الجغرافية العربية السابقة قد حفلت بالمعلومات الجغرافية القيمة عن تلك الجهات .

بلاد تركستان

لقد دخل ابن بطوطة بلاد السلطان محمد أوزبك حينما رست به السفينة في ميناء كافا الواقع على الساحل الشمالي للبحر الأسود . وكان معظم سكان هذا الثغر من التجار الجنوبيين . ثم رحل عنه الى مدينة القرم . ثم تنقل بين مدن عديدة في مناطق القفقاس وجنوبي روسيا قاصداً مدينة السرا عاصمة السلطان محمد اوزبك والتي كانت تقع قرب مدينة استراخان .

ولقد كانت أحاديث ابن بطوطة عن القبائل التركستانية التي تتجول في هذه الجهات ذات قيمة خاصة لأنها اشتملت على ملاحظات قيمة

في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والادارية . ويعتبر ابن بطوطة أول رحاله مسلم صور النظام الأسري لدى تلك القبائل وأوضح مكانة المرأة فيه . وقد بهرته تلك المكانة العالية ، ولاحظ أنها أعلى شأنًا من مكانة الرجل (١) . فقد كانت الأوامر السلطانية تصدر باسم السلطان وزوجه الخاتون (٢) . وكان السلطان في مجلسه الرسمي يستقبل الخاتون الكبرى عند باب القبة ، وكانت تجلس الى يمينه ، بينما تجلس الخاتون الصغرى الى يساره (٣) . وكان نساء الطبقة العامة من الباعة والسوق يتمتعن بنفس المكانة ، فقد لاحظ انهن لا يحتجن ، وان احداهن قد تأتي الى السوق بالغنم واللبن فتبيعه الى الناس بالسلع العطرية ، وربما كان معها زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها (٤) ويبدو أن النظام السائد لدى هذه القبائل هو النظام الامي Matriarchal الذي تحتل فيه المرأة المكانة الاولى في الاسرة .

وقد أفاض ابن بطوطة أيضاً في وصف الجوانب الاخرى من حياة القبائل التركستانية ، وتحدث عنها في حلما وترحالها وفي مآكلها وملبسها ومشربها عما هيأ لنا صورة ودقيقة عن نمط حياة تلك القبائل ويمكن القول أن ملاحظاته في هذا الباب تعتبر من أفضل الكتابات الانثروبولوجية العربية القديمة . ومن نماذج تلك الملاحظات وصفه لطريقة ترحل تلك القبائل الذي سجله على النحو التالي :

(وارتحلنا الى موضع المحلة [محلة السلطان] فوصلنا أول يوم

(١) « الرحلة » ص ٢٢١

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٣) « الرحلة » ص ٢١٣

(٤) المصدر السابق ص ٢١٢

من رمضان فوجدنا المحلة قد حلت فعدنا الى الموضع الذي رحلنا منه لأن المحلة تنزل بالقرب منه . فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك . وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأُرد فرأيتا مدينة عظيمة تدير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعداً في الهواء وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم . فاذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والخوانيت (١) وقد تحدث ابن بطوطة أيضاً عن غذاء هذه القبائل فذكر أنهم لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاماً من شيء شبه الانلي يسمونه (الدوفي) . ثم يستخنون الماء ويصبون عليه شيئاً من الدوفي ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صفاراً وطبخوه ، ثم جعلوا لكل رجل نصيبه في صحفة وصبوا عليه اللبن الرائب وشربوا عليه الخل وهم يسمونه (القمز) . وقد يستعملون في بعض الاوقات طعاماً يسمونه (البورخاني) وهو عجينة يقطعونه قطيعات صفاراً ويشقّبون أوساطها ويجعلونها في قدر ، فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها . ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوفي ، أما الحلواء فيرون أكلها عيباً (٢) . وأفاض ابن بطوطة أيضاً في وصف احتفالات الاعياد الدينية لدى القبائل التركسانية ، وهي احتفالات يشترك فيها السلطان والامراء وأفراد الشعب ويبالغون في الاحتفاء بها وبمراسيمها مبالغة عظيمة . وقد صور ابن بطوطة تلك الاحتفالات تصويراً خلافاً حياً . واتخمتها بتفصيلات

(١) « الرحلة » ص ٢٠٨

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٨

دقيقة قد يكون من الصعب أن تحتفظ الذاكرة بكل دقائقها (١) .

أما وصفه لعادات بلاط السلطان محمد اوزبك وللمراسيم والبروتوكول والاحتفالات التي تتم فيه فكانت على قدر عظيم من الاطناب والتفصيل ، لاسيما ما يتعلق منها بالحديث عن نساء السلطان ومراتبهن وطريقة حياتهن (٢) . ومن المتعذر على الباحث الاقتناع بأن ذاكرة ابن بطوطة قد احتفظت بكل تلك التفاصيل ما يقرب من ربع قرن والظاهر أن خياله قد لعب دوراً في تنميق تلك الأوصاف . ومهما يكن الأمر فقد اشتملت على حقائق كثيرة ، وهي ذات قيمة كبيرة باعتبارها أقدم الأوصاف المسجلة في الكتب العربية عن بلاط السلطان التركستاني المسلم ، ولهذا فهي تعتبر مرجعاً أولياً هاماً في بابها .

أما ملاحظاته عن الأوضاع الاقتصادية للقبائل التركمانية فلم تكن ضافية شأن ملاحظاته الاجتماعية ، إلا أنه أوضح فيها ناحيتين هامتين : الأولى أن تجارتها تقوم عموماً على المقايضة ، وهو الأسلوب المعهود في تجارة القبائل المترحلة . والثانية اعتماد اقتصاد تلك القبائل على تجارة الخيول . وهذا أمر ليس بالمستغرب ، فمن المعروف أن أراضي تركستان هي الموطن الأصلي للحصان ، ومنها انتشر الى مناطق العالم الاخرى . ويبدو أن تجارة الخيول في تلك البلاد كانت رائجة جداً ، بالنظر لكثرة عددها وضآلة أثمانها (٣) . وقد سجل لنا ابن بطوطة وصفاً طريفاً لطريقة تصديرها الى الخارج (الهند) ، على النحو التالي :

(وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند ، فيكون في الرفقة منها ستة

(١) « الرحلة » ص ٢١٩ - ٢٢٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٧

(٣) المصدر السابق ص ٢١٠

آلاف وما فوقها وما دونها ، لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه . ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغنم ، ويسمى عندهم القشي . ويركب أحدها ويده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه . ويترك الآخر للمرعي . وإذا وصلوا إلى أرض السند أطعموها العلف . ويموت لهم منها الكثير ويسرق (١) .

أما ملاحظات ابن بطوطة الأخرى عن بلاد ما وراء النهر وتركستان فلم تكن ذات قيمة تذكر على العموم ، ولكنه صورّ بنجاح ما لحق مدنها - لا سيما بخارى وسمرقند - من تخريب وتدمير على أيدي المغول . وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالحديث عن امرائها السابقين وعن كرامات شيوخها المشهورين ، كما روى بعض الأحداث التاريخية التي يبدو أنها لم تكن دقيقة دائماً . أما ملاحظاته الجغرافية عن تلك البلاد فلم تشمل سوى مظاهر طبيعية محدودة . فقد أشار مثلاً إلى تجمد مياه نهر جيحون في فصل الشتاء كما وصف طريقة عبوره (٢) . كذلك صورّ قسوة الشتاء في صحراء تركستان وبالغ في ذلك مبالغة واضحة . ومن أمثلة مبالغاته وصفه لعبور دشت قفجق ، حيث قال :

(وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن ، وفي رجلي خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب . وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها وإذا غسلت وجهي بالماء فينحدر إلى الحيتي فيجمد فأحركها فيسقط شبه

(١) « الرحلة » ، ص ٢١٠

(٢) « الرحلة » ص ٢٣٢

الثلج . والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب . وكنت لأستطيع
الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي (١) .

بلاد البلغار

إن زيارة ابن بطوطة لبلاد البلغار أو مدينة البلغار قد اثارت
شكوك نفر من دارسي « الرحلة » وتنصب تلك الشكوك على ناحيتين :
الاولى عدم تحديده لموضع مدينة البلغار بوضوح ، والثانية وصفه لتجارة
بلاد الظلمة وصفاً قريباً من الخيال .

فأما مدينة البلغار فقد حدد ابن بطوطة موضعها بأنها تبعد عن
حلة السلطان في بشدغ الواقعة قرب مدينة الماجر بمسيرة عشر (٢) .
وهذا التحديد كما يتضح ينقصه الوضوح . لكن الأدب الجغرافي الاسلامي
في الواقع كان على معرفة بهذه المدينة . وقد تحدث عنها أحمد بن
فضلان في رسالته المعروفة ووصف طريق الوصول اليها بالتفصيل . وقد
اعتمد ياقوت الحموي على وصف ابن فضلان في تعيين موضعها ، وحددها
على النحو التالي :

(بلغار بالضم والغين معجمة مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال
لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفاً ولا شتاءً ، وقلما يرى أهلها أرض
ناشفة وبنائهم بالخشب ، وبين أنل مدينة الخزر وبلغار على طريق المفاوز
نحو شهر ، ويصعد اليها في نهر أنل نحو شهرين وفي الحدود نحو عشرين

(١) « الرحلة » ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٢١٧

يوماً ومن بلغار الى بشجر خمس وعشرين مرحلة (١) .

ومن الواضح أن موقع مدينة البلغار المذكورة لا علاقة له ببلاد البلغار الحديثة التي تقع على الضفة الغربية للمبحر الأسود . وقد حدد أحد المصادر الحديثة مدينة البلغار على خط عرض ٥٤° ٥٤' شمالاً (٢) . أما الاستاذ جب فيقول إن آثار مدينة البلغار تقع على الضفة اليسرى لنهر الفولغا تحت التقائه بنهر كاما Kama . ويضيف الى ذلك قوله بأن هذه المدينة كانت عاصمة لمملكة بلغاريا الكبرى وانها كانت مركزاً رئيسياً لتوزيع تجارة روسيا وسيريا ، وقد استولى عليها المغول في القرن الثالث عشر (٣) .

ولقد دعا موقع المدينة هذا الاستاذ جب الى التساؤل - ونحن بدورنا نتساءل معه - عن كيفية قطع ابن بطوطة للمسافة بين مدينة الماجر ومدينة البلغار بمسيرة عشرة أيام مع العلم أن بين المدينتين ما يقرب من (٨٠٠) ميلاً ؟ .

ومع أن هدف ابن بطوطة من رحلته الى مدينة البلغار كان - كما اوضحه - التأكد من قصر النهار أو الليل ، إلا أنه مع ذلك أشار الى هذا الموضع اشارة عابرة ، بينما تحدث في موضع ثانوي حديثاً مسهباً ولم تنم إشارته تلك عن استيعاب للموضوع . فلقد قال : (ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفرطنا وأذن بالعشاء في اثناء افطارنا فصلينا وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر إثر ذلك ، وكذلك

(١) « معجم البلدان » لياقوت الحموي ج ١ ص ٤٨٥ - ٤٩٠ ، منشورات دار صادر

ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٥ .

(٢) « الانسكلوبيديا البريطانية » - ابن بطوطة

(٣) « جب » ، ص ٣٧٥

يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً (١) . ومن الواضح أن في إمكان أي شخص سمع بتلك الظاهرة أن يصفها كما فعل ابن بطوطة من دون أن يكون قد شاهدها بنفسه ، فضلاً عن أن هذا الوصف يقتدر إلى الدقة إذ لا يبلغ قصر الليل في تلك الجهات إلى ذلك الحد في الحقيقة . وتتجلى سذاجة هذا الوصف بمقارنته بوصف ابن فضلان الذي زار المنطقة بنفسه وسجله على النحو التالي :

ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً . إذ أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار . فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة . وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب البتة وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة السهم . . ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع في أرجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر . .

ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى ، فلا تزال الحمراء كذلك حتى تتكبد السماء . وعرفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل حتى أن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له أتل بيننا وبينه مسيرة أقل من فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى القمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء . فما برحنا من البلدة حتى امتد الليل

وقصر النهار (١) -

وهكذا فان تحديد ابن بطوطة اللامنطقي للمسافة بين ماجار وبلغار وكذلك حديثه الموجز الغامض عن ظاهرة قصر الليل والنهار يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يزر مدينة البلغار بنفسه ، بل نقل ما تناهى اليه من معلومات عنها .

أما ما يتعلق بوصفه لطريق التجارة في بلاد الظلمة والذي اثار بالمثل الشكوك حول رحلته فلا يمكن ان يتخذ عاملاً ضده . فهو لم يدع زيارة تلك البلاد . وقد قال في ذلك : (وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة والدخول اليها في بلغار ، ثم اضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى) (٢) . ولا ريب أنه نقل معلومات عن التجار الذين التقى بهم في عاصمة السلطان محمد أوزبك خان . وكان قد ذكر لدى حديثه عن عاصمة محمد أوزبك أنها تشتمل على حي خاص بالتجار الاجانب الذين يفدون عليها من جميع الجهات ، وفيهم العراقي والمصري والشامي (٣) . وكان نفر منهم يفاخر بالسفر الى بلاد الظلمة (سيبيريا) للتجار بالفراء . ويبدو أن تجارة الفراء كانت رائجة جداً بالرغم من غلاء اسعارها . وقد ذكر ابن بطوطة أن بعض انواعها تباع في الهند بحوالي مائتين وخمسين ديناراً ذهباً ، وقد يصل سعر بعضها الى اربعمائة ديناراً ذهباً (٤) . ولقد صور ابن بطوطة طريقة التجارة في بلاد الظلمة

(١) « رسالة ابن فضلان » - حققها الدكتور سامي الدهان . مطبوعات المجمع العلمي العربي

بدمشق ١٩٥٩ ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) « الرحلة » ص ٢١٧ ج ١

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠

(٤) المصدر السابق ص ٢١٨

على النحو التالي :

(فاذا اكملت للمسافرين بهذه الغلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد . فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم . فان أرضى صاحب المتاع ما وجدته إزاء متاعه أخذه ، وإن لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم اعني أهل الظلمة ، وتركوا امتاع التجار . وهكذا يبيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجنس هو أم الانس ولا يرون أحداً) (١) .

ولقد اعتبر كراتشكوفسكي حديث ابن بطوطة هذا عن بلاد الظلمة يعود إلى فكرة غير موثوق بها أو الى مصدر أدبي أساء فهم روايته (٢) لكن الواقع أن كتب الجغرافية العربية التي يمكن أن يستقي منها ابن بطوطة أو ابن جزي معلوماتهما لا تشتمل على أي وصف من هذا النوع لبلاد الظلمة . ومن المعلوم أن أهم رحلتين زار صاحباها منطقة الفولجا هما رحلة ابن فضلان ورحلة أبي حامد الغرناطي ، وهاتان الرحلتان تخلوا من مثل هذه المعلومات ومع أن وصفه لطريقة التجارة في بلاد الظلمة يبدو غريباً فعلاً وأقرب الى الخيال ، إلا أنه لا يخلو من جذور واقعية . فقد نقل الدكتور زكي محمد حسن - بصدد دفاعه عن حكاية ابن بطوطة هذه - حديثاً للاستاذ الونشير في كتابه : *La Decouverte de L'Afrique Moyen Age* يذكر فيه أن الأوربيين قد عرفوا هذا الاسلوب في التجارة مع الهنود الحمر في امريكا ، كما

(١) « الرحلة » ص ٢١٨

(٢) كراتشكوفسكي ص ٤٢١

عرفه الفرطاجنيون مع بعض الامم في العصور القديمة ، وعرفه الأحباش مع بعض القبائل الافريقية في القرن السادس الميلادي (١) . ومن المعروف أيضاً ان الأقزام الافريقيين يتبادلون التجارة مع جيرانهم الزوج على هذا التحديد وهو ما يطلق عليه اسم (التجارة الصامتة) (٢) . وإذا كان حديث ابن بطوطة عن التجارة في بلاد الظلمة مشيراً للشكوك ، فان وصفه لطريقة السفر في تلك البلاد دقيقاً وصادقاً . ولقد سجله على النحو التالي :

(والسفر إليها - أي إلى سيبيريا - لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم آدمي ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها في الجليد . ولا يدخلها إلا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة ، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها . وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات الخ) (٣) وهكذا يتبين لنا أن معلومات ابن بطوطة عن تلك الجهات مفيدة وصحيحة عموماً بالرغم من أن وصوله الى بلاد بلغار أمر مشكوك فيه

(١) « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » للدكتور زكي محمد حسين ، دار المعارف بمصر

القاهرة ١٩٤٥ .

2 - page , J . W , « primitive races of to - day » london 1938 , p . 15 :

(٢) « الرحلة » ص ٢١٧ ج ١

(٤)

الشرق الأقصى

تشمل جولات ابن بطوطة في الشرق الأقصى الهند وجزر المحيط الهندي والصين ، ويشغل حديثه عن هذه الجولات ما يقرب من نصف « الرحلة » . ويعود سبب هذا الاهتمام الى كونه قد أمضى قرابة عشرة أعوام من غربته في تلك الجهات ، فامتلأت جعبته بالحكايات عنها . وقد بلغت بعض تلك الحكايات حداً من الغرابة أثار الشكوك في نفوس السامعين من معاصريه ، كما أثار ظنون بعض دارسي « الرحلة » وقبل أن نتناول ثمار مشاهداته وملاحظاته في تلك البلدان لابد لنا أن نوضح الظروف والملازمات التي أثارت عاصفة الشك حول هذا الجزء من « رحلته » لدى معاصريه ولدى المستشرقين .

لقد كانت حكاياته عن الهند وملكها محمد طغرل شاه أشد الحكايات غرابة بالنسبة لمعاصريه . فقد روى من القصص عن بذخه وترفه وكرمه ما يفرق الخيال ، كما حكى عن قسوته وبطشه ما يتجاوز التصور . وبما لا ريب فيه أن خياله قد لعب دوراً هاماً في تلك الحكايات ، إلا أنه بالتأكيد لم يختلقها اختلاقاً . فلقد تهيأت له فرصة للعيش في معية الملك محمد شاه قرابة ثماني سنين ، وقد خالط أثناء تلك المدة رجال بلاطه

والمقربين منه وسمع منهم كثيراً من القصص ، ولكنه لم يمحسها وقد أثبت ابن بطوطة خلال « رحلته » بأكملها أنه مستعد لتصديق كل ما يسمع من حكايات وأخبار مهما بلغت غرابتها ونادر ما حاول محاكمتها محاكمة منطقية . ويمكن أن يعزى موقفه هذا إلى كثرة ما شاهد وسمع من حكايات يفوق بعضها الخيال بالرغم من واقعيتها . إضافة إلى طبيعة ثقافته الضحلة . فهو اذن لم يعتمد الكذب في رواية اخبار ملك الهند أو في تصوير ما جرى له من حوادث وغرائب ، لكن خياله الحي زوق بعض تلك الأحداث . وإذا كانت حكاياته عن الهند قد بدت غريبة لمعاصريه بما اشتملت عليه من قصص البذخ المفرط والفقر المدقع والطبقية الحادة والشعوذة والسحر ، فان تلك الحكايات لم تعد غريبة على مسمعنا في الزمن الحاضر . فنحن نعرف اليوم أن شبه القارة الهندية بأرضها الواسعة المتنوعة وغاباتها الكثيفة وجبالها الشاهقة وطبقاتها الاجتماعية المتنافرة بثرانها الباذخ وفقرها المدقع حافلة بكل عجيب وغريب .

أما حكاياته عن جزر المحيط الهندي ، لاسيما جزر الملديف التي أقام فيها ما ينيف على عام ونصف ، فقد أثارت الريبة في نفوس سامعيه بما اشتملته من معلومات غريبة عن الحياة الاجتماعية لتلك الاقطار النائية ، وخصوصاً عن الحياة العائلية . وبما أن سكان تلك الجزر كانوا يدينون بالاسلام فقد بدت بعض عاداتهم شاذة متنافية مع طبيعة التعاليم الدينية . ومهما قيل عن غرابة تلك الحكايات ، فانها تعتبر مصدراً أولياً عن الحياة الاجتماعية لتلك الجزر في ذلك العهد ، ويعتبر ابن بطوطة أول كاتب يدون الملاحظات عنها .

أما ما يتعلق بأخباره عن الصين فلم تشتمل على أية غرائب ، بل كانت تصويراً أميناً لأهم معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية

في تلك البلاد . وتُعزى شكوك البحاثة المعاصرين عن زيارته للصين الى غموض وصفه للطريق الذي سلكه إلى تلك البلاد ، وإلى اضطراب أسماء المدن والبقاع التي تحدث عنها . وسنناقش هذه النقاط في الصفحات التالية تفصيلاً .

الهند

لا بد أن نوضح منذ البداية بأن معلومات ابن بطوطه عن الهند لا تتناسب في أهميتها مع طول الفترة التي مكثها في البلاد ، وهي كما ذكرنا حوالي ثماني سنوات ، كما لا تتناسب مع المنصب الذي تقلده لفترة طويلة ، وهو قضاء مدينة دلهي . فقد تيسرت له فرص الاختلاط بأكبر عدد ممكن من حاشية الملك محمد شاه ومن رجال الدين ومن بقية أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم . ومع ذلك فلم تنعكس تلك التجارب الحافلة على معلوماته عن الهند . والواقع أنه قد عني عناية خاصة بالجوانب التاريخية والسياسية دون الجوانب الاجتماعية والاقتصادية . ولذلك يمكن أن نعتبر أحاديثه عن البلاد الهندية في ذلك العصر ، ولا سيما عن الامارات الاسلامية ، مرجعاً هاماً وأصيلاً للمؤرخين ولدارسي تاريخ الهند في العصور الوسطى . ويمكن الحكم بأن الصورة التاريخية التي رسمها ابن بطوطه لأحوال الهند السياسية أثناء القرن الرابع عشر وايضا حه لطبيعة الصراع الذي كان يدور بين ملوك وامراء الولايات الاسلامية الهنديه كانت على جانب عظيم من الأهمية ، وهي توضح العوامل التي يسرت للبرتغاليين خلال القرن الخامس عشر الاستيلاء على البلاد والقضاء على حكم الملوك والامراء المسلمين وتتميز روايته للأحداث

التاريخية التي سبقت ورافقت وأعقبت حكم السلطان محمد شاه بأمانة واضحة ، كما يتصف موقفه من الملك محمد شاه بموضوعية عالية ، فقد روى أخبار قسوته الوحشية وحكايات بذخه المفرط بحياد واضح . لكن المرء لا يسهه وهو يقرأ تلك الحكايات إلا الاعتقاد بأن خياله قد ساهم في تزويقها بالرغم من أنه يقسم ايماناً غليظة بين الحين والحين أنه لم يرو سوى ما شاهده بنفسه .

أما ملاحظاته في الجغرافية الطبيعية للهند فكانت موجزة وذات أهمية ثانوية جداً . ولعل أبرزها تلك التي تناولت بصورة عابرة الحديث عن نهر السند والمناخ الموسمي وجبال هملايا . ولا يمكن الاستفادة من معلوماتها نظراً لاجازتها وعمومها . فقد ذكر مثلاً أن نهر السند المعروف بينج آب ومعناه المياه الخمسة هو من أعظم أودية الدنيا ، وهو يفيض في أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية بالنسبة لنهر النيل (١) .

وتكتسب أوصافه للمدن الهندية أهمية خاصة بالرغم مما يعتورها من أخطاء في التسميات وتحريف في المنطق ، مما أوقع الباحثين في حيرة وجدل بالنسبة لكثير منها . وما زاد في صعوبة تمييز المدن الهندية المذكورة اضطراب الطرق التي سلكها ابن بطوطة أثناء سفراته وعدم انتظامها في خط معين فهو يقفز قفزات غير طبيعية بين موضع وآخر . وهذا أمر يمكن أن يُعذر عليه ، فقد قام بجولات بين المدن الهندية منذ سنوات طويلة ، وفضلاً عن أنه قام بتلك الجولات على فترات متقطعة .

وهناك نقطة هامة تتعلق بالطريق الذي سلكه الى الهند . فقد

ذكر أنه دخل الهند عن طريق أفغانستان . والطريق الأفغاني الى الهند يعبر جبال سليمان ويخترق ممر خيبر ، وهو الباب الشمالي الغربي الى الهند منذ أقدم الأزمان . لكن وصف ابن بطوطة لمدخل الهند لا ينطبق على هذا الطريق . ويعتقد الدكتور العدوي أن مرور ابن بطوطة بغزنة التي تقع فوق هضبة مرتفعة تشرف على سهول الهند والتي يمكن الوصول اليها عن طريق وادي كابل يدل على أنه قد سلك ذلك الوادي لدى دخوله الى الهند (١) . أما جب فيعتقد أن من المتعذر الحكم بشكل نهائي على الطريق الذي سلكه ابن بطوطة الى الهند . فقصرته حول قطاع الطرق الأفغانيين الذين اعترضوه في الطريق تدل على كونه قد سلك الطريق المألوف الى الهند - أي طريق ممر خيبر - لاسيما وأن مدينة شاشنغار التي ذكرها قد قرنت بمدينة هاشتناغار Hashtnagar التي تقع بالقرب من بشاور . إلا أن حديثه عن الصحراء التي قطعها قبل دخوله الى الهند والتي امتدت خمسة عشر يوماً ، وكذلك اشارته الى مروره بمدينة غزنة تدل على طريق غامض آخر من خلال جبال سليمان يؤدي الى المجرى الاسفل لنهر السند (٢) . ومن الجدير بالذكر أنه كان أول من أطلق على جبال هندكوش اسمها الحالي (٣) .

وتتناول ملاحظات ابن بطوطة عن الحياة الاقتصادية في الهند جوانب متعددة ، إلا أنه عني عناية خاصة بالنواحي الزراعية . وقد شرح بأسهاب الفصول الزراعية فذكرها بانها تنقسم الى فصلين رئيسيين يشتمل الاول منهما على الزراعة الخريفية ، ويشتمل الثاني على الزراعة

(١) العدوي ، ص ٨١

(٢) « جب » ، ص ٣٦٠

(٣) الانسكلويدا البريطانية حرف ق

الربيعية ، ويزرع الفلاحون المزروعات الخريفية في أوان القيقظ عند نزول المطر ويحصدوننها بعد مرور حوالي شهرين . وأهم مزروعاتهم الخريفية الكندر وهو نوع من الحبوب يشبه الدخن ، وكذلك الماش ، واللويبا ، وأنواع أخرى من الحبوب هي (الشاماخ) و (الموت) و (القال) . وتمثل حبوب القال طعام الفقراء ويقتاتون عليها أغلب أيام السنة :

أما المزروعات الربيعية فيباشر الفلاحون بزراعتها بعد حصاد المحاصيل الخريفية ، وتزرع في نفس الحقول التي كانت مزروعة بالحبوب الخريفية ، وعزا ابن بطوطة ذلك الى طيب التربة وجودتها . وأهم الزراعات الربيعية القمح والشعير والحمص والعدس . ويزرع الفلاحون الهنود أيضاً بالإضافة الى المحاصيل الخريفية والربيعية المذكورة أعلاه السهم وقصب السكر والرز ، وهم يزرعون الرز ثلاث مرات في العام (١) .

وفصل ابن بطوطة أيضاً في الحديث عن الفواكه التي تزرع في الهند ، ووصف اشجارها وثمارها باسمها . وذكر منها العنبية التي تشبه أشجار النارنج ، والشكي والبركي ، وهما خير فاكهة ببلاد الهند واشجارها عادية تشبه في اوراقها شجر الجوز ، كما تشبه في ثمارها القرع الكبير ، وكذلك التند وهو ثمر يشبه الابنوس وحياته قدر حبات المشمش ، والنارنج الحلو ، والمهو وثمره مثل الاجاص الصغير والجوز يشبه ثمرة الزيتون . وقد ذكر بأن النارنج الحامض غزير الوجود وكذلك العنب الذي لا يوجد إلا في دلهي وبعض البلاد الأخرى . ويزرع الرمان بكميات قليلة أيضاً ، أما التين فلا وجود له في الهند (١)

(١) « الرحلة » ص ١٢ - ١٣ ، ج ٢

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ - ١٢

وتحدث ابن بطوطة أيضاً عن أهمية الثروة الحيوانية في البلاد .
فذكر بأن الثيران تستخدم في الفلاحة ، بينما تستخدم الأبقار في
المواصلات . والنقل استخداماً واسعاً نظراً لأن الهنود يستعملون ركوب
الحمير ويحرم غير المسلمين ذبح الأبقار واكل لحومها . أما الخيول فهي
قليلة وغالبية الثمن وتستورد من الخارج ولا يقتنيها سوى ذوو
الثروة والنفوذ .

وشرح ابن بطوطة الطريقة المتبعة في تغذية الحيوانات ، فقال بأن
الهنود لا يطعمون حيواناتهم التبن بل يوفرون لها العشب . وبالإضافة
الى العشب تطعم أيضاً الحمص الذي يخرشونة ويبلونه بالماء وهناك
طريقة لتسمينها وهي أن تطعم أوراق الماش لمدة شهر بعد أن تسقى
السمن عشرة ايام ، يقدم لها في كل يوم ثلاثة أو أربعة أرطال ، ولا
تستخدم للركوب في تلك الفترة . وتطعم كذلك نوعاً من الحبوب تسمى
(موت) وهي تزيد من سميتها ، ولا تطعم الشعير بتاتاً (١) .

وتناول ابن بطوطة الحديث عن الصناعات في الهند ، لكن حديثه
عنها كان موجزاً نظراً لأن أهميتها كانت ثانوية . وقد أوضح بأن
الصناعات في الهند كانت قليلة ومنها صناعة الخيام من الاعشاب وصناعة
ثياب الكتان وصناعة نسيج القطن الرقيق الذي قد يبلغ ثمن الثوب
منه مائة دينار ، وصناعة الانسجة الحريرية التي يسمونها (الجز) والتي
يخرجونها في خمسة ألوان . وهناك صناعات محلية شائعة وهي صناعة
استخراج الزيت من نوى بعض الثمار واستعماله وقوداً للمصابيح .

ولم يسجل ابن بطوطة عن النشاط التجاري في الهند سوى ملاحظات
عابرة ، إلا أن من الممكن ان ندرك أهمية هذا الجانب الاقتصادي في

البلاد . فقد أشار الى ازدهام موانئ الهند الرئيسية بمئات السفن والقوارب التي تقصد الى الصين والى البحر العربي والى خليج البصرة والبحر الأحمر . وقد ذكر أن لميناء لاهري التي تقع على ساحل البحر الكبير مرسى عظيماً يأتي اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم فعظمت جبايتها وكثرت اموالها (١) . وقد لاحظ عند مروره بميناء كاليكوت أن مرساها من أعظم مراسي الدنيا يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل (المديف) وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق (٢) . وقد أخبرنا أيضاً أن ميناء منجور الذي يقع على ساحل الملييار ذا أهمية تجارية بالغة ، وبه ينزل معظم تجار فارس واليمن (٣) . ولعل من أبرز الدلائل على أهمية النشاط التجاري في الهند نظام المكوس الذي كان يطبق في البلاد تطبيقاً صارماً . فقد كان يبحث في مدن الحدود عن امتعة المجتازين أشد البحث وتفتيش رجالهم تفتيشاً دقيقاً وكانوا يتقاضون الربح من كل ما يجلبه التجار (٤) .

أما ملاحظات ابن بطوطة عن الاوضاع السياسية والادارية فهي من أهم الوثائق التي تؤرخ لاطواع الهند في ذلك العهد . وقد لخص لنا في موضوع من مواضع « رحلته » وضع الهند السياسي بقوله : (وأهل الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في اقطاعه ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويطعمون

(١) « الرحلة » ص ٧ ج ٢

(٢) « الرحلة » ، ص ١١٥

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٢

(٤) المصدر السابق ، ص ٨

الطريق (١) .

ولقد صور لنا ابن بطوطة تصويراً شيقاً بلاد السلطان محمد شاه وتحدث بأسهاب عن طاقم حكومته وعن طريق تصريفه لشؤون الدولة (٢) كذلك سجل لنا بعض الجوانب الادارية الهامة التي عيّنت بها الدولة كتنظيم طرق المواصلات . وكانت توضع على الطرق بين المدن الرئيسية الكبرى اعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين ، كما كانت تنشأ دور الاستراحة التي تزود بكل ما يحتاج اليه المسافر . وعيّنت الدولة أيضاً بالبريد ونظمت تنظيماً ممتازاً ، وقد صور له ابن بطوطة على النحو التالي :

(والبريد ببلاد الهند صنفان ، فأما برید الخيل فيسمونه الولاقي (اولاق) وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال . وأما برید الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة ، والداوة هي ثلث ميل . والميل عندهم يسمى الكروة وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة فقد شدوا أوساطهم وعند كل واحد مقرعة مقدار ذراعين بأعلامها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى يشتد بمنتهى جهده . فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تاهبوا ، فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه . وهذا البريد أسرع من برید

(١) « الرحلة » ص ١٣

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ - ٣٦

الحيل . وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة للسلطان وكذلك يحملون الكبار من ذوي الرتب يجعلون الرجل على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان من نهر الكنك (١) .

أما ملاحظات ابن بطوطة عن الأوضاع والعادات الاجتماعية للسكان الهنود فقد تناثرت بين ثنايا « الرحلة » من دون تركيز . وقد وردت في اغلب الاحوال بشكل عرضي مما أفقد القارئ الاحساس بأهميتها . والواقع أن ابن بطوطة لم يعن بالحديث عن افراد الشعب البسطاء قدر عنايته بالحديث عن السلاطين والامراء ، ولم يرد ذكرهم إلا عرضاً . وتكشف تلك الاشارات العرضية عن الفوارق العظيمة بين طبقات السكان . فقد كان هنالك طبقة من الحكام وحاشيتهم تنعم بالثراء الباذخ والنعيم المقيم الذي يتمثل في حياتها المترفة الناعمة ومأكلاتها ومشربها ومسكنها وما تقنيه من ذهب ومجوهرات ، وهي طبقة تتألف من عدد محدود من الناس . وتقابلها طبقة تؤلف الغالبية الساحقة من الشعب وهي تعيش على حافة الجوع ، وكثيراً ما تعرضت الى مجاعات ابتلعت الملايين من افرادها .

والمعروف أن الهند تعاني - بالإضافة الى التمايز في الثروة - من طبيعة دينية حادة ، لكن هذا التمايز والطبقية لم يظهر في أحاديث ابن بطوطة . ولعل الملاحظة الوحيدة التي وردت حول هذا الموضوع هي اشارته الى طائفة السامرة التي تدين بالاسلام والتي قال عن أفرادها أنهم يسكنون مدينة جناني على مقربة من نهر السند ، وهم لا يتزوجون من خارج طائفتهم ، كما لا يتزوج منهم أحد .

وقد أشار ابن بطوطة أيضاً إلى بعض العادات الاجتماعية التي تسود بين البراهمة ، ومنها عادة حرق الزوجة بعد وفات زوجها . وقد صور لنا مشهداً شيقاً لهذه الظاهرة كان قد عاينه بنفسه . وقد أوضح أن احراق المرأة بعد زوجها أمر مستحب وليس واجباً ، إلا أن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفاتها ، ولكنها لاتكره على احراق نفسها (١) .

وأشار ابن بطوطة أيضاً إلى عادة البراهمة في اغراق انفسهم في نهر الكنج ، وذكر أن الكثير منهم يفرقون أنفسهم في نهر الكنك وهو الذي إليه يحجون وفيه يرمى برماد المحروقين ، ويقولون أنه في الجنة وروى ابن بطوطة أنه إذا أتى احدهم ليفرق نفسه يقول لمن حضره : لا تظنوا أنني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلّة مال إنما قصدي التقرب إلى كساي (أي الله) ، ثم يفرق نفسه فأذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في النهر المذكور (٢) .

وسجل ابن بطوطة أيضاً عادة أخرى من عادات البراهمة وهي تحريم ذبح البقر وذكر أن جزءاً من يذبحها عندهم أن يخاط في جلدتها ويحرق . وهم يقطعون البقر ويشربون أبوالها للبركة وللإستشفاء اذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأروائها (٣) .

وتناول ابن بطوطة جوانب كثيرة من الحياة اليومية والاجتماعية للسكان الهنود المسلمين فوصف ملابسهم وذكر أنهم يشتركون جميعاً في

(١) « الرحلة » ، ص ١٤

(٢) المصدر السابق ص ١٥

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠

لبس الثياب البيض كما وصف افريشتهم وذكر انها تتمكون من سرير خفيف الحمل وهو عبارة عن أربع قوائم مخروطية يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها صفائر الحرير والقطن (١) .

وأسهب ابن بطوطة في وصف مجالس الطرب والغناء لدى أثرياء الهند ، ويمكن أن نستدل منها على ولع الهند عموماً بالرقص والغناء كذلك أسهب في وصف حفلات الطعام لدى الأغنياء والامراء وما يقدم فيها من أصناف المأكول وما يتبع فيها من تقاليد (٢) أما طعام أبناء الشعب فقد ذكر أنه يتألف على الأغلب من حب الشاماخ الذي يجمع وينشر في الشمس ثم يدق في مھارس الخشب حتى يطير قشره ويبقى لبه أبيضاً ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس كما ذكر أنهم يفطرون كل يوم على أكلة يطلق عليها اسم كشري وهي تصنع من طبخ حبوب كالمش يسمونها المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن (٣) .

كذلك صور بصورة شيقة أخاذا احتفالات الهند المسلمين في الأعياد والزواج وفي الوفاة والدفن . ولم ينس أن يخصص اهتماماً واضحاً في المرأة الهندية ، فوصف شكلها وموقفها من الرجل وتناول كل دقائق حياتها ، وقد وردت تلك الأحاديث بشكل عرضي ومتناثر في « الرحلة » .

وهكذا يتضح لنا أن ملاحظات ابن بطوطة عن الهند تتناول شتى الجوانب ويمكن القول أنه لم يترك ناحية دون أن يطرقها ، لكن ملاحظاته كما ذكرنا متناثرة بين مئات الحكايات حتى ليصعب غربلتها وتقدير

(١) « الرحلة » ، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢

أهميتها . غير أننا يمكن أن نحكم باطمئنان أن تلك الملاحظات - لاسيما الاجتماعية منها - لم تضاف شيئاً جديداً ذا أهمية إلى معلومات الجغرافيين المسلمين السابقين . وتتجلى هذه الحقيقة بمقارنة ملاحظاته بكتابات الجغرافيين الأوائل . فلقد اهتم الجغرافيون المسلمون في وقت مبكر بأخبار الهند ، وسجلوا معلومات طيبة عنها ، لاسيما في النواحي الاجتماعية . فقد تحدث ابن رسته مثلاً في كتابه (الأعلام النفسية) [حوالي ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م] عن الديانة البرهمنية ، وعن الصنم الذي يحج إليه البراهمة في مدينة ملتان (١) . كذلك أشار الى بعض العادات والتقاليد الاجتماعية الهندية . وقد ذكر أن تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب لقليله ولا كثيره ويعافون الخل من الأشربة . ومن رأوا من أهل الاسلام من يشرب الشراب اعتبروه خسياً واحتقروه (٢) .

ومن أوائل كتب الجغرافيين العربية التي تحدثت عن الهند أيضاً كتاب (مختصر كتاب البلدان) لابن الفقيه ويبدو انه قد اقتبس معلوماته عن كتاب أبي زيد السيرافي (٣) .

أما الاصطخري فقد تحدث بإسهاب عن صنم البراهمة في مؤلفه (كتاب الاقاليم) [منتصف القرن الرابع الهجري] وما ذكره :

(والملتان مدينة نحو نصف المنصورة وبها صنم يعظمه الهند وتحتج إليه من أقاصي بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم في كل سنة بحال عظيم

(١) « الأعلام النفسية » المجلد الرابع ، تصنيف أبي علي أحمد بن علي بن رسته ، منشورات مكتبة المثنى من طبعة ليدن لعام ١٨٩١ ، ص ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٢

(٣) « مختصر كتاب البلدان » لابن الفقيه الهمداني ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة

ليدن عام ١٨٨٥ ، ص ١٣ - ١٥

ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به . وصورته على خلفة انسان متربع على كرسي من جص وأجر . والصنم قد البس جميع بدنه جلدأ يشبه السجستان الأحمر لا يتبين من جثته إلا عيناه . فمنهم من يزعم أن جسده خشب ، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب إلا أنه لا يترك بدنه ينكشف وعيناه جوهرتان وعلى رأسه اكليل ذهب متربع على ذلك الكرسي قد جعل ذراعيه على ركبتيه وقد قبض أصابع كل يديه كأنما يحسب أربعة . . (١) .

وقد نقل هذا الوصف حرفياً أبو القاسم ابن حوقل النصيبى في كتابه (صورة الارض) الذي ربما كان نسخه منقحة لكتاب (الأقاليم) (٢) والغريب أن ابن بطوطة لم يشر إلى وجود هذا الصنم بالرغم من أهميته العظيمة لدى البراهمة ، مع أنه كان يعنى بذكر امور تافهة وعارضة . وقد اهتم الادريسي أيضاً في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) بالحديث عن الهند ، ولا ريب أنه قد اعتمد في معلوماته على المراجع العربية المبكرة . ومن أهم ما ذكره عن عادات الهنود ما يلي : (وبسط العدل في أهل الهند طبيعة لا يعولون على شيء سواه . . وطعام أهل الهند الارز والحمص والباقلاء واللوبياء والعدس والماش والسّمك والحيوانات التي تموت موتاً طبيعياً . ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً لا كبيراً ولا صغيراً . وأما البقر فانها محرمة عليهم البتة ، فاذا ماتت دفنت ، وهذا فعلهم في البقر خاصة دون سائر البهائم . وإذا ضعفت البقر عن الخدمة والتصرف رفعت عن التعب وأمر بالنظر إليها

(١) « كتاب الأقاليم » للشيخ أبي اسحاق الفارسي المعروف بالاصطخري . منشورات مكتبة المثنى من طبعة ميلر ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) « صورة الأرض » لابن حوقل النصيبى - القسم الثاني طبع في لندن عام ١٩٣٨ ص ٣٢٢

وبالعلف من غير أن تستخدم على ظهورها إلى أن تموت . وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم وإذا مات الملك صنعت له عجلة على قدر عريضة . . وتوضع على العجلة قبة مكللة ويوضع الملك بحلية كفه على تلك العجلة ويطاف على تلك المدينة كلها يجره عبيده . .

وأهل الهند لا يحزنون كثيراً ولا يقولون بالهموم جملة . وجملة البلاد الهندية المجاورة للسند الذين قد مازجهم المسلمون يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً ويسوون التراب عليهم ولا يكون ميتاً ولا يحزنون عليه كثيراً (١) .

وقال في موضع آخر يصف عناصر السكان :

ولعل الهند سبعة اجناس أحدهم الساكهرية وهم الاشراف منهم ثم البراهمة وهم عباد الهنود ، ثم الكسترية وهم يشربون من الخمر ثلاثة أصناف ، ثم الشودية وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة ، ثم الغشية وهم أصحاب المهن والصناعات ، ثم السندالية وهم أصحاب اللحون وفي نسايتهم جمال مشهور ، ومنهم الركبة وهم سمر أصحاب لهو ولعب ومعارف (٢) .

ولعل أقدم كتب الجغرافية والرحلات العربية التي تحدثت عن الهند هو كتاب أبي زيد السيرافي المنقول عن رحلة التاجر سليمان . ويبدو أن كثيراً من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الأوائل قد اعتمد على هذا المصدر في أحاديثهم عن بلدان الشرق الأقصى . ونظراً لأهمية معلومات هذا الكتاب فسنثبت المقطعات المسهبة التالية عنه .

(١) « وصف الهند وما جاورها من البلاد » من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)

لشريف الادريسي ، منشورات الجامعة الاسلامية في ماليزيا ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(٢) « وصف الهند وما جاورها » ، ص ٢٢ .

قال متحدثاً عن أهل الهند :

(والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار . وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه ، وإن شئن لم يفعلن . .

وببلاد الهند من ينصب الى السياحة في الفياض والجبال وقل ما يعاشر الناس . يأكل أحياناً الحشيش وثمر الفياض ويجعل في أحليله حلقة حديد لثلا يعاشر النساء . ومنهم العريان ، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً إلا أن عليه شيئاً من جلود النمرور .

وفي كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك ولهم ولاية عهود . وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم . وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل ملك ببلاد . . وأهل الهند يعييون الملاهي ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب ، وليس ذلك دين ولكن ألفة . ويقول : أي ملك شرب الشراب فليس بملك) (١) .

وقال في موضع آخر يقارن بين عادات أهل الهند وأهل الصين : (وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهاثوا بينهم ثم تهادوا ثم يشبهون التزويج بالصنوج والطبول . وهديتهم من المالي على قدر الامكان . وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت فعلها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند . وأن زنا رجل بأمرأة على رضى منها قتلا جميعاً .

والسرق في جميع بلاد الصين والهند القليل منه والكثير القتل . فأما الهند فاذا سرق السارق فلماً فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحد طرفها ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقة .

(١) « أخبار الهند والصين » لأبي زيد الصيرافي ص ٢٢ - ٢٣ .

وحيطان أهل الصين الخشب وبناء أهل الهند حجارة وجص وأجر
وطين . وكذلك ربما كان بالصين أيضاً .

وليس الهند ولا الصين بأصحاب فرش ، ويتزوج الرجل من الصين
والهند ما شاء من النساء .

وطعام الهند الأرز وطعام الصين الخنطة والأرز ، وأهل الهند
لا يأكلون الخنطة .

والهند يطولون لحاهم ، وربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ولا
يأخذون شواربهم . وأكثر أهل الصين لا لحية لهم خلقة لأكثرهم .
وإذا مات لاحدهم ميت حلق رأسه ولحيته .

والهند إذا أحبوا رجلاً أو لازموه منعوه الطعام والشراب سبعة
أيام وهم يتلازمون ، ويقتل قاطع الطريق ، ولاهل الصين قضاء يحكمون
بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند .

والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامته
حتى يموت . . وأهل الهند يستأكون ولا يأكل أحدهم حتى يستأك
ويقتبس وليس يفعل ذلك أهل الصين .

وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر وثمر ليس عندنا .
والهند لا غنب لهم ، وهو بالصين قليل . وسائر الفواكه عندهم كثرة ،
والرمان بالهند أكثر .

وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند . وأهل كلا
البلدين يرجعون الى التناسخ . ويختلفون في فروع دينهم . والطب
بالهند والفلسفة ، ولأهل الصين أيضاً طب وأكثر طبهم الكي . ولهم علم
النجوم ، وذلك بالهند أكثر .

وجنود ملوك الهند كثيرة ولا يرزقون وإنما يدعوهم الملك الى

الجهاد فيخرجون ينفقون من أموالهم ليس على الملك شيء . فأما الصين فمطاؤهم كمطاء العرب .

وبلاد الصين أنزه واحسن ، وأكثر الهند لامدائن لها . وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمه . وبلاد الصين اصح وأقل امراضاً واطيب هواء لا يكاد يرى بها اعمى ولا اعور ولا من عاهة . وهذا أكثر ببلاد الهند . وانهار البلدين جميعاً عظام ، فيها ما هو اعظم من انهارنا . والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة . وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة ، والصين كلها عمارة . وأهل الصين أجمل من أهل الهند واشبه بالعرب في اللباس والدواب . وهم في هيشتهم ومواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الاقبية والمناطق ، وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر ، الرجال والنساء (١) .

وهكذا يتضح مما اقتطفناه من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين الاوائل ان ابن بطوطة لم يصف معلومات جديدة عن الهند ، بل لقد تغاضى عن تسجيل ملاحظات هامة عن البلاد بالرغم من اقامته فيها سنين طويلة . ولا بد ان نؤكد هنا بأن الكتابات المشار اليها اعلاه لا تعمل سوى مراجع ثانوية عن الهند . ولاريب ان اهم مؤلف في الجغرافية العربية تناول دراسة الهند هو كتاب البيروني المسمى (تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل او مردولة) . فتلک الدراسة الشاملة العميقة عن الهند قد تناولت مختلف جوانب الحياة فيها من سياسية وفكرية واجتماعية واقتصادية ، كما استعرضت جغرافية الهند استعراضاً علمياً دقيقاً ، هذا فضلاً عن استعراضها الشامل للفلسفة والعلوم الهندية المختلفة . ويعتبر هذا الكتاب من افضل ما ألف في الدراسات الاقليمية في جغرافية العصور

(١) « أخبار الهند والصين » ص ٢٢ - ٢٦ .

الوسطى ، وما يزال حتى اليوم مرجعاً هاماً لدراسة الهند والعلوم الهندية في عصورها الوسطى ولا يمكننا بالطبع ان نقارن ماورد في الدراسة من معلومات عن الهند بما ذكره ابن بطوطة في احاديثه عن الهند ، فالبيروني قد درس الهند دراسة العالم الباحث ، بينما درسها ابن بطوطة دراسة الرحالة المستطلع لا اكثر ، وعلى اية حال فقد كانت احاديث ابن بطوطة عن الهند حافلة بالحكايات الممتعة والاخبار الطريفة بالاضافة الى معلوماتها الطيبة عن الاحوال الاجتماعية في البلاد ، مما يمكن اعتبارها أدباً متمماً . غير أن اثنى معلوماتها هي تلك التي تتعلق بتاريخ الهند في النصف الأول من القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي ولا سيما عن الملك طغرل شاه .

جزر المحيط الهندي

تجول ابن بطوطة في عديد من جزر المحيط الهندي وزار أهمها . فقد استقر زمناً بجزر الملديف ، ومر بجزيرة سيلان وجزيرة جاوة ، وربما وصل الى شبه جزيرة الملايو . ولكن من الملاحظ أن الفوضى تسيطر على تلك الجولات ، ولا يمكن للقارىء أن يتتبع خط سيره اثناءها وبالرغم من انه قد ذكر بأنه كان يرغب أصلاً في السفر الى بلاد المعبر ثم الى الصين ، إلا أنه لم يوضح بشكل مقنع أسباب جولاته المتكررة بين تلك الجزر . ومهما يكن الأمر فقد سجل لنا معلومات طيبة عن تلك الجزر لا سيما في النواحي الاجتماعية والاقتصادية .

جزر الملديف :

يطلق العرب على الجزر الواقعة بجوار الساحل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة الهند اسم جزر ذيبة المهل . وقد تيسر لابن بطوطة أن يقيم فيها حوالي عام ونصف العام ، وقد تزوج أثناء إقامته مرتين ، وعمل قاضياً في إحدى تلك الجزر طيلة مدة بقائه وقد نهيات له بذلك فرصة اختبار الحياة في تلك الجزر عن كثب . وتعتبر كتاباته عنها مصدراً أولياً هاماً في الأدب الجغرافي العربي ، فلم يسبقه أي جغرافي أوروبي مسلم إلى الكتابة عنها لاسيما وانها كتابة متزنة منزهة عن شطحات الخيال . كذلك تميزت أوصافه للجزر ومدنها بدقة كبيرة . ويقول الاستاذ جب أن كتاباته هذه تعتبر أقدم المعلومات التي نمتلكها عن تلك الجزر وسكانها ، وأن الكثير من أسماء المدن التي ذكرها ما تزال كما هي في خرائط تلك الجزر (١) . ويمكن الحكم باطمئنان بأن الجانب الانثروبولوجي في ملاحظاته عن جزر الملديف من أهم ما ورد في كتاباته عن اقطار الشرق الأقصى ، وهو يكسب « رحلته » قيمة انثروبولوجية كبيرة وقد شملت تلك الملاحظات جوانب متنوعة من حياة السكان . ونظراً لأهمية تلك الملاحظات من وجهة النظر الانثروبولوجية فسنثبت فيما يلي مقتطفات مسبهة منها . قال يصف عادات سكان الجزر :

(واهل هذه الجزر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب ، وإذا رأى الانسان احدهم قال له : « الله ربي ومحمد نبي » وأنا مسكين » . وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال

والمحاربة وسلاحهم الدعاء ، ولقد أمر مرة بقطع يد سارق فنفسي على جماعة منهم كانوا بالمجلس . . واكثر عمارتهم بالحشب وهم اهل نظافة وتنزيه عن الأقدار واكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظيفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثر من الادهان العصرية كالصندلية وغيرها ، ويتلطفون بالغالية المجلوبة من مقدشو . ومن عباداتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها او ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه . ولباسهم فوط يشدون الفوطه منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب (الولياء) وهي شبه المحاريم ، وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً عنها . . ومن عوائدهم أنهم إذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى البيت وشماله وتكون المرأة وأقفه عند باب البيت تنتظره فإذا وصل اليه رمت عند رجله ثوباً يأخذه خدامه . وان كانت المرأة هي التي تأتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجله . وكذلك عاداتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك (١) .

واهتم ابن بطوطة اهتماماً خاصاً بنساء جزر الملديف وتناول مختلف جوانب حياتهن ، وما ذكره :

(ونساؤهن لا يغطين رؤوسهن ولا سلطاناتهن تغطي رأسها ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا تلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى اسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها . . ولباس بعضهن قمص على الفوطة ، وقمصهن قصار

(١) « الرحلة » ص ١٢٢ - ١٢٣ ج ٢ .

الأكام عراض . . وحليهن الأساور وتجعل المرأة جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة ، ولا يحمل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه ، ولهن خلاخيل يسمونها (البایل) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها (البسد) . . والتزوج بهذه الجزائر سهل لغزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمي صداقاً وإنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها . . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً . ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ، ولا تكلم المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها ، بل هي تأتيه بالطعام وترفعه بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجله عند النوم . ومن عوائدهم ألا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة (١) . وقال يصف مساكن أهل الجزر :

(وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات لأن أرضهم ندية . وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفاً ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك . ويبنّون في اسطوان الدار بيتاً يسمونه (المالم) يجلس الرجل مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها . ويكون عندها البيت خاوية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه (الوالج) وهو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يستقون الماء من الآبار لقربها . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار

فالماشى بها كأنه في بستان . ومع ذلك لا بد لكل داخل الى الدار أن يغسل رجله بالماء الذي فيه الخابية بالماء ويمسحها بحصير غليظ في الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد (١) وحظي الجانب الاقتصادي في جزر المديف باهتمام ابن بطوطة أيضاً فتحدث عن جوانب الحياة الاقتصادية فيها حديثاً مفصلاً . وقد ذكر أن الزراعة تنعدم تقريباً في هذه الجزر ، ويعتمد سكانها في غذائهم على السمك ، لاسيما نوعاً خاصاً يسمونه (قلب الماس) ، وهو ذو لحم أحمر ولا زفر له وريحه كريح لحم الأنعام . كذلك يعتمدون في طعامهم على أشجار النارجيل والجموح والاترج والليمون والقلقاس . وشرح ابن بطوطة أوجه النشاط التجاري في الجزر وما ذكره :

(ومن عوائدهم إذا قدم مركب أن يخرج إليه الكنادر وهي القوارب الصغار وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكزنبه وهي جوز النارجيل الأخضر فيعطى الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزله ويحمل امتعته الى داره كأنه بعض أقربائه ، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن من بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابل ذلك بأيسر شيء من الاحسان . وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظاً بسعر معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرح البندر . ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه (البجنصار) يجمع به الوالى جميع سلعه ويبيع بها ويشترى . وهم يشترىون الفخار إذا جلب لهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس

دجاجات وست . وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والقوط الولىاوي والعمائم وهي من القطن ويحملون منها أواني النحاس فهو عندهم كثير ويحملون الودع ويحملون القنبر وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه فى حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازي ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال الخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب ، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لأن ذلك البحر كثير الحجارة ، وان كان المركب مسمرأ بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر ، وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر . وصرف أهالي الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه فى حفر هناك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض (١) . وهكذا يتبين لنا أن ملاحظاته عن سكان تلك الجزر تنطوي على معلومات انثروبولوجية ذات قيمة كبيرة .

جزيرة سيلان :

كانت معلومات ابن بطوطة عن جزيرة سيلان محدودة جداً . وقد ذكر منذ البداية أن زيارته لها هدفت إلى رؤية قدم آدم . ولعل أهم ملاحظاته عن الجزيرة ما يتعلق بثروتها المعدنية المتمثلة بالياقوت وهو يوجد فى جميع مواضعها . وقد ذكر أنه يوجد فى جوف أحجار بيضاء مشبعة يحكمها الحكاكون فتنفلق عن أحجار الياقوت الذى قد يكون أحمر أو أصفر أو أزرق (٢) . كذلك ذكر بأن جميع النساء بجزيرة سيلان

(١) « الرحلة » ، ١٢٣ ، ١٢٤ -

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧

لهن قلائد الياقوت الملون ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضاً عن الأسورة والخلاخيل (١) .

وأسهب ابن بطوطة في الحديث عن بعض حيوانات الجزيرة ، لاسيما القروود التي ذكر أنها تكثر في جبال الجزيرة بشكل عظيم جداً وأنها سود الألوان ولها أذنان طوال ، ولذكورها لحى كالحى الأدميين ، وقد روى عنها حكايات خرافية . وتحدث عن نوع من العلق الطيار قال انهم يسمونه (لزلو) ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء ، فاذا قرب الانسان منه وثب عليه ، فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير .

وفصل ابن بطوطة الحديث عن الطريق الى (قدم آدم) ووصف مواضعها بإسهاب يكاد يكون خيالياً . ولعل هذا الوصف المسهب هو الذي دعا بعض دارسي « الرحلة » إلى الاعتقاد ان حديثه عن هذا الموضع مخترق وأنه لم يزر (قدم آدم) حقيقة .

ولم تشتمل « الرحلة » - فيما عدا المعلومات المشار إليها أعلاه - على معلومات هامة عن جزيرة سيلان ، سوى قصص عن سلاطين الجزيرة ولم ترد فيها أية إشارة قيّمة إلى أحوال السكان .

جزر الهند الشرقية :

تحدث ابن بطوطة بإسهاب عن زيارته لجزيرة سومطرة إحدى جزر الهند الشرقية ، وقص علينا أخبار مقابلاته لسلطانها وما شاهده في

(١) « الرحلة » ، ص ١٣٨

بلاطه من مراسيم واحتفالات (١) ، لكن بعض دارسي « الرحلة » يعتقد أن حديثه هذا يخص جزيرة جاوة بالذات كما يسميها وليست سومطرة ويميز هذا الاعتقاد غموض أحاديثه عن هذه الجزيرة وجزر الهند الشرقية الأخرى ، وما اتصفت حكاياته عنها من عموميات . فهو يصف الجزيرة بقوله : (جزيرة الجاوة وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي رأيناها على مسيرة نصف يوم ، وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبية والجمون والنارنج وقصب الكافور ، ويبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ، والكثير من أفاويه الطب التي ببلاد الكفار إنما هو منها) (٢) . وقد ذكر أن عاصمة هذه الجزيرة هي مدينة سومطرة .

وبعد إقامة خمسة عشر يوماً في بلاط السلطان استقل المركب وسافر بطول تلك البلاد إحدى وعشرين ليلة ، ثم وصل إلى جزيرة (مل جاوة) . وقد وصفها بقوله : (وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري ، وليس ببلاد السلطان الظاهر بجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي ، وإنما معظم ذلك بمل جاوة) (٣) .

ولم يشر ابن بطوطة في حديثه عن هذه الجزيرة إلى السكان سوى اشارات موجزة ، حيث ذكر أنهم يستخدمون الفيلة في تنقلاتهم على نطاق واسع جداً حتى أن كل إنسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب

(١) الشرقاوي ، ص ٣٠٧

(٢) « الرحلة » ، ص ١٥٢ ج ٢

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٥

حانوت يربط فيله عنده يركبه إلى داره (١) .

ولعل أهم ملاحظاته عنها ما يتعلق بأشجارها ألاقصادية كاللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، وقد وصفها بأسهاب . وقد وصف شجرة اللبان بأنها شجرة صغيرة بقدر قامة الانسان واغصانها كاغصان الخرشف وأوراقها صغيرة رقيقة ويوجد اللبان في اغصانها كالصمغ . ووصف شجرة الكافور بأنها تشبه القصب ويكون الكافور داخل انبوبة القصب . أما العود الهندي فيشبهه شجرة البلوط لكن قشره رقيق وورقه كورق البلوط ولا ثمر له ، وتوجد الرائحة العطرية في عروقه الطويلة وأما اشجار القرنفل فهي فخمة وشكلها عادي وتنتشر على نطاق واسع (٢) ولم ترد في أحاديث ابن بطوطة عن هذه الجزر معلومات هامة سوى المعلومات الزراعية المذكورة .

بلاد طوالسي

إن ريادة ابن بطوطة لبلاد طوالسي ما تزال موضع جدل شديد بين دارسي « الرحلة » بل ان البعض منهم اتخذها ذريعة للشك في رحلته الى الصين كلية ، فلم يتفق الباحثون بعد على تلك البلاد بالضبط وعلى موضعها الحقيقي . فمنهم من يعتقد أنها احدى جزر الهند الشرقية . ومنهم من يعتقد إنها ربما تكون احدى مناطق الهند الصينية اوشبه جزيرة الملايو ، بل ذهب كاتب ياباني معاصر الى القول أنها احدى

(١) « الرحلة » ، ص ١٥٦

(٢) المصدر السابق ص ١٥٥ - ١٥٦

جزر الفلبين (١) . ولقد ذكر ابن بطوطة أنه قد مر بطوالسي أثناء رحلته الى الصين ، وحدد مواضعها على النحو التالي :

(وسافرنا - من جزيرة مل جاوة - في البحر فوصلنا بعد اربعة وثلاثين يوماً الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمزة زعموا انها من تربة أرض تجاوره ولا ربح فيه ولا موج ولا حركة مع الساعة . . وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوماً ، وعجبت البحرية من التسهيل فأنهم يقيمون فيه خمسين يوماً الى أربعين وهي انهى ما يكون التيسير عليه . ثم وصلنا الى طوالسي وملكها هو المسمى بطوالسي وهي بلاد عريضة وملكها هو أيضاً ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصلحوه على شيء . وأهل هذه البلاد عبدة أو ثار حسان الصور أشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على الوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء) (٢) .

وهكذا يلاحظ أن موضع البلاد لا يمكن تحديده من هذا الوصف

(١) يقول جب : (احتار الكتاب في طوالسي . ففهم من اعتبرها جزر سيلز أو تونكين أو كبوديا أو كوشين أو مقاطعة كوان سي أو جزر الفلبين أو ارجنيل سولو Sulu . ويميل بول yule إلى الاعتقاد بأن الاحتمال الأخير هو أقرب الاحتمالات . لكن الأمر المثير هو اسم أميرة طوالسي التركي (الشبيه باسم الخاتون الرابعة لمحمد اوزبك خان) وكذلك حديثها باللغة التركية . ويعتمد بول وكذلك مجيك Mzik بأن تلك الأميرة ربما كانت ابنة السلطان كايدو المسماة إيجاروك واسمها تركي بالفعل ، وقد حرفه ابن بطوطة إلى اوردجا Urduja ، ولعله سمع قصتها من البحارة . ويقول هؤلاء الكتاب ان اسم طوالسي ربما كان محرفاً من اسم كابلوكري وهو اسم مبناء في جنوب شرقي الهند . (جب ص ٣٦٨) .

(٢) « الرحلة » ص ١٥٧ ج ٢

كما ان سكانها لا يمكن تمييز هويتهم . فالمعروف ان سكان المناطق الجنوبية الشرقية من آسيا لا تغلب على الوانهم الحمراء بل الصفرة ، كما انهم لا يشبهون الترك . وما زاد في شكوك الباحثين حول هذا القطر حديث ابن بطوطة عن مقابلته للملكة البلاد ، وهو حديث أشبه شيء بالحكايات الخيالية . فقد وصف مجلسها وصفاً اسطوريا . وزعم ان محاورته معها قد جرت باللغة التركية ، وهي محاورة ذات طابع قصصي واضح . أما حكايته التي سرد فيها تولي الملكة زمام الحكم في البلاد فكانت اشبه بالحكايات الاسطورية منها بالتاريخ الحقيقي . وقد علق الدكتور حسين فوزي على تلك الحكاية قائلاً :

(ومهما يكن نصيب هذه الحكاية من الصحة فان بها نغمة أمازونية يشتم منها أريج الاسطورة ، بل واسطورة الواقع واق إذا ذكرنا حكاية عيسى بن منير السيرافي عن الملكة دهمرة وقد دخل عليها فوجدها عريانة وما دام ابن بطوطة يذكر البحر الكاهل ويسافر من طوالسي الى الصين فليس ببعيد ان تكون حكاية الملكة أردجا نوعاً من السطو العربي الأدبي البريء على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعته عن البلاد التي في شرق الصين ونسبها الى نفسه) (١) .

ويعتقد كراتشكوفسكي أن وصف ابن بطوطة لبلاد طوالسي الواقعة في مكان من كوشين صين يضم أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط عليه الوصف اختلاطاً كلياً (٢) . وينفي فران Ferrand الذي يعتبر خبيراً بالادب الجغرافي الاسلامي عن الشرق الأقصى زيارة ابن بطوطة لهذه المناطق نفيّاً تاماً ، ويؤكد انه لم يزر الهند الصينية ولا الصين بل

(١) « حديث السندباد القديم » للدكتور حسين فوزي ، ص ١١٩ .

(٢) كراتشكوفسكي ص ١٣٨

لفق روايته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة (١) .
والواقع ان شكوك الكتاب حول هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة
مشروعة جداً ، ذلك ان حديثه عن جزر المحيط الهندي (ما عدا جزر
الملديف) يلفه الغموض ويتصف بالعموميات . أما طريقه الذي سلكه
بين هذه الجزر للوصول الى الصين فقد رسمه بابهام واضطراب حتى لا
نكاد نبين منه شيئاً . ويمكن القول أن الكبير من ملاحظاته واوصافه
عن هذه المناطق - بما فيها وصفه للبحر الكاهل - قد ورد في الأدب
الجغرافي الاسلامي المتقدم ، وربما لم يأت ذلك اتفاقاً . من ذلك
مثلاً وصفه لبلاد اطلق عليها اسم (بلاد البرهنكار) التي مر بها في
طريقه الى جاوة والتي وصف رجالها بانهم على مثل صورتنا إلا ان
افواههم كافواه الكلاب وناؤهم ذوات جمال بارع (٢) . وقد روى عن
هذه البلاد حكايات غريبة يلعب الخيال فيها دوراً هاماً . وتتناثر امثال
هذه الحكايات في رحلة أبي زيد السيرافي .

يتضح اذن أن من الصعب الجزم بصحة حكايته عن بلاد طوالسي
لا سيما وأن حديثه عن ملكة تلك البلاد يكاد يكون تكراراً لاسطورة
تناقلتها شعوب الشرق الاقصى . وتحدث هذه الاسطورة عن ابنة الأمير
كايدو امبراطور الصين كانت تحارب كالرجال في بسالة نادرة . وكانت
تشرط على من يخطبها أن يغلبها في المبارزة . وقد أورد هذه القصة
في حديثه عن رحلاته في بلدان الشرق الاقصى (٣) ،

(١) كراتشكوفسكي ص ٤٢٩

(٢) « الرحلة » ص ١٥١ ج ٢

(٣) « ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته » لرتشارد وولش وترجمة حسن حسين الياس

منشورات مكتبة النهضة ببغداد ، ص ٣٢ .

ومهما يكن الأمر فإن غرابة حكايات ابن بطوطة عن بلاد طوالسي ينبغي ألا تكون مدعاة للشك في رحلته الى الصين ، لأن مسألة زيارته للصين لا ترتبط ارتباطاً جوهرياً بزيارته لبلاد طوالسي ويجب أن نهتم كلاً من القضيتين على انفراد .

الصين

تعتبر رحلة ابن بطوطة الى الصين من أكثر اجزاء «رحلته» عرضة للجدل بين الدارسين . ويمكن القول ان عدد المنكرين لوقوعها أكثر من عدد المؤيدين لها . ولا يمكن الاستهانة بأراء المنكرين منهم من المتخصصين في شؤون الشرق الأقصى . ولعل اشد المتحمسين لانكارها المستشرق غريبال فران Ferrand ، فقد اوصلته دراساته عن جولات ابن بطوطة في الصين الى الاعتقاد بأنه لم يرحل الى تلك البلاد مطلقاً وأنه قد جمع معلوماته من مصادر مختلفة . ويعتقد شيفر schefer كذلك أن اخبار ابن بطوطة عن الصين ليس فيها ما تستحق الاهتمام (١) . أما كراتشكوفسكي فيتفق مع بجيك Mzik بأن مسألة زيارة ابن بطوطة هي مسألة مستعصية على الحل ، ولا يمكن أن يتخذ فيها قرار ، وأن أمر حلها لم ينضج بعد (٢) .

ويؤيد جب قيام ابن بطوطة بزيارة الصين ، لكنه يقدم أسانيد عاطفية لدعم رأيه . فقد قال بصدق ذلك :

(إن الاعتراضات التي تحيق بصعوبة تصديق رحلة ابن بطوطة الى

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٢٩٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٤

الصين هي من نفس النوع التي أثبت حول زيارته الى القسطنطينية ، وإن انكار حدوث تلك الرحلة يشير اعتراضات اعظم من تصديقها . وهناك بعض النقاط المادية التي تؤيد ادعائه بالسفر الى الصين . فقد كان هناك باعث قوي يدعو الى السفر لاسيما أنه مرسل من سلطان دلهي ، وبذلك توفرت له تسهيلات للسفر الى الصين لا يمكن أن تتوفر للتاجر الاعتيادي . وثانياً هناك أحد المقاطع الغامضة في روايته تشير الى بعض لقاءاته في مدينة حنسا ، وهذا الجزء من رحلته يوضحه مقطع سابق يتحدث عن زيارته للشيخ جلال الدين في أسام وترتبط زيارته للصين بتلك الحكايات ارتباطاً وثيقاً . وثالثاً ، إذا كان ادعاؤه كاذباً فما الذي يدعو الى ذكر اسم تاجر من مدينة كيتا التقى به في شمال الصين واخبره أن له أخاً يعيش في سجلماسة في مراکش ، وقد التقى به فيما بعد ، علماً بأن ذلك التاجر لا بد وان يكون معروفاً لأهل مراکش ؟ ويبدو لنا على العموم بأن الرحلة التي تتحدث عن الصين هي رحلة حقيقية بالرغم من انها رويت باختصار شديد أكثر من العادة أما لأن ابن بطوطة لم يستطع أن يتذكر الاسماء التي قد تعلمها بنفس السهولة التي تذكر بها الاسماء ذات الحروف العربية والفارسية ، أو لأن تلك الرحلة قد اختصرت بشكل عظيم من قبل كاتبها ابن جزي ، والحقيقة أننا لا نرى مفرأ من الاعتقاد بأنه قد وقر في ظنه أنه قام بتلك الرحلة بواسطة أحد الاولياء من صانعي المعجزات الذي قابلهم في الهند (١) ،

والواقع ان هناك مأخذ عديدة يمكن أن يسجلها الباحثة عن رحلة ابن بطوطة الى الصين وجولاته فيها . وسنحاول في الصفحات

التالية أن نوضح تلك المآخذ . فلو تتبعنا أساس رحلة ابن بطوطة الى الصين لوجدنا انها كانت في الاصل استجابة لرغبة سلطان دلهي ليكون ضمن وفد رسمي يحمل هدية الى ملك الصين . وقد اوضح ابن بطوطة هذه الحقيقة بقوله :

(ولما كملت لي اربعون بعث اليّ السلطان خيلاً مسرحاً وجوارياً وغلماناً وثياباً ونفقة فلبست ثيابه وقصدته . . ولما وصلت الى السلطان زاد في اكرامي على ما كنت اعهد وقال لي : إنما بعثت اليك لتتوجه عني رسولاً الى ملك الصين فاني اعلم حبك في الاسفار والجولان ثم جهزني بما احتاج اليه وعين للسفر معي من يذكر بعد) (١) .

فعزمه على السفر الى الصين امر له ما يبرره كما يتضح . لكن المصادفات شامت أن يتعرض الوفد الرسمي الى كارثة بحرية عصفت بالسفن فأغرقتها وقضت على الهدية الثمينة التي بعثها سلطان الهند الى ملك الصين ، واددت بحياة معظم أعضاء الوفد وقد سلم ابن بطوطة في تلك الكارثة وخرج الى الشاطئ وهو لا يملك شيئاً . وخشي العودة الى دلهي فلبث يتجول بين مدن غربي الهند ، ثم رحل الى جزر الملايو وأقام فيها ما ينيف على عام ونصف . ثم بدا له أن يرحل من جزر الملديف لخلاف وقع بينه وبين الوزير ، وأخذ يتجول بين جزر المحيط الهندي . وقد حدثنا عن زيارته لجزيرة سرنديب ولبلاذ المعبر (شاطئ كروماندل) . ثم قفز بنا فجأة الى بنغالة في شرقي الهند وتصفح جولاته في هذه المناطق عموماً باضطراب عظيم وتشوش بالغ ، سيما ما يتعلق بمنطقة بنغالة . ثم أخبرنا انه رحل من بنغالة الى جزيرة جاوة ومل جاوة . ثم انتقل من جاوة بحرأ الى بلاد طوالسي بعد خمسين يوماً . وقد سبق لنا أن فصلنا اختلاف الباحثين حول

موضع تلك البلاد . ومن هذه البلاد انتقل الى الصين . وقد سجل سفره الى الصين على النحو التالي :

(ثم سافرنا عن البلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير واحسنه الى بلاد الصين) (١) وقبل أن يذكر لنا الموضع الذي وصل اليه بالضبط استرسل في شرحه اوضاع الصين فقال [استمراراً للكلام السابق] :

(واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حياة ومعنى ذلك ما الحياة ، ويسمى أيضاً نهر السير (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق . الخ) واستمر في الادلاء بمعلومات تتعلق بالنواحي الاقتصادية والادارية بشكل خاص . فتحدث عن صناعة الفخار الصيني وعن الاقمشة الصينية وعن أهم الصناعات الصينية وعن استعمال النقود في الصين ، وعن استخدام الفحم الحجري في الوقود ، كما تحدث عن النظام الكمركي وعن طريقة معاملة التجارة وتشغل هذه المعلومات بضع صفحات من « الرحلة » ، وقد اقمحت بلا مقدمات . ثم عاد مرة أخرى الى الحديث عن رحلته فقال : (ولنعود الى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر أول مدينة وصلنا اليها هي مدينة الزيتون) (٢) . ومن الواضح أنه كان يتجنب تحديد الطريق الذي سلكه الى الصين . فلقد قطعت معلوماته الاقتصادية والادارية المقدمة سياق الرحلة حتى يكاد المرء ينسى آخر موضع بلغه قبل الوصول الى ميناء زيتون . ويمكن القول بأن التوفيق

(١) « الرحلة » ، ص ١٥٩

(٢) « الرحلة » ، ص ١٦٣

قد جانبته أكثر من أي جزء آخر من « رحلته » في وصف الطريق الذي سلكه الى الصين في رحلته الصينية المزعومة .

أما النقطة الثانية التي تثير الشكوك حول زيارته للصين فهي عمومية ملاحظاته في الجغرافية الوصفية للصين . فقد كانت ملاحظاته وأوصافه خالية من الدقة التي عودنا عليها في مشاهداته عن البلدان الأخرى فلقد أشار في بداية حديثه عن الصين إلى نهر أطلق عليه اسم (آب حياة) ، ووصفه وصفاً لا ينطبق على أي نهر من أنهار الصين ، حيث قال : (ويخترقه النهر المعروف بأب حياة ومعنى ذلك ماء الحياة ويسمى أيضاً نهر السير (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق (بكين) تسمى كوه بوزنه معناه جبل القروء يمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة عليه النوايع الكثيرة) (١) .

وقد اعتقد بعض الكتاب أنه قصد بهذا النهر يانجتسكيان ، إلا أن وصفه للمنبع والمصب والوادي لا ينطبق على ذلك النهر .

أما حديثه عن تنقلاته بين المدن الصينية فهو بالمثل لا علاقة له بواقع الحال ولا يتماشى مع المنطق . فهو يزعم قبل كل شيء بأنه سافر بواسطة الطريق النهري من ميناء زيتون (أموي أو تسوان شو Tswanchow fu) حتى مدينة خان بالق (خانغو أو بكين الحالية) مقر القان ، أي من أقصى جنوبي الصين إلى أقصى شمالها ، مع أن المعروف بأن ميناء تسوان شو الحالي لا يرتبط بالنظام المائي الداخلي الذي يسود الصين . وقد أوضح ذلك بقوله :

(وسافرنا في هذا النهر [نهر السبرد] سبعة وعشرين يوماً ، وكل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج إليه ونصلي الظهر ثم ننزل بالعشى إلى أخرى . وهكذا إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كلان وهي مدينة صين الصين [كانتون] . وهناك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه بجمع البحرين وهي من أكبر المدن . . الخ) (١) .

إن حديثه هذا عن تنقلاته في الصين بواسطة الأنهار ، قد أدى إلى اقتناع عدد من الباحثين أن جولاته في تلك البلاد مختلفة من أساسها لكن جب دافع عن وجهة نظر ابن بطوطة وقدم تبريراً لها كما أشرنا سابقاً . وقد ذكر أنه لم يكن يعرف عن الصين سوى الجزء الذي زاره منها وما استطاع أن يجمعه عنه من معلومات ، وهي معلومات لا يمكن الاعتماد عليها دائماً بطبيعة الحال . ولم تكن تلك المعلومات سوى صورة للاعتقاد الذي كان سائداً في عهده من أن نهر السبر يصل حتى زيتون فالتجار لم يكونوا يعرفون سوى الجزء الساحلي من الصين ، وهم لم يكونوا يدركون إلا بغموض نظام المياه الداخلي الذي يربط هانغ شاو و (الخنسا) ونهر يانجي بكانتون والنهر الغربي (سيانغ كيان) عن طريق رافد بيكيانغ Pei - Kiang وبالتالي اعتبروا رافد بيكيانغ Pei - Kiang يمثل النظام النهري بأجمعه (٢) . ويضيف جب إلى ذلك قوله : (ولا بد لنا أيضاً أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب ، وبضمنهم بعض المصادر الصينية ، قد تحدثوا عن ميناء زيتون باعتبارها واقعة على نفس النظام المائي الذي تقع عليه مدينة الخنسا [هانغ شاو]) (٣) .

(١) « الرحلة » ، ص ١٦٣

(٢) « جب » ، ص ٣٦٨

(٣) « جب » ، ص ٣٦٨

وقد حاول كاتب آخر - وهو المستشرق يول Yule - أن يجد تفسيراً مقبولاً لتنقلات ابن بطوطة بين تسوان شو (زيتون) وصين كلان (كانتون) بواسطة النهر ، فذكر بأنه ربما سعد في طريق نهري بواسطة رافد مين Min من مدينة فوجاو ، ثم انحدر إلى المنابع العليا لرافد كان Kan حتى رافد بيكانغ Peikiang عن طريق بحر ميلينغ Mei - ling لكن هذا الطريق بالذات يشتمل على منحنيات طويلة ، والطريق المفترض الأول الذي ربما استخدم رافدي مي Mei وتانغ Tung هو أفضل إذا كان من الممكن استخدامه للمواصلات المائية (١) .

يتضح إذن أن قبول ادعاء ابن بطوطة بسفره من زيتون إلى صين كلان بواسطة نهر سبرو أمر صعب ولا يقبل منطق الحال ، إلا إذا افترضنا بأنه قد تفاضى - حسب اعتقاد جب - عن ذكر مراحل السفر البري التي تخلفت رحلته النهرية باعتبارها أمراً ثانوياً .

ثم إن حديثه عن الجهات المحيطة بكانتون أمر غير مقبول جغرافياً فلقد قال : (وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين ، وبينها وبين سد ياجوج وماجوج ستون يوماً فيما ذكر لي ، ويسكنها كفار رحالة يأكلون بفي آدم إذا ظفروا به) (٢) . والمعروف أن منطقة كانتون منطقة زراعية هامة وكثيفة السكان منذ عصور بعيدة .

ويستمر ابن بطوطة في وصف تنقلاته في الصين بواسطة نهر سبرو فيقول : (واخترت السفر في النهر فجهزوا لي مراكباً من المراكب المعدة لركوب الامراء ، وبعث الأمير معنا أصحابه ، ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار المسلمون أزواداً كثيرة . ثم سرنا في الضيافة نتغذى بقرية

(١) « جب » ، ص ٣٧٠

(٢) « الرحلة » ، ص ١٦٤

ونتعمش بأخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجنفو وهي مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيج والبساتين محدة بها فكانها غوطة دمشق (١) . وبلاحظ أنه لم يشرح أي معالم للطريق بين المدينة السابقة صين كلان (كانتون) وبين مدينة قنجنفو ، بل تحدث حديثاً عاماً يكاد يخلو من أي معنى جغرافي . ومن الجدير بالذكر أن أغلب الكتاب ينفون وجود مدينة باسم قنجنفو ، لكن البعض منهم يعتقد أن المقصود بها مدينة فوجاو ، كما أن للبعض الآخر آراء أخرى حول موضعها الحالي (٢) .

ويستمر ابن بطوطة في الكلام عن سفراته فيقول : (وكانت اقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوماً وسافرت منها إلى بلاد الصين ، وعلى ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فمضى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فأقلقني ذلك حتى كنت أأزحم المنزل فلا أخرج إلا للضرورة . وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكانني لقيت أهلي وأقاربي . . لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو وهي مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس للمسلمين بها إلا أربعة من أهل الدور . . وأقمنا عنده ثلاثة أيام ، ثم ودعت الفقيه وانصرفت . فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعمش بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوماً إلى مدينة الخنصا واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ، ولا أدري أعربي هو أم وافق العربي ، . (٣) .

إن مما يؤثر الاستغراب في المقطع المذكور اعلاه عدم التفات ابن

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٥

(٢) « جب » ، ص ٣٧١

(٣) « الرحلة » ص ١٦٦ - ١٦٧ ج ٢

بطوطة الى المدن الواقعة على الطريق فيما بين قجنفو (فوجاو) والخنسا (هانغ تشو) خلال رحلة استغرقت عشرين يوماً سوى مدينة صغيرة اطلق عليها اسم (بيوم قطلو) . ويكاد يجمع الباحثون أن اسم (بيوم قطلو) غير موجود بين المدن الصينية ، وقد عجزوا جميعاً عن تحديد موضعها . أما جب فيعتقد أن هذا الاسم لقائد تركي تترى ، وربما سمعه ابن بطوطة أثناء تجواله في الصين فحسبه لاسم مدينة (١) . ويلاحظ أيضاً أنه لم يقدم لنا وصفاً جغرافياً مفيداً للطريق والمناظر التي مر بها بل شغل بالحديث عن امور عامة لا تمس الرحلة مساً مباشراً .

ويستمر ابن بطوطة في وصف تنقلاته بين المدن الصينية فيقول : (وسافرنا من هذه المدينة - الخنسا - وهي آخر أعمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمر ، فانه إن بقي موضع غير معمر طلب أهله أو من يواليهم بخراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانب هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوماً وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضراً غير مقيم لأنها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبساتين فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار الى عانة . وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا الى مدينة خان بالق وتسمى أيضاً خانفو وهي حضرة القان ، والقان هو سلطانهم الأعظم الذي ملكته بلاد الصين والخطا) (٢) .

تمثل مدينة خان بالق أو خانفو (بكين) إذن آخر مدينة وصل

(١) « جب » ، ص ٣٧١ - ٣٧٢

(٢) « الرحلة » ص ١٦٩ - ١٧٠ ج ٢

اليها ابن بطوطة ، وتقع في اقصى شمال شرق الصين . وكان المفروض أن يسجل لنا كعادته وصفا جغرافيا للمنطقة الشاسعة التي اخترقها فيما بين الخنسا (هانغ شاو) وخان بالق (بكين) ، لكنه اقتصر على القول بأنها عبارة عن مزارع متصلة . وقد اعتبر بعض الكتاب ادعاهم بخلو تلك المنطقة من المدن دليلاً على جهله بالمنطقة ويقول يول yule بأن مثل هذا التقرير يدعو الى الشك فيما إذا كان ابن بطوطة قد سافر حقاً الى ما وراء مدينة الخنسا (كنساي) لأن تقريره هذا يشمل معلومات متناقضة للحقيقة تماماً (١) . أما زعمه بخلو المنطقة من المسلمين فتناقضه معلومات وتقارير الرحالة البندقي ماركوپولو الذي أقام في بكين ما ينيف على عشرة أعوام في نهاية القرن الثالث عشر . فقد تحدث ماركوپولو حديثاً مطولاً عن تأثير العرب والمسلمين في إدارة دفة الحكم في البلاد . وقد روى قصة أمير عربي اسمه أحمد كان يلي الامبراطور في نفوذه الواسع . وكانت الجالية العربية والاسلامية المقيمة في العاصمة كانبولوك (خان بالق) تتمتع بنفوذ عظيم . وقد ذكر مؤامرة حدثت ضد حكم الخان ، وكان غايتها القضاء على حكم أحمد بالذات ، وقد أدرك الامبراطور أسبابها فاستدعى سائر العرب الموجودين في العاصمة وأمرهم بتبديل عاداتهم (٢) .

إن المقاطع التي إوردناها اعلاه تمثل مجمل معلومات ابن بطوطة الجغرافية عن الصين . ولا يمكن مقارنة تلك المعلومات البسيطة بأية معلومات وردت في « الرحلة » عن أي بلد آخر توفرت له زيارته . وما يستلقت الانتباه أيضاً قلة المدن الصينية التي أورد ذكرها مع أنه عودنا على تسجيل كل مدينة يمر بها صغيرة كانت أم كبيرة . فهل من

(١) « جب » ، ص ٢٧٢

(٢) « ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته » ص ٥٤ - ٥٧ .

المعقول ألا يعلق بذهنه من مدن الصين سوى خمس مدن ، اثنان منها لا يمكن التعرف عليهما ، واثنان منهما ميناءان مشهوران والخامسة عاصمة البلاد ، علما بأنه لبث يتجول في انحاء الصين قرابه خمسة أشهر ؟ ! إن جهل ابن بطوطة بمدن الصين أمر غير معقول ، ولا يمكن أن يعزى هذا الجهل الى غرابة اسماء تلك المدن أو الى ضعف ذاكرته ، فقد عودنا أن تكون ذاكرته خارقة ولا تخضع للمقاييس الاعتيادية . هذا فضلاً عن أنه عجز عن تقديم أي وصف جغرافي مفيد للبلاد .

ولو عدنا لاستعراض أوصافه للمدن الخمس المذكورة لوجدنا أنها أوصاف عامة لا تعتمد على المشاهدة بقدر اعتمادها على السماع . وفي وسعنا أن نستشير مرجعاً تاريخياً هاماً لامتحان دقة تلك الاوصاف ومدى مطابقتها للحقيقة ، ألا وهو « رحلات ماركوبولو » . وقد سبق لنا أن ذكرنا أن هذا الرحالة الأوربي كان معاصراً لابن بطوطة ، وقد سبقه بحوالي نصف قرن في زيارة الصين وأقام فيها سنين طويلة ، وترك لنا وصفاً دقيقاً للمدن الصينية الهامة . قال ماركوبولو يصف مدينة خان بالق :

(سأحدثكم عن المدينة العظيمة التي تسمى كامبالو والتي تقع في مقاطعة كاثاي Cathaya . تبلغ مساحة هذه المدينة (٢٤) ميلاً مربعاً وتنقسم الى أربعة اقسام ، يقارب كل قسم منها (٦) أميال مربعة وهي ذات سور متين جداً ، يصل ارتفاعه الى عشرين خطوة كما يتجاوز ابراجه ثلاث خطوات . أما عرض السور فيبلغ حوالي خمس خطوات ولهذه المدينة اثنا عشر باباً ، لكل منها بناء عظيم جداً . ويقوم على كل زاوية من زوايا السور المذكور قصر عظيم أيضاً . ويقع في تلك الابنية عدد هائل من الحراس الموكلين بحماية المدينة . وقد خزن

في تلك الابنية جميع أنواع الأسلحة للدفاع عن المدينة وقت الضرورة .
أما شوارع المدينة فهي مستقيمة ومتسعة جداً ، حتى أن المشاهد يستطيع
أن يلمح نور الشمعة أو شعلة النار من أدنى طرف الشارع الى اقصاه
وفي المدينة عدد عظيم من القصور والبيوت الجميلة ، ويتوسطها قصر فخم
بديع ذو برج شاهق . ويشتمل البرج على جرس ضخيم ، وإذا ما دق
هذا الجرس ثلاث دقائق فلا يمكن أن يغادر أي انسان منزله سوى
الحراس الموكلين بحراسة المدينة ، والمريبات اللواتي يتكفلن برعاية
الأطفال الحديشي الولادة ، وكذلك الأطباء الذين يعودون المرضى . ولا
يمكن لهؤلاء أن يتجولوا في الشوارع دون أن يحملوا معهم ضوءاً .
ويقوم بحراسة كل بوابة من بوابات السور حوالي ألف جندي ، لا خشية
من الاعداء بل حماية للمدينة من الصووس وقطاع الطرق . وتهدف هذه
الحراسة التي فرضها الخان العظيم الى صيانة شعبه من التعرض لأذى
أي أحد .

وللمدينة اثني عشر ضاحية فخمة يقيم فيها القادمون من اقطار
أخرى ، كما يقطنها أيضاً السادة الذين يمتون بالصلة للملك وبلاطه . .
ويغادر المدينة كل يوم ما ينيف على عشرين ألف عربة محملة بالحرير .
ويتولى حراسة الخان العظيم كل ليلة حوالي عشرين ألف فارس يمتطون
صهوات جيادهم لاخوفاً من الاعداء بل اظهاراً للعظمة (١) ،

أما ابن بطوطة فقد وصف مدينة خان بالق على النحو التالي :
(ثم نزلنا الى المدينة وهي اعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد
الصين والخطأ في كون البساتين داخلها انما هي كساتر البلاد والبساتين

(1) The travels , Marco polo , Translated by John Fraumptou ,
London 1937 , Adam Charler Black P . 65 - 66 .

بخارجها ومدينه السلطان في وسطها كالقصبه حسبما نذكره (١) .

ثم وصف ابن بطوطة قصر الخان على النحو التالي :

(وقصره في وسط المدينة المختصة بسكنائه واكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب . فالباب الاول منها يجلس به التكتوال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها الممالك البردارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل واخبرت أنهم فيما تقدم الف رجل . والباب الثاني يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة ، والباب الثالث يجلس عليه النزارية وهم أصحاب الرمح وعددهم خمسمائة . والباب الرابع يجلس عليه التغدارية وهم أصحاب السيوف والترسة . والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة . والباب السادس من ابواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم . والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف ، احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود ، والثالثة سقيفة الصينيين ، ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين) (٢) .

أما ماركوپولو وصف قصر السلطان على النحو التالي : (يمتد القصر من جوار السور الشمالي الى جوار السور الجنوبي ولا يترك سوى ساحة لمرور الاشخاص ذوي المنزلة والحراسة والعسكريين . والاساس الذي قام عليه القصرير تقع عن مستوى الارض كما بني جدار من الرخام في جميع جهاته ، وهو عبارة عن شرفة يمكن مشاهدة الذين يتمشون عليها من الخارج . وعلى طول هذا الجدار الرخامي يقوم (درايزون)

(١) « الرحلة » ص ١٧٠ ج ٢

(٢) « الرحلة » ص ١٧٠ - ١٧١

ذو اعمدة يسمح للناس بالاقتراب منه . وتزدان جوانب القاعات الكبيرة والشقق بالتنانين المحفورة والمدهوة بالذهب وبرسوم المحاربين والطيور والوحوش وبصور مناظر القتال وفي كل جانب من الجوانب الأربعة يوجد درج رخارمي ينقل الصاعد من مستوى الارض الى الشرفة الرخامية المؤدية الى القصر . وفي مؤخرة القصر ابنية كبيرة فيها ممتلكات الخان الخاصة وكنوزه من الذهب والفضة والاحجار الكريمة وصحاف الفضة والذهب ويقوم على الجانب الآخر المقابل لقصر الخان قصر آخر يشابهه من جميع الوجوه ويسكنه ابنه الاكبر . وفي الجانب الشمالي وعلى مسافة مرمى سهم من سور القصر يوجد جبل اصطناعي من التراب يبلغ ارتفاعه مائة خطوة ، ومحيطه في قاعدته حوالي ميل . وهو مكسو بالاشجار الجميلة الدائمة الاخضرار . وبسبب هذه الخضرة الدائمة فقد دعي المكان بالجبل الاخضر وعلى قمة الجبل أقيم سرادق مزخرف ذو لون أخضر أيضاً ، وإن منظر الاشجار والابنية والجبل يؤلف مشهداً بهيجاً وعجيباً . . (١) .

ووصف ماركو بولو مدينة الخنسا (كينساي - هانغ شاو) على النحو التالي :
 (وبعد مغادرة مدينة سينغاي singuy والسفر حوالي خمسة أيام
 تصل الى مدينة عظيمة وشهيرة تسمى كينساي Quinsay أي مدينة
 السماء . وهذه المدينة هي اعظم مدن العالم وهي عاصمة مقاطعة مانجي
 mangi . وأنا ماركو بولو كنت في هذه المدينة وقد تعلمت عاداتها .
 وقد اخبرت بان محيطها يبلغ حوالي مائة ميل ، وانها تشتمل على اثني
 عشر الف جسر حجري ذات اقواس شاهقة تمر تحتها السفن الضخمة .
 وتقوم المدينة فوق المياه مثل مدينة قنساي . وينبغي على كل فرد من
 سكان هذه المدينة أن يمتن مهنة أبيه واجداده .

(١) ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته » ، ص ٤٩ .

وتوجد في هذه المدينة بحيرة يبلغ محيطها حوالي (٣٠) ميلا وقد شيد وسطها أجمل فصر وقعت عليه عيناي ، كما بني فيها قصران آخران تقام فيهما أعراس المدينة ، ويحتفظ فيهما بكل ما تحتاجه حفلات الاعراس . ويتولى حراسة كل جسر من تلك الجسور الاثني عشر حارس دائم لئلا ترتكب أعمال تخريبية ، ولئلا يحدث أي تمرد . وينتصب في المدينة جبل مرتفع يعلموه برج شاهق جداً وفوقه ناقوس ويقرع هذا الناقوس حينما تشب النار في احدى مواضع المدينة أو حينما تنشب الاضطرابات . وفي المدينة أربعة عشر حماماً . (١) .

أما ابن بطوطة فقد وصف مدينة الخنسا (هانغ شاو) على النحو التالي :

(ووصلنا بعد سبعة عشر يوماً الى مدينة الخنسا . واسمها على نحو اسم مدينة الخنساء الشاعرة ، ولا أدري عربي هو أم وافق العربي . وهذه المدينة اكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل ، وهي على مذكرونا من ترتيب عمارة الصين كل واحد له بستانه وداره ، وهي منقسمة الى ست مدن سنذكرها . وعند وصولنا اليها خرج اليها قاضيها فخر الدين وشيخ الاسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والأطبال والأنفار والابواق ، وخرج أميرها في موكبه . ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ، ومحدد بالجميع سور واحد . فأول مدينة يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثني القاضي وسواء أنهم اثني عشر ألفاً في زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم . وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ، ويسكن بها

(1) The travels of Marco Polo ' P , 93 - 94 .

اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير . وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة ، كترتيبها في بلاد الاسلام ، وبها المساجد والمؤذنين سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . . وعدد المسلمين كثير بهذه المدينة . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً . فكنا في كل يوم وليلة في دعوة جديدة . ولا يزالون يختلفون في اطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة في اقطار المدينة . وركبوا معي يوماً فدخلنا الى المدينة الرابعة وهي دار الامامة وبها سكنى الامير الكبير قرطي . . وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الستة ، ويشقها انهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الاعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقود ، وفيه السفن للنزهة ، والمشور [قصر الحكم] في وسط هذه المدينة وهو كبير جداً . ودار الامارة في وسطه يحف به من جميع الجهات . وفيه سقائف فيها الصنائع يصنعون الثياب النفيسة والآت الحرب . أخبرني الأمير قرطي أن عددهم ألف وستمائة معلم ، كل واحد يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم جميعاً عبيد القان وفي أرجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ، ويباح لهم الخروج الى أسواق المدينة دون الخروج على بابها . ويعرضون كل مائة مائة ، فان نقص احدهم طلب به أميره . .

وفي غد تلك الليلة الخامسة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من اكبر المدن يسكنها عامة الناس أسواقها حسان وبها الخذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست . . ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها

وبالغد دخلنا من باب يسمى (كشتي وانان) الى المدينة السادسة ،
ويسكنها البحرية والصيدون والجلافة والنجارون ويدعون دودكران
(درودكران) والاصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم
عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير ، وهذه المدينة على
ساحل النهر الاعظم (١) .

ووصف ماركوپولو مدينة زيتون الواقعة قرب آموي وصفاً
موجزاً فقال :

(وبعد مغادرة كينساي واجتياز النهر المذكور والسفر حوالي
خمسة أيام نحو سولانو solano أو نحو الشرق عن طريق الجنوب ،
فانك تمر بمدن وبلدان كثيرة ذات مزايا عظيمة . وفي نهاية رحلة الخمسة
أيام تقوم مدينة عظيمة ظريفة هي مدينة زيتون وهي ذات مرفأ جيد
لذا تقبل عليها سفن عديدة من جميع البلدان محملة بالبضائع الكثيرة .
وهذا الميناء هو أعظم ميناء في العالم ، وهناك مقابل كل سفينة تدخل
ميناء الاسكندرية مائة سفينة تدخل ميناء زيتون . ويتقاضى الخان ضرائب
فادحة على السفن الداخلة والخارجة . فالسفن القادمة تدفع ١٠٪ من
البضاعة مكوساً ، كما تدفع عن الجواهر الكريمة والبهارات والصناعات
الشمينة ٣٠٪ وعن الفلفل ٤٠٪ . وهكذا يدفع التجار عن الكمارك
والتحميل وما شابهها حوالي ٥٠٪ من قيمة البضاعة) (٢) .

أما ابن بطوطة فقد وصف ميناء زيتون على النحو التالي :
(لما قطعنا البحر أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون . وهذه
المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ، ولكنه اسم

(١) « الرحلة » ص ١٦٧ - ١٦٩ ج ٢

(٢) « الرحلة » ص ٩٨ - ٩٩

وضع عليها . وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمفار الاطلس وتعرف بالنسبة اليها ، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبا القمية ، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت بها حوالي مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وهو فور كبير من البحر يدخل البر حتى يختلط بالنهر الأعظم ، وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلمدة سجلماسة ببلادنا ، وبهذا عظمت بلادهم . والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة (٢) .

إن المقارنات التي أوردناها أعلاه تكشف عن دقة أوصاف ماركوبولو للمدن الصينية وعن عمومية أوصاف ابن بطوطة لها ، كما تكشف أيضاً عن انعدام التشابه بين أوصاف الرحالتين إلا ما يتعلق بالامور العامة التي قد تنطبق على أية مدينة كانت . ولا يسعنا بالطبع أن نتشكك في أوصاف ماركوبولو لأنه أقام في البلاد كما ذكرنا ما ينيف على عشرة أعوام . ولهذا فإن من الطبيعي أن تتجه الشكوك نحو أوصاف ابن بطوطة وعلى هذا يمكن القول أن ابن بطوطة ربما نقل تلك الأوصاف ، أو على الأصح ما تبقى منها في ذهنه عن التجار الذين زاروا الصين ، ولعله زوقها بعض الشيء . وهنا لابد لنا أن نقرر حقيقة معروفة وهي أن المعلومات عن الصين كانت متوفرة في ذلك العهد لدى التجار العرب والمسلمين . وقد أكد لنا ابن بطوطة نفسه في ثنايا « رحلته » أنه التقى بكثير من التجار العراقيين والمصريين والشوام ممن كانوا يزاولون التجارة مع الصين . ثم ان اقامة ابن بطوطة تلك السنوات في الهند قد هيأت له فرص الالتقاء بكثير من التجار الذين كانوا يقصدون الصين . ومن

المعلوم أن الصلات التجارية بين الهند والصين كانت قوية جداً . وفضلاً عن ذلك كله فقد كان النفوذ العربي في الصين - الذي تأتى من انتشار الاسلام بين الصينيين - واسعاً وملموساً . وقد أشرنا الى قصة الأمير أحمد التي رواها ماركوبولر بأسهاب . وقد أوضح ماركوبولر أيضاً في مواضع عديدة من « رحلته » اعتماد الأباطرة الصينيين على العرب والمسلمين . وقد قوى هذا الاعتماد من نفوذ التجار العرب الذين كانوا يفدون إلى الصين بأعداد كبيرة . كل ذلك يقودنا الى الاستنتاج بأن استقاء المعلومات عن الصين لم يكن أمراً عسيراً على ابن بطوطة ، لاسيما وانه كان كثير الاتصال بتجار من مختلف الأقطار العربية . ولا يعنى هذا الاستنتاج أن معلوماته كانت مخطوءة ، لكنها كانت مقتصرة على جوانب محدودة تخص النواحي الادارية والاقتصادية ، وهي ما تيسر له سماعه من أفواه التجار . ولعل مما يؤيد اعتماد ابن بطوطة على الآخرين في جمع معلوماته عن الصين خلوها من الملاحظات الاجتماعية التي عودنا عليها في بقية أجزاء « الرحلة » وبعبارة أدق فإن الملاحظات الاجتماعية كانت ثانوية ونزرة جداً مع أنها تعتبر بالنسبة للرحالة أهم الملاحظات وقد فاتته أن يذكر مشاهد لا يمكن أن تغيب عن ذاكرة الرحالة ومثالها سور الصين العظيم . ثم انه وقع في تناقضات واضحة . فقد ذكر أنه حينما وصل مدينة زيتون كتب صاحب ديوانها الى القان يخبره بقدومه من جهة ملك الهند (١) . مع انه يعلم تمام العلم بأنه لم يعد يمثل ملك الهند منذ أن غرق الوفد الرسمي وانه قد قدم بشكل شخصي بعد انقضاء ما يقرب من عامين على ارسال الوفد الرسمي . والظاهر ان رحلته الى الصين لم تتجاوز مرحلة الشروع بها وانها قد قبرت مع غرق الوفد في

المياه الهندية لكنها ظلت عالقة بذهنه .

واضافة إلى ذلك فقد وقع في بعض الأخطاء التاريخية . ومثال ذلك حديثه عن الاضطرابات التي اجتاحت الصين بسبب الخلاف بين القان الأكبر وابن عمه فيروز على السلطة ، ونقل العاصمة من خنان بالقي إلى قراقورم . ويقول جب أن من المعروف تاريخياً أن الخانات الكبار لم ينقلوا العاصمة إلى مدينة قراقورم إلا بعد وفاة توغون تيمور عام ١٣٧١ (كما تدل التواريخ الصينية) ، في حين أن زيارة ابن بطوطة للصين قد تمت على زعمه حوالي عام ١٣٥٦ (١) .

وقد وصف ابن بطوطة بأسباب مشهد دفن القان الأكبر بعد مقتله على يد ابن عمه . ويعلق جب على ذلك الوصف بقوله بأن من المعروف بأن المشهد الذي وصفه ابن بطوطة يمثل احتفال دفن الرئيس التاريخي لا القان الأكبر ، فكيف يمكن أن يكون قد شهد دفن الامبراطور بنفسه كما يزعم ؟ (٢) .

وبعد أن استعرضنا العوامل التي تشير شكوكنا حول رحلة ابن بطوطة إلى الصين ، لابد أن نؤكد بأن تلك الشكوك لا تقلل من قيمة وأهمية المعلومات التي أوردناها عن تلك البلاد ونخص منها المعلومات الاقتصادية والادارية ، فهي معلومات قيمة ودقيقة عموماً ومنزوعة عن المبالغات . وقد سجل ماركوبولو في كتاباته عن الصين معلومات مشابهة . ولاريب أنها معلومات أصيلة لم يسبق ابن بطوطة الى تسجيلها أحد من الرحالة العرب والمسلمين . وإذا لم يكن ابن بطوطة قد شاهدها بنفسه فمن المؤكد أنه قد نقلها عن أشخاص تيسرت لهم مشاهدة الصين ومعرفتها حق المعرفة

(١) « جب » ص ٢٧٢

(٢) « جب » ص ٢٧٢

فأما ما يخص المعلومات الادارية فقد تناولت جوانب متعددة . ومن أمثلة ذلك حديثه عن ديوان الوزارة على النحو التالي :

(والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة ، فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند ، وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب . وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن يمينها صحيفة ككتاب الرسائل . وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة ككتاب الأشغال . وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمى ديوان الأشراف يقصد بها المشرف ، والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الأمراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من اقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتّاب فمن لحقته مظلمة استغاث بهم ، والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الاخباريين) (١) .

وسجل لنا ابن بطوطة وضع المسلمين وما يتمتعون به من حرية دينية وامتيازات سياسية ، وذكر أنه في كل من بلاد الصين شيخ للاسلام تكون امور المسلمين كلها راجعة إليه وقاضي يقضي بينهم (٢) . وأشار إلى الضمان الاجتماعي الذي كان مطبقاً في الصين فذكر أنه توجد في مدينة صين كلان (كانتون) كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقصد عليها الساكنون بها ، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة . وكذلك فيما بين الأبواب كلها . وفي داخلها المارستان الممرضى والمطبخة لطبخ الأغذية

(١) « الرحلة » ص ١٧٠ ج ٢

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٤

وفيهما الأطباء والخدام . وللمشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل من لا مال لهم (١) . وفي موضع ثان من « الرحلة » أشار إلى نوع آخر من الضمان الاجتماعي ، فذكر بأن القان يعتق عبده إذا بلغوا سن الخمسين ويتكفل الانفاق عليهم . كما تتكفل الدولة أيضاً بالانفاق على كل من بلغ هذه السن أو نحوها . أما من يبلغ الستين فإنه يعد كالصي ولا تجري عليه الأحكام (٢) .

وتحدث ابن بطوطة عن صيانة الأمن ببلاد الصين وعن المحافظة على أرواح الغرباء فقال :

(وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين ، فإن الواحد يظل منفرداً مسيرة تسعة شهور وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندق عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة . فإذا كان بعد المغرب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه الكاتب لكتابة أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم . فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه معدّ كل واحد باسمه وكتب به تفصيلاً وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه ، وإن لم يفعل طالبه بهم . وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق) (٣) .

وفي موضع آخر بين ابن بطوطة أسلوباً حكيماً من أساليب الأمن

(١) « الرحلة » ص ١٦٤

(٢) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢

التي كانت تطبق في البلاد وذلك بتصوير كل شخص غريب يدخل البلاد ليكون معروفاً لدى سلطان الأمن، فإذا ما فعل ما يوجب فراره أرسلت صورته إلى البلاد وبحث عنه، فأينما وجد شبه تلك الصورة أُخذ (١) وقد أشاد ابن بطوطة ببراعتهم البالغة في التصوير. وتحدث أيضاً عن اهتمام الدولة بالكمارك وتنظيمها تنظيماً دقيقاً وما ذكره في ذلك :

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك [مركب] من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتابه، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر. فإذا عاد الجنك إلى الصين صعدوا إليه وقابلوا ما قيده بأشخاص، فان فقدوا أحداً مما قيده طلبوا صاحب الجنك، فأما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه وإلا أُخذ فيه. فإذا فرغوا من فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها، ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن (٢).

وأما معلوماته الاقتصادية فقد شملت الحديث عن الزراعة والصناعة والتجارة. ففي ميدان الزراعة أوضح أهمية نهر السبر (يانجتسكيان) في الزراعة فذكر أن المزارع والبساتين والأسواق تكتنف جميع ضفافه وعليها النواير حتى ليفوق نيل مصر عمارة. وقد بين أن الصين غنية بفواكهها الممتازة لا سيما الأجاص الذي يفوق الأجاص العثماني والبطيخ

(١) « الرحلة » ، ص ١٦١

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٠ - ١٦١

الذي يناظر بطيخ خوارزم واصفهان ، وانها غنية بالسكر . والاعناب ،
وأن جميع فواكه البلاد العربية تنبت فيها . وقد ذكر أن القمح يزرع
فيها بوفرة وهو من أحسن انواع القمح ، كما يزرع فيها أيضاً العدس
والحمص (١) .

وتحدث عن ثروة الصين الحيوانية فذكر أنها تتميز بشكل خاص
بدجاجها ودبوكها الضخمة ، إلا أن الأغنام فيها قليلة جداً . وقد
استسلم لشطحات خيالية فذكر بأن الديك في الصين على قدر النعمة
وأن بيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز في بلاده (٢) .

واستعرض ابن بطوطة في أحاديثه عن الصناعة أهم الصناعات
الصينية وابدأ إعجابه الشديد ببراعتهم في شتى انواع الصناعات لا سيما
صناعة الفخار الصيني . وقد شرح صناعة الفخار على النحو التالي :

(وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينته الزيتون وبصين كلان
وهو من تراب جبال هنالك تقذف فيه النار كالفحم وسنذكر ذلك .
ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون
عليها فيعود الجميع تراباً ثم يخمرونه . فالجيد منه ما خمر شهراً كاملاً
ولا يزداد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار
ببلادنا أو أرخص ثمناً ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم) (٣) .

وتحدث عن الانسجة الحريرة وذكر أنها عندهم كثيرة جداً لأن
الدود تتعلق بالثمار وتأكّل منها فلا تحتاج الى كثير مؤونة ولذلك كثر
وقد أكد بأن الثوب الواحد من القطن يباع عندهم بالأثواب الكثيرة

(١) « الرحلة » ص ١٥٩

(٢) « الرحلة » ص ١٦١

(٣) « الرحلة » ص ١٥٩

من الحرير ، وأن الحرير لباس الفقراء ولولا التجار لما كانت له قيمة (١) واستلقت نظره أيضاً صناعة الأواني الخشبية لاسيما في مدينة المكنسا (هانغ شو) . وذكر بأن الصناع يصنعون في هذه المدينة أطباقاً يسمونها الدست وهي من القصب وقد الصقت قطعة ابدع الصاق ودهنت بصيغ احمر مشرق . وتكون هذه الاطباق عشرة واحداً في جوف الآخر وهي لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاءً يغطيها جميعها ، ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام الساخن فلا يتغير صباغها ولا يحول . وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواها (٢) .

وفي صدد حديثه عن التجارة سجل ابن بطوطة ملاحظة قيمة عن طريقة الصيني في التعامل النقدي التجاري ، وتعتبر تلك الطريقة من أقدم طرق التعامل النقدي في القديم . فقد قال :

(واهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه . وإنما يبيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها (بالشت) وهي بمعنى الدينار عندنا . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة - عندنا فأخذ عوضها جديداً ودفع تلك ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من السلطان . وقد وكل بتلك الدار من كبار الامراء ، وإذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يلتفت اليه حتى يضرفه

(١) « الرحلة » ص ١٦٠

(٢) المصدر السابق ص ١٦٩

بالباشت ويشتري (١) .

أما ملاحظاته عن الاحوال الاجتماعية في الصين فهي كما ذكرنا قليلة القيمة ونزرة للغاية ، ولا تتناسب قيمتها مع قيمة ملاحظاته الاقتصادية والادارية . وقد اتبع سردها نفس الطريقة التي انتهجها في سرد المعلومات الاقتصادية والادارية فأوردها جملة واحدة ولم ترد كملاحظات متفرقة في ثنايا « الرحلة » وقد وردت على النحو التالي :

(وأهل الصين يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهند وملك الصين تترى من ذرية تمكين خان . وفي كل مدينه من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفرون بسكانها ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعيات وسواها . وهم معظمون محترمون . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في اسواقهم . وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملابس . وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى امواله كثرة وعليه جبة قطن خشنه وجميع أهل الصين انما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرجل الثالثة . . وعاداتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل في اصبعه خاتماً ، ومن كانت له عشرة جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشر سمّوة السقي .) (٢) .

تلك هي مجمل ملاحظات ابن بطوطة الاجتماعية عن الصين ، وهي ملاحظات عابرة لا يمكن أن تصدر عن رحالة ظل يتجول في البلاد

(١) « الرحلة » ص ١٦٠

(٢) « الرحلة » ص ١٦٠

بضعة شهور ويمكن أن تتجلى ضعالتها بمقارنتها بملاحظات أبي زيد السيرافي . قال أبو زيد مقارناً بين أهل الصين والهند :

(وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يدفن إلا في اليوم الذي مثله من قابل ، يجعلونه في تابوت ويخلونه في منازلهم ويجعلون عليه النورة فتمص ماءه ويبقى والملوك يجعلون في الصبر والكافور . ويبكون على موتاهم ثلاث سنين ، ومن لم يبك ضرب بالخشب ، كذلك النساء والرجال . ويقولون : « إنه لم يحزنك ميتك ؟ ! » ويدفنون في ضريح كضريح العرب ولا يقطعون عنه الطعام . ويزعمون أنه يأكل ويشرب . وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديون فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتاباً ، وكتب الذي عليه الدين كتاباً وعلمه بين أصبعه الوسطى والسبابة ، ثم جمع الكتابان فطويا جميعاً ، ثم كتب على فصلهما ، ثم فرق فأعطى الذي عليه الدين كتابه باقراره .

ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقراً في الحجر ذكر الادوية والادواء ، داء كذا دواؤه كذا . فان كان الرجل فقيراً أعطي ثمن الدواء من بيت المال . ،

ونسأوهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤسهم وفي كل مدينة كتاب ومعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون . وليس عليهم خراج في ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم . وإذا ولد لأحد ذكر كتب اسمه عند السلطان ، فإذا بلغ ثمانين سنة أخذت منه الجزية . فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية واجري عليه من بيت المال . ويقولون أخذنا منه شاباً ونجري عليه شيخاً) (١)

(١) « أخبار الهند والصين » لأبي زيد السيرافي ، ص ١٦ - ٢١ ، راجع أيضاً الكتاب نفسه

ص ٢٢ - ٢٦ بصدد المقارنة بين أهل الصين والهند .

يتضح لنا إذن أن ابن بطوطة لم يمدنا بملاحظات اجتماعية قمية
عن سكان الصين وخصوصاً إذا ما قورنت بملاحظات غيره من الرحالة
الذين زاروا الصين بالفعل ، ولعل مرجع ذلك الى نسيانه للمعلومات
التي جمعها من التجار . وما لاريب فيه أنه لو تيسرت له زيارة الصين
فعلاً لأمدنا - كعادته - بأخبار كثيرة ، لاسيما وان زيارته للصين كانت
آخر مرحلة من مراحل جولاته في العالم القديم قبل عودته الى الوطن .
ولا يمكن أن تغيب مشاهداته في تلك البلاد عن ذاكرته .



افريقيا الغربية

لعل جولة ابن بطوطة في الصحراء العربية الكبرى وافريقيا الغربية من أدق وافضل ما اشتملت عليه « رحلته » ، كما انها في اكثر اجزاء « الرحلة » خلواً من المبالغات . وقد امتازت بوضوح خط سيرها بالرغم من اختلاف الكتابة حول مواضع بعض المدن ، والتي تعتبر في الوقت الحاضر مدناً تاريخية منقرضة . ويمكن أن نعلل دقة « الرحلة الافريقية » بكونها اخر رحلاته ، وبكونه قد شرع في تدوينها عقب عودته بشهور قليلة ، فكانت معلوماتها مازال طرية في ذهنه . وقد حاول ان يروي مشاهداته بحياد تام مما جنبها شطحات الخيال . أما معلوماتها فهي بمجموعها دقيقة ، كما انها اصيلة وقيمة ، ولم يرد لها مثيل فيما كتبه الادريسي أو البكري عن تلك الجهات . وقد اثبتت تحقيقات الرحالة الاوربيين في اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ان معلوماته عن الصحراء العربية الكبرى وعن غربي افريقيا صحيحة ودقيقة . ويمكن القول ان ابرز أخطائه في هذه الرحلة حديثه عن النيجر ، وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين المسلمين من قبله ، وشاركهم بعض الرحالة الغربيين من بعدهم ، ألا وهو اعتبار نهر النيجر فرعاً من فروع نهر النيل وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً بين الرحالة الغربيين حتى أثبت

منجو پارل عام ۱۷۹۵ انعدام الصلة بين النهرين .
ولعل ابن بطوطة لقتبس هذه الفكرة عن الادريسي ، وقد حدد
ابن بطوطة اتصال نهر النيجر بنهر النيل على النحو التالي :

(ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة
كارسخو والنيل ينحدر منها الى كبرة ثم الى زاغة . ثم ينحدر النيل
من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو وسنذكرهما ، ثم الى بلدة مولي من
بلاد الليمين وهي آخر عمالة مالى ثم الى يوفي وهي من اكبر بلاد
السودان ، وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولايدخلها الابيض من الناس
لأنهم يقتلونه قبل الوصول اليهم : ثم ينحدر الى بلاد النوبة وهم على
دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم ، ثم ينحدر الى جنادل
وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان في صعيد مصر) (١) .

ومن الجدير بالذكر ان حديث ابن بطوطة هذا قد اوقع بعض
دارسي « الرحلة » في الخطأ ، فقد اعتقدوا انه اتبع الطريق النهري
لزيارة السودان الشرقي ثم عاد مرة اخرى عن طريق الصحراء الكبرى
الى المغرب . فقد ذكر محمود الشرقاوي في كتابه (رحلة مع ابن
بطوطة) ما يلي :

(هذا هو الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في رحلته الى بلاد
السودان ومنه نعرف انه عبر الصحراء الكبرى الى افريقيا الغربية فنزل
الى نهر النيجر حيث تقع عليه مدينة تنبكتو [وقد خلط بينه وبين نهر
النيل] ثم سار على مركب صغير منحوت من خشبة واحدة الى بحيرة
تشاو ثم شق السودان الى دنقلة فالشلال فالسودان شمالاً) (٢) .

(١) « الرحلة » ص ١٩٦ ، ج ٢

(٢) الشرقاوي ، ص ٣٧٥

ان هذا الاستنتاج محذور بالطبع ، وان ابن بطوطة نفسه لم يصرح به . وقد وقع في هذا الخطأ أيضاً الشيخ محمد فخر الدين الذي وضع الخرائط لكتاب « مذهب رحلة ابن بطوطة » فقد رسم للرحلة الافريقية طريقاً يخترق الصحراء الكبرى فيما بين السودان الغربي ومصر (١) .

وفيما عدا هذا الخطأ الجغرافي الذي وقع فيه ابن بطوطة ، فان معلوماته وأوصافه الجغرافية للمناطق التي اخترقها خلال رحلته الافريقية هي من أفضل ماورد في « الرحلة » من أوصاف جغرافية وقد لخص لنا بدقة وبراعة الأوضاع الطبوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية للصحراء الكبرى ولافريقيا المدارية الغربية ، وحقق فيها مستوى عالياً في الكتابة الجغرافية . ولعل أجمل ما كتب في هذا الجزء من « رحلته » ما يتعلق بطريقه اختراق الصحراء والمشقات التي تواجهها القوافل وقد أشار أيضاً إلى أهمية الدليل في اختراق الصحراء ، ووصفه على النحو التالي :

(التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكثره أهل القافلة فيتقدم إلى ايوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكثروا لهم الدور ويخرجون للمقائهم بالماء مسيرة أربع ، ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن كتب الى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك .

وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم . وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فان كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر إنما هي رمال تسقيها الريح فترمي جبالاً من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت الى سواء . والدليل هنالك من

(١) « مذهب رحلة ابن بطوطة » - الخارطة الافريقية .

كثير تردده وكان له قلب ذكي (١) .

ومن الجدير بالذكر أن الرحالة يتناقلون دائماً نفس الاساطير عن الصحاري وما فيها من شياطين تلعب بهقول عابريها . وقد أشار ماركو بولو الى مثل تلك الحكايات في حديثه عن صحراء غربي الصين (٢) .

ولرحلة ابن بطوطة الافريقية أهمية تاريخية وانثروبولوجية . فأما أهميتها التاريخية فتكمن في كونها سجلاً قيماً مبنياً على تجربة شخصية لاحوال مملكة مالي الاسلامية في عهد السلطان منسي سليمان . فقد اسهب ابن بطوطة في وصف بلاد مالي وما يجري فيه من مراسيم واحتفالات وقد استغرقت أوصافه تلك صفحات عديدة . وقد أبرز في أحاديثه حقيقة هامة وهي سيادة الديكتاتورية المطلقة في تلك المملكة الفتية بالرغم من أنها ديكتاتورية تستند الى العدل الذي يتعثل بشخص السلطان سليمان نفسه . وقد بالغ في الحديث عن سيادة الامن والاطمئنان ضمن حدود تلك المملكة ، حتى أن المسافر لم يكن يخشى من أخطار اللصوص كما أن المظلوم كان يستطيع انتزاع حقه حتى من السلطان نفسه أو من ممثليه الاداريين . ولقد افاض ابن بطوطة في وصف تعظيم الناس للسلطان منسي وما ذكره في ذلك .

(والسودان أعظم الناس تواضعاً للملكهم واشدهم تذلاً له ويحلفون باسمه فيقولون منسي كي . فاذا دعي بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرها نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خلقه ونزع عمامته وجعل شاشية وسخاً ودخل رافعاً ثيابه وسراويله الى نصف ساقيه ، وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بحرقية ضرباً شديداً ووقف كالراكع يسمع

(١) الرحلة ص ١٩٢ - ١٩٣ ج ٢

(٢) ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته ص ٢٨

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت اعجب منهم كيف لا تغمى أعينهم . وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عما بينهم على رؤسهم وانصتوا الى الكلام . وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله في خدمته ويقول فعلت كذا فيصدقه من علم وتصديقه ثم أن يترجع أحدهم وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى . فإذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترأب . وذلك عندهم من (الأدب) (١) .

وأما أهمية « الرحلة » الإفريقية من الناحية الانثروبولوجية فتمكن في تراثها بالملاحظات الاجتماعية والاقتصادية عن قبائل الطوارق والقبائل الزنجية التي تقطن أفريقيا الغربية . ففي الجانب الاقتصادي تبرز حقيقة واضحة في ملاحظات ابن بطوطة وهي إخضاع العرب للصحراء الكبرى واستخدامها طريقاً يصل أفريقيا الشمالية العربية بأفريقيا الغربية الزنجية . وكانت التجارة نشطة على امتداد تلك الطرق الطويلة التي تربط مصر واطار المغرب العربي بأفريقيا الغربية المدارية . وكان الطريق البري يخترق الصحراء الكبرى قادماً من بلاد النيجر يتفرع الى فرعين رئيسين يطلق على أحدهما اسم طرئق غات وهو يتجه نحو مصر ، ويطلق على الآخر اسم طرئق توات وهو طريق بلدان المغرب (٢) .

وأوضح لنا ابن بطوطة أنواع البضاعة التي تنتقل على هذا الطريق فذكر انها تشمل على الانسجة والمعادن ولا سيما العبيد . كذلك أوضح طريقة التجارة المتبعة في أفريقيا الغربية المدارية فذكر بأن المسافرين في

(١) « الرحلة » ص ٢٠٠ ج ٢

(٢) المصدر السابق ص ٢١٠

تلك البلاد لا يحمل زاداً ولا ادمأ ولا ديناراً ولا درهماً وإنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسمونه الناس (النظم) وبعض السلع العطرية لاسيما القرنفل والمستكي . فإذا وصل القرية جاء نساء السودان بالحبوب واللبن والدجاج والأرز ودقيق اللوبياء فيشتري منه ما أحب من ذلك . (١) ويتعامل السكان أيضاً في مناطق أخرى بالودع لاسيما في مالي وكوكو . وفي موضع آخر ذكر ابن بطوطة أن سكان السودان الغربي يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة وهم يقطعونه قطعاً ويتبايعون به . وقد أكد على أهمية الملح في قرية تفازي بشكل خاص التي تقع وراء سجلماسة بخمس وعشرين يوماً . وقد قال في ذلك : ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتميشون بما يجلب اليهم من تمر سجلماسة ومن أنلي المجلوب من السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منه الملح ويبيع الحمل ببايوالاتن بعشرة مثاقيل من الذهب الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً الى عشرين ، وربما انتهى الى أربعين مثقالاً (٢) .

وهكذا رسم لنا ابن بطوطة صورة اقتصادية متكاملة لكل منطقة يمر بها في أفريقيا الغربية موضحاً طريقة تعاملها الاقتصادي وما تتبادله من بضائع وما تنبته من مزروعات أو تصنعه من المصنوعات . أما ملاحظاته الانثروبولوجية فأهمها بلا ريب ما يتعلق بقبائل

(١) « الرحلة » ص ١٦٩

(٢) « الرحلة » ص ١٩١ - ١٩٢

الطوارق وينظمها الأمي . ويعتبر ابن بطوطة أول الرحالة الذين كشفوا عن النظام الأمي الذي تتبعه تلك القبائل لاسيما في منطقة ايوالاثن والجهات المجاورة . وهو النظام الذي يجعل المرأة على قدم المساواة مع الرجل إن لم تكن اعظم شأناً منه . ويجعل النسب والوراثة متعلقين بالأم وعائلتها وكانت مدينة ايوالاثن أول مدينة لاحظ فيها ابن بطوطة سيادة هذا النظام الاجتماعي الذي صورته على النحو التالي :

(وبلدة ايوالاثن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلها البطيخ . وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير بها . وثياب أهلها حسان مصرية . وثنسائها الجمال الفائق ومن اعظم شأنها من الرجال وشأن هؤلاء القوم عجيب وامرهم غريب . فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب احدهم لأبيه بل ينتسب لحاله ولا يرث إلا ابناء اخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار المليبار من الهنود . وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن . وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يتحججن مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج لهنهكن لا يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت احدهن ذلك لمنعهن أهلها . والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الأجانب . وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ، ويدخل احدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا يسكر ذلك) (١) .

أما ما يتعلق بالقبائل الزنجية التي تقطن أفريقيا الغربية المدارية والاستوائية فلم يسجل ابن بطوطة عن حياتها الاجتماعية سوى ملاحظات عابرة . فقد ذكر مثلاً أن الخدام والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ، كما أن النساء يدخلن على السلطان عرايا

غير مستترات ، وكذلك تفعل بناته (١) . وذكر أيضا لبسهم للثياب البيض النظيفة ، واكلهم للخبث والكلاب والحمير .

وأشهر الى بلاد تقع وراء مملكة مالي نحو الداخل وذكر أن سكانها يأكلون بني آدم . ومن عادة هؤلاء القوم أن يجعلوا في أذانهم اقراطا كباراً وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون بملاحف الحرير ويكثر الذهب في بلادهم (٢) .

وأخيراً فلابد من أن نؤكد ثانية بأن رحلة ابن بطوطة لأفريقية بالرغم من إيجازها الشديد - قد اشتملت على معلومات قيمة عن الصحراء العربية الكبرى وعن أفريقيا الغربية المدارية ، وهذه المعلومات تفوق ما ورد في كتب الرحالة والجغرافيين الأوائل . وإذا كان الأندلسي والبكري قد كتبنا عن الصحراء العربية الكبرى بأسهاب وتفصيل ، فإن تلك الكتابات لم يشتمل على ملاحظات انثروبولوجية واقتصادية بل اقتصر على ذكر مدن تلك المنطقة وتعداد ما بينها من مراحل ، كما اشتملت على وصف مفصل لبعض المواضع ، مما يجعل رحلة ابن بطوطة الأفريقية متفوقة عليها في ميدان الجغرافية الاجتماعية والاقتصادية .



(١) المصدر السابق ص ٢٠٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥

الخاتمة

بعد أن استعرضنا شخصية ابن بطوطة ورحلاته ، وما أورده فيها من ملاحظات أصبح من اليسير علينا أن نقيّم « رحلته » المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

ولقد توضح لنا بأن ثمة صفتين قد غلبتا على طبع ابن بطوطة وتحكمنا في حياته وهما روح المغامرة وحب السفر ونزعة التدبّر والورع ولقد قادته الصفة الأولى إلى الطواف في بلدان عديدة وإلى قطع المسافات الطويلة ، ولم يكن له من هدف سوى اشباع تلك الرغبة الجارحة . فقد لاحظنا مثلاً أنه لبث شهوراً طويلة يتجول بين جزر المحيط الهندي ، ويقطع الهند شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً دون هدف واضح . وقد كان بهذا الاعتبار يمثل الرحالة القديم المثالي الذي لا يهدف إلى تحقيق غرض علمي معين ، كما لا ينبغي كسب مغنم تجارية معينة . لهذا فإننا نعتقد أن ابن بطوطة لم يلجأ في يوم من الأيام إلى تسجيل أية ملاحظات ذات صفة علمية أثناء رحلاته . ولعل هذه الناحية تكشف لنا عن العفوية والسطحية التي تتصف بهما ملاحظاته عموماً . فلم ترد في « رحلته » ملاحظات تنم عن ترو وتفكير ومقارنة إلا نادراً والواقع أن ملاحظاته هي من النوع الذي يعلق بالذاكرة نتيجة المشاهدة ، وربما كان أفضل تلخيص « للرحلة » هو ذلك الذي سجله ابن جزي في المقدمة حيث قال : (يملئ ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار) (١) .

ولقد استتبع عدم لجوء ابن بطوطة إلى تسجيل ملاحظاته في حينها إلى فقدان « الرحلة » لكثير من المقومات الجغرافية الضرورية . فلم يكن

في كثير من الاحيان يعني بذكر الاتجاهات أثناء سفراته ، بل إنه كان يقفز في بعض المواضع قفزات غريبة من مدينة إلى أخرى لهذا أصبح من الصعب رسم خارطة واضحة لخط سيره في كثير من البلدان . كذلك اتسم وصف المدن لديه بسطحية وعمومية واضحة بحيث لا يمكن للمرء أن يمثل الموضع الجغرافي ، بل ولا يمكن الاستشهاد به . والحقيقة أن أغلب أوصافه للمدن متشابهة ومتكررة ، ونادراً ما تكشف عن سمة جغرافية ، متفردة . فضلاً عن ذلك فقد حرّف نطق عدد غير قليل من المدن نتيجة النسيان ، لاسيما ما يتعلق بالبلدان الأعجمية ، مما حير الباحثين في صحة وجودها أو في مواضعها الحقيقية . ولعل أهم مشكلة تواجه الباحث في « رحلة ابن بطوطة » هو عدم انطباق أسماء كثير من المدن المذكورة على المدن الحالية . ويشارك ابن بطوطة في هذه السمة ماركو پولو في رحلاته المعروفة ، فان أبرز عيوبها الجغرافية عدم دقة أوصاف المدن وأسمائها ، وعدم دقة خط تنقلاته بين تلك المدن مما أوقع الباحثين أيضاً في حيرة من أمرهم . وهذا أمر طبيعي فلم يسجل ماركو پالو ملاحظاته عن البلدان التي زارها في حينها بل استعادها من الذاكرة بعد سنين طويلة ، وقد أملاها على أحد زملائه في السجن وهو روسيتشلتلو البيزوي ، شأن ابن بطوطة الذي أملى رحلاته على ابن جزي لكننا إذا قارنا الجوانب الجغرافية في « رحلة ابن بطوطة » بمشيلاتها في « رحلة ابن جبير » مثلاً من حيث أوصاف المدن وخط السير لوجدنا ابن جبير متفوقاً عليه ويعود ذلك إلى قيام ابن جبير بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته يوماً بيوم مما أكسبها الدقة والتميز .

أما الصفة الثانية التي تحكمت في حياة ابن بطوطة وهي نزعة الورع والتدين فلاريب أنها قد طبعت « رحلته » بطابعها الخاص كلياً

فلا تكاد تقرأ أية صفحة من صفحات « الرحلة » تخلو من الحديث عن رجال الدين أو من الحكايات ذات الصبغة الدينية . وقد يرد البعض على مثل هذا الادعاء بالقول بأن الظرف الذي أُملي فيه ابن بطوطة « رحلته » ظرف يعني بأمور الدين ورجاله أكثر من أي شيء آخر ، وهو قول غير بعيد عن الصحة . إلا أن ذلك لا يقتضي بالضرورة تكريس « الرحلة » لشؤون الدين ورجاله ، فهي لم تكن رحلة دينية وإن كان غرضها الأول حج بيت الله ، وقد انتفى ذلك الهدف بمرور الزمن . بل إننا نرى أن رحلة مشابهة كان غرضها الأول حج بيت الله الحرام وهي « رحلة ابن جبير » لم تنصرف ذلك الانصراف إلى تقصي أخبار رجال الدين والأولياء والزهاد ، ورواية الأساطير عنهم كما حفلت بذكرها « رحلة ابن بطوطة » . ولقد أدت بابن بطوطة نزعة الدينية إلى إهمال النواحي الجغرافية ، فوردت ملاحظاته الجغرافية بصورة ثانوية ومبتسرة ، سوى حالات قليلة ، بينما أفاضت « الرحلة » في تناول النواحي الدينية وإن لم تكتسب معلوماتها تلك أهمية خاصة . بيد أننا لا نود أن نحمل نزعة ابن بطوطة الدينية ما في « الرحلة » من تصوير جغرافي ، فالجغرافيا لدى ابن بطوطة كان ضعيفاً أصلاً . ولقد كانت تفوته معالم جغرافية بارزة في بعض المدن لم تكن تنطبع في ذاكرته ولم تكن تستلفت انتباهه أما ما يتعلق بحكاياته فقد لاحظنا أنها كانت معقولة عموماً وتنم عن الصدق . ولا يعني ذلك أنها كانت مجردة من المبالغة دائماً ، لكن درجة الاختلاق فيها لم تكن عالية . وإذا قارنا حكاياته بحكايات الرحالة الآخرين لوجدناها عموماً أقل مبالغة . ففي أحد مواضع رحلات ماركو پولو مثلاً يؤكد بأنه قد قام بقياس ريشة طير الرخ فوجد أنها

تبلغ (٩٠) شبراً من أشباره (١) . أما المسعودى فيذكر في كتابه (أخبار الزمان) قائمة طويلة بأسماء الطيور والأسماك والحيوانات الغريبة التي لا وجود لها (٢) . وهناك عدد آخر من الرحالة والجغرافيين العرب الذين تحفل كتبهم بالمبالغات ومع ذلك فقد تعرضت بعض حكايات ابن بطوطة إلى الشك والارتياب الذي يبلغ حد التكذيب . ولم تراود الشكوك معاصريه فحسب ، بل راودت عدداً غير قليل من دارسي « رحلته » في الوقت الحاضر أيضاً . وقد أثارت شكوكهم أجزاء معينة من الرحلة ، لاسيما حكاياته عن ملك الهند محمد طغرل شاه ومشاهداته في الصين والقسطنطينية . فالمستشرق فران Ferrand مقتنع تماماً أنه لم يصل إلى الصين . والمستشرق يول Yule يؤكد بأنه لم يدخل القسطنطينية أبداً . ويؤيدهما في هذين الرأيين آخرون . لكن عدداً آخر من المستشرقين قد دافعوا عنه وبرروا ما يبدو من خلط أو غرابة في حكاياته عن هذين البلدين . فقد أكد جب أنه روى ما اعتقده حقيقياً ، إلا أن بعد الشقة الزمنية وخضوعه للمعاطفة الدينية قد أديا به إلى خلط الحقيقة بالخيال في بعض المواضع والحكايات فلم يميز بين ما شاهده حقيقة وبين ما سمعه سماعاً (٣) . كذلك أكد كراتشكوفسكي أن حكاياته بوجه عام جديدة بالثقة (٤) بل أن بعض المستشرقين تحمس

(١) « الارتياح والكشف الجغرافي » تأليف هـ . ج . رود وترجمة الدكتور شاكر خصباك ، منشورات دار المكتبة المصرية - بيروت ١٩٦٧ ص ٤٤ .

(٢) « أخبار الزمان » تصنيف المؤرخ أبي الحسن علي بن الحسن بن ملي المسعودي ، منشورات دار الأندلس ، بيروت ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٥٠ - ٧١ .

(٣) « جب » ص ١٢

(٤) كراتشكوفسكي ص ٤٢٨

له تهماً عظيماً كالمستشرق الاباطالي دوزي Dozy فأطلق عليه لقب « الرحالة الأمين » (١) . ومهما بلغ تفاوت آراء المستشرقين حول مدى صدقه فلا بد أن نعترف بأنه استسلم للخرافات في بعض حكاياته استسلاماً مطلقاً وبدرجة غير مقبولة ، وأبرز مثل على ذلك حكاية الفرجية وحكاية الرجل الصيني المعمر وحكاية الشجرة المقدسة وغيرها من الحكايات (٢) وإذا ضربنا صفحاً عما ما اشتملته « الرحلة » من عيوب جغرافية أو مبالغات أو حكايات مختلفة ، فإنها تظل ذات قيمة كبرى بما تحفل به من معلومات متنوعة عن أجزاء واسعة من العالم القديم . فقد تميزت بشمولية عظيمة تكاد تفتقد في أي مؤلف من مؤلفات الرحالة القدماء وقد مكنت تلك الشمولية ابن بطوطة أن يدلي بأحكامه عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل بلد عن خبرة ومعرفة بالأوضاع السائدة في بقية بلدان العالم القديم . فقد علمنا أنه زار بلدان شمالي افريقيا ومصر والسودان الغربي والاندلس وبلاد الشام وفلسطين وجزيرة العرب والعراق وشرقي افريقيا وآسيا الصغرى والقرم وحوض الفولغا الادنى وتركستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية . وما لا ريب فيه أن تلك الرحلات الواسعة قد اكسبته فهماً خاصاً لآحوال الشعوب كما اكسبته معرفة باقتصادها هذا بالإضافة إلى معاصرته لكثير من الاحداث التاريخية للبلدان التي زارها ومعرفة المباشرة بحكامها . لذلك يمكن اعتبار « رحلته ابن بطوطة » من افضل كتب الرحلات العربية القديمة كذلك تعتبر « الرحلة » ذات اهمية عظيمة لدارسي الجغرافية التاريخية ولعلماء الانثروبولوجيا . فلقد حفلت بالافوصاف المسهبة والدقيقة الأنظمة

(١) « دائرة المعارف » ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩

(٢) راجع الفصل الأول .

الاجتماعية والسياسية إبلدان جنوب شرق آسيا ، ولا سيما الهند وجزر الهند الشرقية والصين ، وكذلك لإقطار آسيا الوسطى والغربية كتركستان وبلاد الاناضول ، وكذلك لجهات افريقيا الغربية مما يمكن اعتباره سجلاً ممتازاً للأحوال السائدة في البلدان المذكورة في ذلك العصر . ويمكن القول أيضاً أن المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي وردت في « الرحلة » عن الهند وتركستان وجزر الملديف وجهات افريقيا الغربية معلومات أصيلة كلياً ، ولم يسبق ابن بطوطة إليها أي رحالة مسلم آخر .

ولابد من التأكيد أخيراً بأن « رحلة ابن بطوطة » ليست مؤلفاً ذا قيمة جغرافية وتاريخية وأنتروبولوجية فحسب ، بل هي في الوقت نفسه كتاب أدبي قيم غني بالحكايات الممتعة والعبر النافذة .



مصادر البحث

المراجع العربية :

ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة . المكتبة التجارية لمصطفى
محمد بالقاهرة

ابن جبير : رحلة ابن جبير . (تحقيق الدكتور حسين
نصار) منشورات مكتبة مصر - القاهرة ١٩٥٥

ابن فضلان : رسالة ابن فضلان ، حققها الدكتور سامي الدهان
مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩

ابن رسته : الاعلاق النفيسة . منشورات مكتبة المثنى عن
طبعة ليدن لعام ١٨٩١

ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان . منشورات مكتبة المثنى
عن طبعة ليدن لعام ١٨٨٥

ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض . ليدن ١٩٣٨

ابن خلدون : مقدمة العلامة ابن خلدون . المكتبة التجارية
الكبرى لمصطفى محمد بالقاهرة

ابو اسحاق الاصطخري كتاب الأقاليم . منشورات مكتبة المثنى عن
عن طبعة ليدن باشراف ميلر

أبي الحسن المسعودي : أخبار الزمان . منشورات دار الأندلس
بيروت ١٩٦٦

أبي زيد السيرافي : أخبار الهند والصين .
إبراهيم العدوي : ابن بطوطة في العالم الاسلامي - سلسلة افراً
العدد ١٤٤

أغناطيوس كرانسكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي (ترجمة
صلاح هاشم) . منشورات الجامعة العربية
بالقاهرة ج ١

أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك : مذهب رحلة ابن بطوطة
منشورات وزارة المعارف المصرية ، القاهرة ١٩٣٣
أنيس المقدسي : دائرة المعارف . بيروت ١٩٥٨

حسين فوزي : حديث السندباد القديم . لجنة التأليف والترجمة
والنشر بالقاهرة ١٩٤٣

رتشارد وولش : ماركو پولو - مغامراته واستكشافاته (ترجمة
المقدم حسين الياس) منشورات مكتبة
النهضة ببغداد

زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . دار
المعارف بمصر - القاهرة ١٩٤٥

الشريف الإدريسي : وصف الهند وما جاورها من البلاد ، (من
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) منشورات
الجامعة الاسلامية في عليكرة بالهند ١٩٥٤

- شوقي ضيف : الرحلات . دار المعارف ١٩٥٦
- عبد الله كنون : ابن بطوطة . مجلة المجمع العلمي العربي
بدمشق ١٩٦٥
- فؤاد بدوي : ابن بطوطة . دار الكاتب العربي للطباعة
والنشر - القاهرة ١٩٦٣
- مصطفى الشهابي : الجغرافيون العرب - سلسلة اقرأ ، العدد ٢٣٠
محمود الشرقاوي : رحلة مع ابن بطوطة . منشورات مكتبة الانجلو
المصرية ، القاهرة ١٩٦٨
- نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافية (ترجمة فتحي
عثمان) منشورات دار القلم بالقاهرة
- نقولا زيادة : الرحالة العرب
- هـ . ج . وود : الارتياد والكشف الجغرافي (ترجمه شاك
خصباك) ، منشورات المكتبة العصرية
بيروت ١٩٦٦
- ياقوت الحموي : معجم البلدان

المراجع الانجليزية :

polo , Marco , The Travels of Marco polo , translated by
John Frampton , Adam charles Blaeh ,
London 1937 .

Gibb, H. A. R., ' Ibn Battuta - travel in Asia and Africa . Routledge & Kegan , london 1953
(3 rd impression) .

Enciclopedia Britanica , - Ibn Battuta .

Sharaf, T., ' A short history of geographical discovery ' ,
Alexandria 1961 .

Page, J. W. ,
primitive races of to - day , London 1938 .

الفهرست

٥	مقدمة
١٧	الباب الأول
١٩	شخصية ابن بطوطة
٤٧	جولات ابن بطوطة
١٣٥	الباب الثاني
١٣٧	كتابة « الرحلة »
١٦٧	ثمار « الرحلة »
٢٨٥	خاتمة

كتب للمؤلف

الكتب الادبية

- صراع - (مجموعة قصص) القاهرة ١٩٤٨
عهد جديد - (مجموعه قصص) القاهرة ١٩٥١
حياة قاسية - (مجموعة قصص) بغداد ١٩٥٩
حكايات من بلدتنا - (مجموعة قصص) بيروت ١٩٦٧
بيت الزوجية - (مسرحية) بغداد ١٩٦٢
الغرباء - (مسرحية) القاهرة ١٩٦٥
الشيء - (مسرحية) بيروت ١٩٦٦
الحقد الاسود - (قصة طويلة) بيروت ١٩٦٦
آنطون تشيخوف - (دراسة وترجمة) بغداد ١٩٥٤

الكتب العلمية

- الكرد والمسألة الكردية بغداد ١٩٥٩
جغرافية العراق (مع آخرين) بغداد ١٩٦١
اعلام الجغرافية المدنية (ترجمة) الاسكندرية ١٩٦٤
المدخل في دراسة الجغرافية (ترجمة) الاسكندرية ١٩٦٤
نمو السكان في لواء السليمانية (بالانجليزية) بغداد ١٩٦٠

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٢٧٣ لسنة ١٩٧١

٢٥ - ١٠٠٠ - ٢٨ / ٨ / ١٩٧١

مطبعة الآداب - النجف الأشرف

IBN BATTUTA

AND

HIS TRAVELS

BY

SHAKIR KHESBAK (BA., PH.D.)

UNIVERSITY OF BAGHDAD

مطبعة الآداب - النجف

سنة ١٩٧١ م

الجزء ٦٠٠ فلساً

أو ما يعادلها